

موسوعة تاريخ الأسلامي

عصر الخلفاء الراشدين

عبدالحكيم الكعبي



دارأسامة

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

المؤشر

طاهر أسامي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

النحو: ٤٦٤٧٤٤٧ - ٥٦٥٨٢٥٣

فاكس: ١٤١٧٨١ ٥٦٥٨٢٥٤ مص. بـ:

كتبة الطابع لغفالة

م ٢٠٠٩

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

المؤلف،

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المقدمة

عصر الخلافة الراشدة هو العصر المضيء بعد عصر النبوة، تلك النبوة التي أكرم الله بها العرب أولًا والعالمين جميعاً بما جاءت به من تعاليم وشرائع معتمدة على كتاب الله عزَّ وجلَّ، فَهُنَّ الظِّلُّ وساد مكانه الحرية، وتلاشى الكفر وأحل في موقعه الإيمان، وزال الشر واستبدل بالخير.

هذا الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ وأراد أن ينشره في الجزيرة العربية وخارجها، فأكمل رسالته وجاء من بعده بعض أصحابه فأكملوا المشوار الذي بدأه نبيهم المصطفى، وحرصوا كل الحرص أن يشق الإسلام طريقه خارج صحراء العرب، فعم بلاد الشام وفلسطين ومصر، وتوسع في العراق وبلاط فارس، ودخلت فيه أمم شتى وشعوب متعددة، وهكذا ساد الدين الإسلامي.

وكنا قد أصدرنا مع هذا الكتاب كتاباً آخر حمل عنوان "موسوعة التاريخ الإسلامي في عصر النبوة وما قبله" وأظنه سيصدر مع هذا الجزء الذي تتولى دار أسامة مشكورة بنشره ضمن سلسلة موسوعية عُرفت باسم موسوعة التاريخ الإسلامي التي شملت الأجزاء التالية:

- ١- عصر النبوة.
- ٢- عصر الخلفاء الراشدين.
- ٣- عصر الدولة الأموية.
- ٤- عصر الدولة العباسية.

٥- العصر العثماني.

٦- عصر المماليك.

وقد حرصت أن يكون هذا الجزء مسترسلًا لما بدأت به في الجزء الأول
لا انقطاع بينهما إلا من خلال التسمية بالجزء الأول والجزء الثاني.
والحقيقة أن هذا العمل اعتبره عملاً خالصاً لوجه الله لخدمة أبناء الإسلام
أنا يكعون وإلى أي جنس أو لغة ينتمون.

وقد كان هذا الجزء خاصاً بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

١- أبو بكر الصديق.

٢- عمر بن الخطاب.

٣- عثمان بن عفان.

٤- علي بن أبي طالب.

وقد رأيت تسهيلاً على القراء ورافة بأبناء الإسلام ألا أدخل في
القصيرات أو التأويلات التي لا أراها ذا فائدة ترجى أو هدفاً يقصد، ومن هنا
حاولت أن أتوقف عند الأحداث الجسمانية وذكر ما هو ينفع ويجدي ولا أتورط كما
تورط بعض الباحثين في الاستشهاد والدعم لرأي وتصويب موقف يرى فيه
قضيته الذي أنشأ بحثه وكتابه عليه.

ومن هنا كان هذا البحث علمياً بقدر الإمكان، وقد بدأته بالحديث عن
خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه متوقفاً عند الظهور الأول لمنصب

الخلافة، ثم تحدثت عن كيفية وصول الخليفة إلى صاحب رسول الله وصديقه وأول من أسلم من الناس -أبي بكر الصديق-.

وقد وقفت عند حركات المرتدين تلك الحركات التي أعقبت وفاة النبي ﷺ وتسلم أبي بكر الصديق لخلافة حركة مسلمة الكذاب وسجاح وطليحة الأنصاري وغيرها من الحركات التي صاحبت تولي أبي بكر لخلافة وكيف وقف الخليفة أبو بكر الصديق موقف الحازم الصارم، فقتلهم بقادته وفرق شملهم بصناديد فرسانه، وأخن جراحهم في كل موقع كانوا يلجأون إليه.

ثم تحدثت عن الفتوحات التي تمت في عهد الخليفة أبي بكر في العراق والشام والمعارك التي أشعلها قادته وجنوده كمعركة الحيرة وتحرير الأنبار ومعركة أجنادين واليرموك.

ثم انتقلت في الحديث إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومباعته بالخلافة والفتحات التي تمت أثناء خلافته، كفتح بلاد الشام وفلسطين وتسلمه مفاتيح بيت المقدس، ودوره في معركة القادسية الشهيرة التي كانت خير دليل على عبرية هذا الرجل وصلابته في المواقف الصعبة.

ثم تحدثت عن فتوحات قادته في مصر وبرقة وأفريقيا، وكيف استطاع أن يقهر بحكمة كبار الدول كالرومانيين والفرس وغيرهم، وأشارنا فيما بعد إلى التنظيمات الإدارية التي كان له الفضل في إرساء قواعدها وابتداع أسسها، والدواوين التي أقامها مثل ديوان الجندي وبيت المال وغيرهما، وكذلك دوره في بناء المدن الجديدة لجنده وسعة بصره فيها كتأسيس البصرة والكوفة والفسطاط.

وانتقلنا بعد ذلك إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتحدثنا عن كيفية وصول الخلافة إليه، ودوره في إكمال مشوار الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجمعه للمصحف وغيرها من الأعمال التي أقيمت في عهده ثم توقفنا عند جريمة مقتله، والأسباب التي أدت إلى مقتله والنتائج السياسية التي أعقبت استشهاده.

وتحدثنا فيما بعد عن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه - حبيب محمد رضي الله عنه - وأول المدافعين عن محمد في معارك مكة المعنوية، و المعارك الصحراء العسكرية، مواقف ما زال يذكرها التاريخ، ويدرسها المعلمون للتلاميذ.

وقفنا عند الطريقة التي وصل بها إلى كرسي الخلافة والخلافات التي دارت حول هذه الخلافة، وموقف المسلمين في المدينة وخارجها من دم عثمان.

ولاشك أن علياً تسلم خلافته في وقت صعب، حيث بدأت الانشقاقات تدب في جسم الدولة الإسلامية، فحاول أن يهدى من هذه الأحداث، والوقوف بهذه الدولة من جديد ولكن الأحداث كانت أكبر من طموحاته وأجبر على خوض معارك جانبية كالجمل وصفين والنهر وان وغيرها، دفع بعدها حياته ثمناً لها.

نسأله أن يرحم خلفاءنا الصالحين ويغفر لهم، ويسكننا وإياهم فسيح جنانه وأن يوفقنا فيما أردناه وسعينا إليه، والله من وراء القصد.

المؤلف

د. عبد الحكيم الكعبي

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق

المبحث الأول: ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق

المبحث الثاني: حركات الردة

المبحث الثالث: انطلاق حركة الفتوح الإسلامية



المبحث الأول

ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه

نظام الخلافة:

مقدمة:

عرف العرب نظام الحكم الملكي في اليمن وفي مملكة كندة وفي ممالك شمال الحجاز التي قامت على تخوم العراق والشام، ولكن النظام القبلي في إقليم وسط الحجاز كان أحد الأنظمة الاجتماعية الذي لازم حياة البداؤة، وكان زعيم هذا النظام "شيخ القبيلة" الذي يختار ضمن شروط منها: عرافة القبيلة مجلس استشاري من عقلاه القبيلة، وليس "دار الندوة" في مكة المكرمة إلا واحدة من تلك المجالس.

وبعد ظهور الإسلام أسس رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة حكومة دينية في المدينة (يترتب) اعتمدت على عقيدة الرعية، وقامت على أساس إحلال الوحدة الدينية بدل العصبية القبلية، وأخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور، فالسلطة التنفيذية بدت في قيادته للغزوات وبعثه للسرايا، وتوزيع الغنائم، وتولية الأمراء، كما كان يُستقبل في مسجد المدينة المنورة الوفود والمبوعين،

ويقبل عليه الناس يسألونه عن قضاياهم، وكان إلى جانبه أشبه بمجلس من الصحابة المقربين الذين كان يستشيرهم في مختلف الأمور الدنيوية، وفي المسجد أيضاً ظهرت نواة السلطة القضائية، فكان يقضي بين المتخاصمين وكان حكمه ملزماً، أما السلطة التشريعية فقد تمثلت في نصوص آيات كتاب الله، وأحاديث الرسول وقراراته.

لقد كان رسول الله ﷺ في المدينة المنورة يمثل السلطتين المدنية والروحية معاً، وبعد فتح مكة واتساع رقعة الدولة بدأت تتضح معالم الإدارة الجديدة لجزيرة العرب، التي خضعت - لأول مرة - إلى رئاسة مركزية واحدة، لذا فكان يساعده في إدارة الدولة عدد من الكتاب والمستشارين من الصحابة، كما أرسل الأمراء والعمال إلى المناطق التي دخلت تحت سيادة الدولة الإسلامية، ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده، وكأنما أراد الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح خليفة لهم.

ظهور منصب الخليفة^(١):

وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبي بكر بالخلافة، بعد وفاة الرسول ﷺ على النحو الذي كان مألفاً لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم، وتم انتخاب خليفة النبي ﷺ على أساس السبق إلى

الإسلام، وعلى أساس الانتماء إلى قبيلة قريش، فما هي المعانى اللغوية والأسس الفقهية لهذا المنصب؟

الخلافة في معناها اللغوي النيابة عن صاحب الأمر إذا وكله عند غيابه، أو الحلول بدلاً عنه بالشوري والاتفاق، حتى ليقال فلان خلف فلاناً، أي حل محله، وإذا كان خلف فلان، فإنه يكون بعده في المكان، وتصبح الخلافة في مواضع الغياب والموت أو العجز المفاجئ، وباعتبار الارتباط الديني بالدیني فإن معنى الخلافة اتّخذ طابعاً شرعاً قوامه الوقوف على سياسة الدنيا بما يتوافق ومصالح الآخرة، والخلافة مصدر خلف، يقال: خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى: «وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي»^(٢)، ثم أطلقت في العرف العام على الزعامة العظمى وهي الولاية العامة على كافة الأمة.

وقد أختلف في لفظ الخليفة، فقيل: هو فعلٌ بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، ويكون المعنى أنه يخلفه من بعده، وعليه حمل قوله تعالى في حق آدم عليه السلام: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيلَه»^(٣)، على قول من قال: إن آدم أول من عمر الأرض وخلفه فيها بنوه بعده، وقيل هو فعل بمعنى فاعل، كعلم بمعنى عالم، وقدير بمعنى قادر، ويكون المعنى فيه أنه يخلف من قبله وعليه حمل الآية السابقة من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلاً، وأنه خلفهم فيها، وعليه خطوب أبو بكر رض بخليفة رسول الله.

ويعمد الماوردي إلى تعريف الخلافة "بأنها النيابة عن صاحب الشرع (النبي ﷺ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم"^(٤). بمعنى أن الخليفة لا يعدو أن يكون رئيساً دينياً وسياسياً نبيابة عن رسول الله، يجمع بين سلطتين: دينية، باعتباره إماماً للMuslimين يؤمهم للصلوة ويُسهر على تطبيق العدالة والإنصاف ويحمي الدين ويذب عنه من خطر الخارجين عليه، ودنيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الذّنية، أما ابن خلدون فيشير إلى أن الخلافة "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخرية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتباره بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"^(٥). وفي هذا يميز ابن خلدون بين أنواع ثلاثة للحكم هي: الملك الطبيعي، والملك السياسي، والملك الشرعي الذي يوازن ما بين الديني والدنيوي ليطلق عليه تسمية الخلافة.

والخلافة نظام حكم عربي إسلامي مبتكر حتمته الظروف في أعقاب وفاة الرسول ﷺ سنة ٦٣٢هـ / ١١م، واستحدث منصب "الخليفة" في سقيفة بني ساعدة عندما تم اختيار أبي بكر الصديق رض، وعندما وصلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب رض نادى المسلمين عليه بلقب فيه الكثير من الكلمة "خليفة خليفة رسول الله" فما كان منه إلا أن أشار عليهم "أنت المؤمنون وأنا أميركم" ليظهر لقب "أمير المؤمنين"، ونتيجة لارتباط هذا المنصب بالجانب القدسي الذي يمثله الرسول ﷺ

فإن وجوب الطاعة على جمهور المسلمين يعد أمراً لا يمكن المساس به أو الخروج عليه، بل إن مردّاف الإمامة يرتبط بالخلافة انتلاقاً من التوكيد الديني الدال على إمامية الصلاة، وقد ظهرت بعض التسميات المنادية بخليفة الله، إلا أن الخليفة أبو بكر الصديق رفض اللقب وأكّد على أنه خليفة الرسول منطلاقاً من

فكرة أن الاستخلاف يكون للغائب وليس للحاضر، ويقوم معنى كلمة "الإمام" على إمكانية القيادة والإرشاد والهداية، قال تعالى: «يَوْمَ نَدْعُ كُلَّ أُنَاسٍ يَأْتِمُهُمْ»^(١).

وهكذا نرى أن الخلافة والإمامية وإمارة المؤمنين هي ثلاثة كلمات معناها واحد تقريباً، وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا، وعلى هذا الأساس أجمع معظم المسلمين على وجوب الخلافة ولم يقل بجوازها سوى فئة قليلة، ولا يعني ذلك عدم أهميتها عندهم، بل أرادوا من هذا تقيير أو تحديد مكانتها في المرتبة أو الأهمية^(٢).

أما الشروط التي يجب توافرها في الخليفة فهي كما أوردها الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية سبعة، وهي: العدالة: العلم المؤدي إلى الاجتهاد، سلامة الحواس، سلامة الأعضاء، سلامة الرأي المؤدي إلى سلامة الرعية وتدبير المصالح وهو ما يعرف بالكافية، الشجاعة والنجدية لحماية البلاد ومجاهدة العدو، وأخيراً النسب القرشي، وهذا الشرط الأخير اختلف فيه إذ ينسب للرسول حديث في هذا الصدد يقول فيه "الأئمة من قريش".

اختيار خليفة لرسول الله ﷺ:

لم يكن اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ سهلاً، فقد استعرت الأهواء حول من يخلف الرسول في رئاسة الجماعة الإسلامية ونشب نزاع بين المهاجرين والأنصار كاد يفتت وحدة المسلمين ويتصدع إحدى المقومات الرئيسية التي قامت عليها الدولة العربية الإسلامية، وهي ارتباط المسلمين برابطة الإيمان والموالاة، فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول إلى ثلاثة تكتلات أو فرق لكل منها مرشحها: الفرقة الأولى من الأنصار الذين أيدوا اختيار سعد بن عبادة الخزرجي، والفرقة الثانية من المهاجرين وقد أجمعوا في نهاية الأمر على اختيار أبي بكر، أما الفرقة الثالثة فكانت تتألف من الهاشمية وفئة من الأمويين بالإضافة إلى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وكان تميل إلى اختيار علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله ﷺ^(١).

بعد جدل ونقاش بين المهاجرين والأنصار كاد أن يؤدي إلى أزمة خطيرة تمت مبادعة أبي بكر الصديق من قبل أغلب الحاضرين من المهاجرين والأنصار، وفي اليوم التالي لهذه البيعة الخاصة بوضع أبو بكر بالخلافة البيعة العامة في المسجد، فخطب في الناس قائلاً: "أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أساءت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوى ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا

يدعوه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ قط إلا عهم الله
بالبلاء، أطیعوني ما أطعْتَ الله ورسوله، فإذا عصيَّتَ الله ورسوله فلا طاعة لِي
عليكُم^(١).

كان أبو بكر من أوائل الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية، وكان يمتلك ثروة كبيرة صحي بها في سبيل صحبة الرسول ونشر الإسلام، هذا إلى جانب أنه كان على الرغم من سنه يتصرف بالبساطة والتزاهة والتواضع، فضلاً عن قدرته القيادية، فقد عرف كيف يستخدم سلطاته ك الخليفة للنبي، وبدأت سياساته تتضح منذ بداية خلافته، وتتلخص في السير على سنة الرسول ومنهجه في قيادة الدولة العربية الإسلامية، فقد كان النبي ﷺ قبل وفاته قد بدأ يعد العدة في إرسال حملة إلى شرق الأردن في بلاد الشام ربما للأخذ بثأر شهداء المسلمين في معركة مؤتة - التي تحدثنا عنها في كتابنا عصر النبوة - فأتم أبو بكر الاستعدادات اللازمة وأرسل الحملة على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بها المدينة في ذلك الوقت، فقد كانت الانقسامات قد بدأت تعيد سيرتها الأولى في جزيرة العرب إذ قامت حركة الردة على الإسلام بين القبائل العربية كما ظهر عدد من المنتسبين الكاذبين الذين قالوا أنهم يعيدون سيرة الرسول، وعلى الرغم من كل ما قيل عن أن هذه الحركات كانت خروجاً على الإسلام إلا أنه يمكن أن يقال أن القبائل تلك لم تخرج عن تعاليم الإسلام أو أنها ارتدت إلى الوثنية، ولكنها كانت ت يريد أن تتحرر من دفع ضريبة الزكاة، وهي الرابطة

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

الوحيدة التي كانت تربط الأفراد والقبائل البعيدة بالدولة، وقد وقف أبو بكر في هذا الأمر موقفاً حازماً حتى أنه قال: "لو منعوني خطام بغير لقائهم عليه" في الوقت الذي كان فيه بعض الصحابة وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب رض يميلون إلى شيء من التساهل معهم.

المبحث الثاني

حركات الردة

مني الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ بفتنة عظمى، كادت تفكك بالمنجزات الكبيرة التي حققها رسول الله للأمة، لو لا دور أبي بكر الصديق في زعامة المسلمين وتمكنه من إخماد فتنة الردة ودحر المرتدين بكل حزم وصلابة، فلم يكدر يفرغ المسلمون في المدينة من مبايعة أبي بكر بالخلافة حتى مُنِيت الأمة الإسلامية باضطرابات جسمية، وذلك أن بعض القبائل العربية بعد تولية أبي بكر كبر علىها أن تكون خاضعة لسيادة قريش لاعتقادهم أنها سلبتهم حريةهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، وتطلعوا إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي. من جانب آخر فإن الإسلام كعقيدة لم يكن قد تعمق في قلوب جميع العرب، فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحروب ولم يدرك أنها دفاعية، فدخل الإسلام تجنياً لخوض الحروب ضد المسلمين، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في مغانم أو جاء، فارتدى كثير من هؤلاء عن الإسلام، ولكن القبائل لم ترتد إلى ديانتها القديمة، كما أن العرب لم يفكروا في العودة إلى الوثنية، وليس من شك في أن هذه القبائل لم تكن على بيته من أمر الدين الجديد، فلم تثبت في نفوسهم تعاليم الإسلام، كما ثبتت في نفوس المتصلين برسول الله وأصحابه من أهل المدينة ومكة والطائف، وضعاف الإيمان

هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سُنحت لهم الفرصة كما فعل المنافقون في مواقف كثيرة سابقة، وكالأعراب الذين وصف القرآن الكريم إيمانهم في الآية: «قَاتَلَ الْأَعْرَابُ أَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَكَيْنُوْ قُولُوا أَسْلَمْتُنَا وَكَيْنَدْخُلُ الْأَيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»^(١)، ولقد كانت وفاة الرسول ﷺ الفرصة المناسبة لهؤلاء ليظهرروا ما أخفوا ولعلنوا ارتداهم.

ربما كانت كثير من القبائل تعتقد أن الإسلام لم يأت ليقيم دولة، وإنما جاء كدين، فلما قام أبو بكر بأعباء الخلافة بعد وفاة النبي أيقنوا أنهم أصبحوا خاضعين لسلطة مركزية يودون إليها الزكاة، وهذا النظام لم يألفه العرب قبل الإسلام، لذلك انقسم المرتدون عن الإسلام إلى قسمين: قسم خرج عن الإسلام، وهم بنو طيء وغطفان وأسد [جماعة المتبني طلحة بن خويلد الأسدى] وحنيفة [جماعة مسيلة الكذاب] وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسي، أما القسم الثاني من المرتدين فقد ظلوا على إسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة، وقالوا: "نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة"^(٢).

وخلاله القول أن المجال انفسح أمام المنافقين وأعداء قريش من العرب لإظهار ما يخفون من نوايا ونزاعات انفصالية، وظهرت - بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرةً - مظاهر الصدام العنيف بين النظمتين القبلي والإسلامي^(٣) من خلال تلك الحركة الواسعة التي عرفت بـ "الردة" والتي كانت في واقع الأمر لا تundo أن تكون انفاصاً على نظام الدولة الإسلامية الذي وضع الرسول الكريم أسسه في المدينة، فإن كثيراً من قبائل العرب لم تعرف بأبي بكر خليفة للنبي ﷺ اعتقداً

منهم بأن الإسلام قضى عليه بوفاة الرسول، وأن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش، ويجعل سلطان المدينة وراثياً، وقد ظهرت بوادر حركات الارتداد -لاعتبارات قبلية- في أواخر أيام رسول الله ﷺ، ثم استعرت بعد وفاته.

من أشهر حركات الارتداد بعد وفاة الرسول ﷺ:

- حركة الأسود العنسي:

هو عيالة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي، الملقب بذى الخمار، كان بطاشا جباراً عاتياً، أسلم لما قدمت وفود العرب إلى النبي ﷺ، ثم إنه ارتد في أيام النبي فكان أول مرتد في الإسلام، بعد ذلك ادعى الأسود العنسي النبوة في اليمن وتابعه قومه، فاشتد بهم سعاده وغزا بلاد نجران فدانت له كما دانت له مذحج، واستهوى بضلالته نفراً من عوام العرب فتملك أكثر جنوبى بلاد العرب، وبلغت أخباره إلى الرسول ﷺ فكتب إلى من بقي على الإسلام من أهل اليمن يأمرهم بمحاربته.

وكان رسول الله ﷺ بعد موت باذان الفارسي الذي كان حاكماً على اليمن قبل الإسلام واستعمله الرسول عليه بعد إسلامه قد قسم اليمن في سنة ١٥ هـ إلى مقاطعات جعل على كل مقاطعة أميراً، فاستعمل عمرو بن حزم على نجران وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيدة، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعان ابن باذان، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي

هالة، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجندي علي بن أبي أمية وكان معاذ معلمًا يتقل في عمالة كل عامل باليمين وحضرموت، ولما ظهر الأسود دعوته وأجابته بنو مذحج، وثبت على نجران وأخرج عاليها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم فلحقا بالمدينة ثم سار الأسود في سبعمائة من جماعته إلى صنعاء فقتل صاحبها شهر بن باذان وتزوج بأمراته وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمين حتى كتبوا بذلك إلى الرسول فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود فأتمروا به حتى قتلوا غيلة في الليلة التي مات الرسول ﷺ في صبيحتها، وبعد مقتل الأسود انقسم الناس في اليمين إلى قسمين قسم ظل على ردينه وقسم رجع إلى الإسلام، وتقابل الفريقيان لكن الغلبة كانت للMuslimين فرجع عمال رسول الله ﷺ إلى بلادهم، وأقام معاذ بن جبل في صنعاء يصلي بالناس، وبعثوا وفدا إلى رسول الله يبنئه بما جرى فلم يصل الوفد إلى المدينة حتى علم بوفاة الرسول ﷺ، ولما بلغت أهل اليمين وفاة الرسول قوي عزم من أبطن الكفر وأعلنوا خروجهم عن الإسلام بزعامة أحد قادة الأسود وهو (قيس بن عبد يغوث)^(١٣).

- حركة طليحة الأسلمي:

ممن ادعى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد، وهو كاهن طموح ذكي، من بني أسد، تتبأ في حياة الرسول ﷺ وتبعه بعض العرب واليهود، وشائعه قومه من بني أسد بن خزيمة ودعوا إليه أحلافهم من طيء والغوث، واتخذ فلطة

(سميراء) من بلاد بني أسد مقرأ لحركته، وبلغ أمره النبي ﷺ فبعث إليه ضرار بن الأزور الأسدي لمقاتلته والقضاء على فتنته، فسار إليه ولم يكدر يصل إلى سميراء حتى بلغه خبر وفاة النبي الكريم فرجع واستطار أمر طليحة وانضم إليه جموع من قبائل غطفان وهوازن وغيرهما، وعظم شأنه وقدمت إلى أبي بكر وفود بني أسد وغطفان وهوازن وطيء العاشر من متوفى رسول الله ﷺ فعرضوا الصلاة على أن يعفوا من الزكاة، وما كان من أبي بكر إلا أنه أنى إلا ما كان رسول الله يأخذ، وأبو افردهم وأجلهم يوماً وليلة فتطايروا إلى عشائرهم^(١٤).

حركة مسلمة العنفي:

من أكثر المتبئن خطراً مسلمة بن حبيب (الكذاب) من بني حنيفة باليمامة، وكان مسلمة فيمن وفد من زعماء بني حنيفة على النبي ﷺ وأسلم في السنة العاشرة للهجرة، ولما عاد إلى اليمامة تباً وزعم أنه شريك للرسول في النبوة، وكتب إلى النبي كتاباً يقول له فيه بأنه قد أوحى إليه، وأن جبريل نزل عليه يخبره بأن الله قد قاسمه النبوة مع محمد وشاطره الملك والسيادة في جزيرة العرب، فكتب إليه الرسول ﷺ كتاباً نصه: "من محمد رسول الله إلى مسلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.." . وقد استطاع مسلمة أن يخدع الرجال بنعفوة وهو أحد وجوه بني حنيفة من المسلمين وكان ممن أسلم وتفقه وكان يقرئهم القرآن ويعلّمهم أهداف الإسلام ويشد أمر المسلمين، ولكن ما كان من

الرجال إلا أن أعلن أن مهداً أشرك في الرسالة مع مسلمة، فكان بهذه الشهادة أعظم فتنة على الإسلام من مسلمة، ولم يلبث الرسول أن توفي فعظم أمر مسلمة وانضمت إليه جموع كثيرة من بنى حنيفة والقبائل المجاورة لها^(١٥).

وهناك، بطبيعة الحال، مرتدون آخرون اكتفوا بترك الإسلام ولم يتتبوا، ومن هؤلاء بنى ربيعة بالبحرين وكذلك من الذين ارتدوا عن الإسلام مالك بن نويرة التميمي ووكيع بن مالك اللاذاني منعاً إرسال زكاة قومهما إلى أبي بكر، كما ارتد عن الإسلام أهل عمان وهو زن وسلام وعامر.

أسباب الردة ودواتها:

تذكر المصادر أن العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول، ويفهم عامة الناس من ذلك أن العرب رجعوا عن الإسلام إلى الوثنية فإذا نحن تتبعنا تلك المصادررأينا أن تلك الردة كانت في الدرجة الأولى ثورة على مركزية السلطة ومركزية النظام الاقتصادي الذي لم يألغوه سابقاً، وكانت هناك جملة من العوامل المباشرة وأخرى غير المباشرة وراء ذلك التمرد والخروج على سلطة الدولة.

من الأسباب المباشرة لحركة الارتداد، وفاة النبي ﷺ فقد كان من الطبيعي أن يربط المسلمون بين شخص النبي محمد ﷺ وبين ما حققه للعرب من مكاسب دينية وسياسية واجتماعية، يضاف إلى ذلك قوة شخصية الرسول ﷺ والتي قامت عليه أهم عوامل إعجاب المسلمين به، فلما توفي أحدثت وفاته

اضطرباً عنيفاً لا حدود له في نفوس المسلمين وأحسوا بفراغ هائل وشكوا
قدرة خليفته على ملء ذلك الفراغ.

من جانب آخر كان الجزء الأكبر من قبائل جزيرة العرب يخضع
خضوعاً اسماً فقط لسلطة المدينة، مظهره إرساله الوفود إلى المدينة، وإيتاء
الزكاة التي كانت تؤخذ من غالبية البلاد، لأن الجزيرة لم تكن تعرف العملة إلا
في أيدي تجار قريش المتعاملين مع بيزنطة وفارس، وأيضاً إعطاء الخمس من
المغانم التي يحصلون عليها في غاراتهم، ومعادة المشركين، وقبولهم العمال أو
القراء لجباية الصدقات وتعليم الدين، يضاف إلى ذلك أن الجزء الأكبر من
العرب في الجزيرة فيما عدا عرب المدينة ومكة وبعض القبائل المجاورة لا
يعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن، ولم يكن في كل الحجاز من متخصص
لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار، وأهل مكة من المهاجرين، ففي
الواقع لم يحفل العرب بالإسلام كما لم يحفلوا من قبل بأي من الأديان السماوية
الأخرى، ولم يحاولوا فهم قوانينه، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء،
حيث نعرف قسوة الحياة في الbadia وقلة الماء، وإهمال العرب للإسلام ظهر في
حياة النبي نفسه، فهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة^(١٦) وكلاهما من تعاليم
الإسلام وأركانه، ولقد احتاج المرتدون بأن خضوعهم الأول كان لرسول الله
طوعاً أو كرهاً، أما وقد توفي رسول الله فليس لأحد غيره أن يقتضيهم تلك
الطاعة وإن ما كان يربطهم بالدولة الإسلامية قد انتهى بوفاته، وقد لخص أحدهم
هذا الموقف في بيتين من الشعر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ف يا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكرأ إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر^(١٧)

وكان للعصبيات القبلية دور كبير في ظهور حركات الردة، إذ لم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت الإسلام وأعلنت خضوعها لدولة الرسول ﷺ في المدينة منذ العام التاسع للهجرة (عام الوفود) أن تتسى في أمر قصير لا يزيد على ثلاثة سنوات عصبياتها القبلية التي بذل الرسول الكريم جهوداً كبيرة على إدانتها أو تخفيف حدتها في إطار الجماعة الإسلامية ولم تكن هذه القبائل لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها، واستمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول كنوع من الوراثة التي لم يألفها العرب قط.

ومن الشواهد التي أورتها المصادر وتؤكد بأن الردة كانت حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية ما رواه الطبرى، إذا ذكر أن عيينة بن حصن قام في غطفان وتحالف مع بني أسد واتبع طليحة من ثبوت كذبه، مبرراً موقفه بقوله " والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة"^(١٨).

كما ذكر الطبرى أيضاً بأن طلحة التمري جاء إلى الإمامة وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار ثبوته، فلما جاءه قال له "أنت مسيلمة؟" قال "نعم" قال: من يأتيك؟ قال "رحمن" قال أفي نور أم في ظلمة؟ فقال: "في ظلمة" فقال "أشهد أنك كذاب. وإن محمداً صادق، ولكن كذاب ربعة أحب إلينا من صادق مضر"^{١٩}

قمع حركة الردة:

أخذ أبو بكر على عاته أن يحارب أهل الردة، ولم يكن على الاستعداد للتساهل معهم في أي أمر من أمور الدين أو الدولة، فقد كان في رأيه أنه لا يجوز أن يهادنوا أو يصالحوا، وإلا أنقض بناء الإسلام ركناً ركناً. وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية بأن أرسل رسلاً بكتب مفتوحة إلى المرتدين، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده والبيعة له، وإلا فالحرب ولكي يظهر أبو بكر تصميمه على ذلك خرج إلى "ذى القصبة" (موقع قرب المدينة) ليوجه منها الجيوش إلى أهل الردة وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً فاستخلفه أبو بكر على المدينة حتى يستريح هو وجنته زحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل في "الابرق" (٢٠) فقاتل من به من المرتدين، وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان وانسحب ذبيان وبني عبس إلى طليحة الأستدي في "عين بزاخة" وهي عين ماء لبني أسد تقع بالقرب من مكة (٢١) أما أبو بكر فقد عاد إلى المدينة، وكان أسامة قد استراح هو وجنته وتأهب لخوض المعركة ضد المرتدين، فوزع أبو بكر البعث وعقد الألوية لأحد عشر قائداً بعد أن منحهم عهود قتال المرتدين وهم.

١. خالد بن الوليد: وسيره لمحاربة طليحة الأستدي في عين بزاخة، ثم مالك بن نويره بالبطاح.

٢. عكرمة بن أبي جهل: أمره بالسير نحو مسيلة في اليمامة ثم التوجه إلى "دبا" بعد الفراغ من اليمامة.
٣. المهاجر بن أبي أمية: أمره بمحاربة بقایا جنود الأسود العنسي في اليمن وإذا انتهى من مهمته يمضي إلى كنده بحضرموت ليجتمع مع زياد بن لبيد ليكونا يداً واحدة على المرتدين.
٤. خالد بن سعيد بن العاص: سيره إلى مشارف الشام.
٥. عمرو بن العاص: أرسله إلى قضاعة والحارث في شمال الحجاز.
٦. حذيفة بن محسن الغفاراني: وعهد إليه بمقاتلة أهل دبا، ثم الانضمام إلى عرفجة بن هرتمة.
٧. عرفجة بن هرتمة: وعهد إليه بمقاتلة أهل مهرة.
٨. شرحبيل بن حسنة: أمره بالسير في أثر عكرمة بن أبي جهل لمقاتلة مسيلة، ثم أمره أن يمضي بعد اليمامة إلى قضاعة مددًا لعمرو بن العاص.
٩. طريفة بن حاجز: عهد إليه بمحاربة بني سليم ومن معهم من هوازن.
١٠. سويد بن مقرن: وقد وجده إلى تهامة اليمن.
١١. العلاء بن الحضرمي: وكانت وجهته البحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة ^(٢٢).

خرج خالد بن الوليد من ذي القصبة نحو عين بزاحة، ليقضي على بقايا غطfan وعبس وذبيان ومن انضم إليهم من أسد وفزاره، ففرق جمعهم، وهرب طليحة عند قبيلة كلب في الشام^(٢٣) وعرف هذا اليوم بـ"يوم بزاحة" وقد أسر طليحة فيما بعد، وأرسل إلى المدينة وقبلت توبته، وعاد إلى إسلامه، وذكر البلاذری أن طليحة أبلی في فتوح العراق ونهاوند بلاء حسنا^(٢٤).

بعد ذلك سار خالد إلى بني عامر المجاورة، وهي تشمل البلاد الممتدة من شرق المدينة حتى الخليج العربي، وكانت تسكنها قبائل بني تميم وعشائرها من بني حنظلة، وكان معظم هؤلاء من البدو وكان النبي ﷺ قد بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام، وجعل زعيماً لهم مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة ولكن بعد موت النبي نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام، كان قد حجز الصدقة فقط، حتى يصح عنده لمن الأمر، ومن استخلفه النبي ومن ناحية أخرى كانت هناك امرأة ذات شخصية غير واضحة اسمها "سجاح" نشأت في قبيلة تغلب النصرانية الموجودة في شمال العراق في منطقة الجزيرة الفراتية، وقد أقبلت عند قومها من بني تميم، الذين التقوا حولها ومع أنها لم تدع النبوة إلا أنها تكهنـت على حسب ما كان معروفاً قبل الإسلام ولا يعرف قصد سجاح منذ مجئها إلى بلاد بني عامر وجمع القبائل حولها فلعلها كانت تريد أن تدافع عن قومها بالتعاون مع مالك بنى نويرة ضد سلطان دولة المدينة وقد انقطعت أخبار سجاح فجأة، فلم يسمع عنها شيئاً، فلعلها عادت إلى بني تغلب في الجزيرة أو إنها أسلمـت ثم انتقلـت إلى البصرة وعاشت حتى زمن معاوية^(٢٥). ومهما يكن فإن

خالداً سار نحو بلاد بنى عامر ليقاتل المرتدين فهزم العشائر التي قاومته وبعث الرعب فيهم، بعد أن طلب منهم أن يسلموا إليه المسؤولين عن قتل المسلمين منهم فأتوه بهم، فاستثنى منهم قرة بن هبيرة القشيري ونظرأ معه أوتفهم وسيرهم إلى أبي بكر، ومثل بالذين عدوا على المسلمين فاحرقهم بالنيران وأنقلهم بالحجارة ثم رمى بهم من الجبال ثم بلغ خالداً أن فلول غطfan وطيء وسلم وهو اذن قد اجتمعوا فزحف إليهم واشتبك معهم وهزمهم^(٢٦).

ثم سار خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة فلما قدم البطاح لم يجد بها أحداً، إذ كان مالك قد فرق بنى يربوع اتباعه، فبعث خالد السرايا، فجاءته الخيل بمالك بن نويره في نفر من بنى ثعلبة بن يربوع، فأمر بحبسهم في ليلة باردة، ثم أمر رجاله أن يدفنوا الأسرى، والإذفاء في لغة كانة القتل، فظن جنده، أنه أراد قتل الأسرى فقتلوهم، فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك وتزوج امرأته الجميلة^(٢٧). وكان قتل مالك من العوامل التي أثارت عمر بن الخطاب ﷺ على خالد بن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته وعلى الرغم من أن أبا بكر صفح عن خالد فإن عمر بن الخطاب لم ينس له ما فعله في هذا الموقف^(٢٨).

ثم سار خالد إلى أرض اليمامة، وهي بلاد واسعة تمتد حتى الخليج العربي، سكنها قبائل عديدة من ربيعة، أقواها بنو حنيفة، المعروفة بكثرة عددها، وشدة بأسها وكثرة وقائعها. وقد ظهر فيها - كما أشرنا سابقاً - رجل أدعى النبوة في حياة النبي ﷺ يسميه المسلمون "مسيلمة" ربما تصغيراً أو استهزاء.

وكان مسلمة ذا شخصية قوية يسيطر على اتباعه، مع أنه كان قصيراً شديداً
الصفرة أفطس الأنف يلبس ملابس البدو المهمولة وقد جمع جيشاً كبيراً عدده
أربعون ألفاً وتمكن به، قبل وصول خالد بن الوليد من هزيمة جيش صغير
لل المسلمين مرسل من المدينة بقيادة "عكرمة بن أبي جهل" أحد قواد الراذرين
وقد حفز هذا النصر مسلمة إلى التقدم نحو الشمال لِيُقابل الجيش الذي يقوده خالد
بن الوليد فتقابل جيش مسلمة مع جيش خالد بمكان من الصحراء في طريق من
السيامة يسمى "عقرباء" واشتبكا في معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً
من قبل، واشتد القتال بين الفريقين، وتبادل النصر والهزيمة، وتعرض
المسلمون للهزيمة أكثر من مرة، وكثير القتلى من الطرفين، وانتهت المعركة
بهزيمة بني حنيفة، وطاردهم المسلمون حتى أجواهم إلى الحديقة، فسميت يومئذ
حديقة الموت لكثرة من قتل بها، وفيها قتل مسلمة، أما بقية أنصاره الذين هربوا
والستجأوا إلى الحصون فإنهم أنقذوا حياتهم بالتسليم وبذلك كسرت شوكة بني
حنيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمناً غالياً وبلغ عدد القتلى من بني حنفة
بعقرباء سبعة آلاف وبحديقة الموت سبعة آلاف أخرى وفي طلب الفلول سبعة
آلاف ثلاثة تقريباً في حين لم يقتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة
أو أكثر وذكر بعضهم أن عدد من استشهد من المسلمين ١٧٠٠ وقيل ٧٠٠ وقيل

١٢٠٠ (٢٩).

بعد ذلك اتجه خالد إلى البحرين على الخليج العربي ليخلص عامل
المدينة العلاء بن عماد الحضرمي، الذي حاصرته القبائل المرتدة في مدينة

"هجر" قصبة البحرين وإحدى أسواق العرب المشهورة وكان في البحرين عناصر من الفرس واليهود والنصارى يسكنون الأقسام الساحلية أما غالبية السكان فمعظمهم من بدو العرب من قبائل عبد القيس من ربيعة وبكر وتميم داخل البلاد وقد دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وأرسل إليهم عماله ومعهم العلاء لجمع الصدقات ونشر الدين ويبدو من الكتب المتباعدة بين النبي وزعماء العرب من سكان البحرين انهم قبلوا الإسلام كما أخذ الصدقة من مجوس هجر، بل وأرسلوا وفداً منهم إلى المدينة ^(٢٠) ولكن ارتدت العرب بعد موت النبي ﷺ، وإن بقي بعضهم مسلماً وقد تزعم طائفة من المرتدين المنذرين النعمان (من سلالة ملوك الحيرة) أما غالبيتهم فإنهم ارتدوا برئاسة رجل رجل أسمه "الحطم" فسار المسلمون إليهم بقيادة العلاء عامل النبي فهزمه الحطم وألجاه إلى حصن مدينة هجر، إلى أن جاء خالد من اليمامة فقتل "الحطم" ودخل هجر وأنقذ العلاء ثم غادر هجر بعد ذلك إلى العراق بناء على أوامر الخليفة أبي بكر رض لتبدأ بخطوته تلك أولى مراحل حركة الفتح العربي الإسلامي.

ويعد خالد بن الوليد، أهم قواد المسلمين أبطال حروب الردة، وخالد شخصية معروفة ببطشها والتي ظهرت أول ما ظهرت في غزوة أحد التي انكسر فيها المسلمون ثم دخل الإسلام وعرف بشجاعته ومكانته في فتح مكة، موقعة مותו، التي انقطع فيها في يده تسعه أسياف، حتى لقبه النبي ﷺ "سيف الله" ويوصف خالد بأنه كان رجلاً مهيناً ضخماً، بعيد المناكب واسع الهيكل، يعد من القواد الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل وقد قال أبو بكر لخالد قبل أن

يغادر ذي القصبة لمحاربة المرتدين "احرص على الموت توهب لك الحياة" فكان دوره في تلك الحرب أهم الأدوار جميماً، إذ قضى على حركة مسلمة أكثر المرتدين خطراً على دولة المدينة، وغرس الهلع والذعر في قلوب المرتدين في أكثر مناطق الجزيرة العربية إلى حد أن الكثيرين منهم استسلموا للMuslimين دون قتال، ومنهم بنو عامر بن صعصعة^(٣١).

بقي العلاء بن الحضرمي في البحرين بعد مغادرة خالد وهاجم المنذر الذي هرب بعد هزيمة الحطم إلى الحصن المسمى "جواثاء" فهزم العلاء المنذر وعرف ذلك اليوم بـ" يوم جواثاء".

أما عمان، وهي تقع شرقى البحرين، فإن أبا بكر وجه إليها عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته على يد مسلمة وكانت عمان بلاد كثيرة تسكنها على الخصوص قبيلة الأزد، والتي هاجرت إليها من اليمن وكان النبي قد بعث بكتبه إلى شيوخها من أسرة "الجلندي" ملوك عمان قبل الإسلام - كما أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة، وأرسل إليهم أحد رجاله ليأخذ صدقة أعيانهم ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الإسلام بعد موت النبي والتفت حول زعيمها المسمى "ذى التاج" فقتل عكرمة هذا الزعيم، وعدد كبيراً من المرتدين ودخل "دبى" قصبة عمان.

انتقل عكرمة بعد ذلك إلى مناطق الشحر وحضرموت واليمن الواقعة على بحر العرب، ليقضي على من ارتدوا هناك حتى ظفر بهم في منطقة الشحر ثم توجه بعد ذلك إلى حضرموت وكان على رأس المرتدين فيها من قبائل كنده شخص اسمه الاشعث بن قيس، كان قد جاء مع وفد بلاده إلى النبي. وقد ساعد

عكرمة أحد عمال حضرموت من قبل النبي، وهو زياد بن لبيد البياضي، في القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم، فحاصرهم عكرمة و زياد بن لبيد حتى تمكن المسلمين من اقتحام الحصن، وأسر الأشعث بن قيس، الذي أرسل إلى أبي بكر وقبلت توبته وتزوج فيما بعد بأخت الخليفة "أم فروة" ^(٣٢).

أما اليمن التي كانت خاضعة أسمياً فقط لنفوذ الفرس منذ أن طرد منها الأحباش قبل الإسلام، فقد تركها الفرس و شأنها بسبب انشغالهم بحروبهم مع بيزنطة وبمشاكلهم الداخلية، وكان يسكنها من القبائل العربية طيء وخولان وكندة و مراد و حمير و مذحج و همدان، وهي القبائل التي حلّت مكان الشعوب المعينية والسبئية والحميرية، كما كانت تسكنها طائفة من الأبناء، ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسي الذي دخل اليمن بناء على طلب سيف بن ذي يزن لمساعدة أهل اليمن في طرد الأحباش.

وبظهور الإسلام أرسلت القبائل العربية وفودها العديدة إلى النبي، وقبلت الإسلام، ورضيت بدفع الزكاة، كمعظم قبائل شبه جزيرة العرب كذلك أسلمت في ذلك الوقت طائفة من "الأبناء" وعلى رأسهم "باذان" الذي استعمله النبي على صنعاء بعد إسلامه واستمر على ذلك إلى أن مات - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - وخلفه ابنه "رشهر" في هذا المنصب. وعندما ظهر الأسود العنسي وادعى النبوة في حياة النبي استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمن، ودخل صنعاء وقتل شهر بن باذان وأكره زوجته "أزاد" على الزواج منه وقد استطاع النبي ﷺ في حياته أن يقضي على ردة الأسود العنسي بتآليب القبائل

التي لم تكن ارتدت من حمير وهمدان أو باستمالة أهل بخران النصارى، الذين كانوا حلفاء النبي، وأيضاً طبقة الأبناء المسلمين وقد نجح هؤلاء في تدبير خطة لاغتيال الأسود العنسي في صنعاء ساعدتهم على تنفيذها امرأة شهر "أزاد" التي كانت تحقد على الأسود قاتل زوجها، ونجحت الخطة، وقتل العنسي قبل وفاة النبي بأيام، وبذلك عادت اليمن إلى طاعة الدولة الإسلامية كما ذكرنا، وبعد وفاة النبي ارتدت بعض القبائل من حمير والتقت حول أحد اتباع الأسود العنسي، وقد تمكّن عكرمة من القضاء على هذا التمرد بعد مجيئه من حضرموت^(٣٣).

وهكذا انتهت بنجاح منقطع النظير كل هذه الحملات التي وجهت ضد المرتدين في أنحاء الجزيرة، واستطاع أمراء وقادة الجيوش الذين سيرهم أبو بكر لقمع حركة الردة أن يقضوا على المرتدين في أمد قصير، ويسترجعوا للمدينة نفوذها على سائر قبائل العرب في الجزيرة، وتحقق بذلك هدف أبي بكر، ودخل العرب في الإسلام طوعاً وكرهاً، واعترف الصحابة بفضل أبي بكر ودوره في قتال أهل الردة. وقد كانت شجاعة أبي بكر ورباطه جائزة وحكمته العامل الرئيس لإنقاذ الموقف وحماية الدولة العربية الإسلامية الفتية من خطر الفزع والانهيار.

وعلى الرغم من أن حدث الردة كان حقيقة خطراً ماحقاً أحاط بالدولة الفتية، وكاد يعصف بوحدة العرب ومنجزاتهم، إلا أن عملية التصدي لها، والنجاح الباهر في القضاء عليها، أفرزت نتائج إيجابية جداً في صالح الدولة الإسلامية منها.

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

١. أصبحت شبه الجزيرة العربية، لأول مرة، موحدة سياسياً ضمن دولة مركزية، يرئسها الخليفة وهو أعلى سلطة فيها.
٢. تم تثبيت دعائم الخلافة كنظام انشقاق عليه، تمرد ضد هيبة الدولة، و يجب قمعه دون رحمة.
٣. كشفت حروب الردة عن كفاءات حربية، وقدرات قيادته مثالية فائقة سيكون لها شأن كبير في مستقبل الدولة الإسلامية، وفي حركة الفتوح.
٤. ساهمت حروب الردة في مختلف أنحاء الجزيرة، في اختلاط العرب من مختلف القبائل بعضهم ببعض وأدى إلى استقرار عدد كبير من المسلمين في المناطق التي قاتلوا فيها.
٥. كان القضاء على حركة الردة بتلك الطريقة الحاسمة، قضاء على أية فكرة للارتداد أو التتبُّؤ مستقبلاً، حيث اختفت الوثنية إلى الأبد وأصبح الإسلام هو الدين الرسمي لعموم شبه جزيرة العرب.

المبحث الثالث

انطلاق حركة الفتوح الإسلامية

دوافعها وأسبابها:

أختلف الباحثون في تعليل حركة الفتوحات الإسلامية التي انطلقت في أعقاب قمع حركة الردة - في خلافة أبي بكر الصديق رض، وقد ذهب هؤلاء الباحثون مذاهب شتى في تفسير وتحليل دوافعها وأسبابها، فبعضهم يرجع حركة الفتوح إلى أسباب اقتصادية بحتة، بينما يرى جمهور آخر منهم أنها تمت بدافع الحماس الديني - أو الجهاد - وقال فريق ثالث أن دوافعها قومية عرقية هدفها إخلال السيطرة العربية على تلك المناطق محل السيطرة الفارسية والرومية وسوف نعرض لمبررات كل فريق من هؤلاء قبل أن نخرج برأي يمكن أن يتفق مع الظروف والشواهد التاريخية آنذاك.

استند أصحاب نظرية العامل الاقتصادي ^(٣٤) إلى بعض الشواهد التاريخية القديمة وكذلك إلى بعض النصوص في المصادر العربية، فقد عد هؤلاء انسياح العرب "المسلح" بعد الإسلام امتداداً للهجرات العربية القديمة التي أدت إلى استقرار الأكديين في العراق في الآلف الثالث قبل الميلاد والأمويين، في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والفينيقيين في سواحل بلاد الشام

بحدود سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد، وغير ذلك من الموجات التي كانت بمثابة هجرات اقتصادية إلى المناطق الغنية الخصبة الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز، نتيجة لتدحر الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية.

أما الشق الثاني من الحجج التي ساقها أصحاب هذا الرأي فقد استند كما أشرنا إلى بعض النصوص التي وردت في مصادرنا العربية القديمة فيذكرون نص أورده البلاذري وذكر فيه بأن أبي بكر عندما بدأ بتبعية الجيوش الإسلامية وتسييرها إلى بلاد الشام. "كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتبس وطامع وأتوا المدينة من كل أوب^(٣٥).

كما استندوا على نص آخر ورد عند البلاذري أيضاً، وهو عبارة عن جملة ضمن حوار بين القائد الفارسي رستم والمغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص إليه، قال رستم للمغيرة قد علمت أنه لم يحملكم على ما انتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهاد ونحن نعطيكم ما تتسبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون^(٣٦) وكذلك على نص أورده الطبرى، هو خطبة منسوبة لخاله أبن الوليد ألقاها في جنده يرغبهم في مهاجمة بلاد العجم، فقال خالد مخاطباً جنده "ألا ترون إلى الطعام كرفح التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى تكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاهم من اتافق عما أنتم عليه^(٣٧).

أما أصحاب التفسير الديني لحركة الفتوحات فقد استنادوا أيضاً إلى جملة من المعطيات والنصوص بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر خطب القادة وتوجيهاتهم، وقالوا أن جيوش المسلمين خرجت من جزيرة العرب يحدوها تيار ديني إسلامي عربي جارف فقد كانت أولى وصايا الخليفة الأولى إلى المسلمين يوم بايعوه هي الجهاد في سبيل الله حيث قال لهم يومئذ " لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ويستند أصحاب هذا الرأي أيضاً على آيات قرآنية (٣٨) كثيرة تؤكد أن الله بعث النبي ﷺ إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ومن تلك الآيات: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً» (٣٩) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَمْلَمُونَ» (٤٠) «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً» (٤١) .

وقد اخذ فريق ثالث بترحيب فكرة الدوافع القومية كمحرك أساسي للفتوحات الإسلامية، مستتدلين بذلك إلى سياسة الرسول ﷺ الرامية إلى نشر الإسلام في مجالات بعيدة، ومساعيه لتوحيد شبه جزيرة العرب في ظل الدولة العربية الإسلامية، ثم رسائله إلى الملوك والأمراء من جيران العرب يدعوهم إلى الإسلام والاعتراف به، فضلاً عن الخطوات العملية في هذا الاتجاه والتي تمثلت في غزوات: مؤته وتبوك وحمله أسامة بن زيد بن حارثة، وعندما لم يتهدأ للنبي أن يشهد خروج هذه الحملة إلى غايتها، بسبب وفاته ﷺ قبل انتلاقتها، أبو بكر الصديق إلا أن يحقق رغبة رسول الله في إنقاذ هذه الحملة إلى مقصدتها ثم

جاءت محاولات أبي بكر المتلاحقة لانتهاج السياسية ذاتها سواء باتجاه الشام او العراق.

وبعد عرضنا لمجمل هذه الآراء والتصورات عن دوافع حركة الفتوحات يمكننا القول أن القوة العربية التي أوجدها ووتجدها تصميم أبي بكر والتي سرعان ما انتشرت على الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين والفرس، وهم أكبر دولتين في العالم آنذاك، وتحرير الأراضي العربية من سيطرتهما في أول حركة مسلحة عرفت في التاريخ باسم "حركة الفتوح العربية الإسلامية" لم يكن دافعها الاستيلاء على الأراضي الخصبة في الشام والعراق ومصر كما حاول البعض أن يفسدتها وإن كان تحرير هذه الأراضي من الاستعمارين الفارسي والروماني هدفاً من أهدافها، ولم يكن دافعها الجوع، وإن كان تحرير الإنسان العربي من الحاجة المادية غرضاً من أغراضها ولم يكن دافعها التعصب العرقي الذي يريد أن يحل السيطرة العربية على تلك المناطق محل السيطرة الفارسية والرومانية، وإن كان بإعاد النفوذين الفارسي والروماني سبباً من أسبابها، لأن الفرس والروم كانوا من التفسخ والاهتراء بحيث انهم باتوا يعيقون التقدم التاريخي في عصر الإسلام الأول ويقفون في وجه تلاقي الشعوب الآسيوية حضارياً وثقافياً واقتصادياً بما يفعلون دوماً من حروب متلفة للاقتصاد العالمي، ومعيقه للتواصل الحضاري، وأنهم كانوا قد وصلوا إلى حالة من الإساءة الدولية بحيث غدت نفقات جيوشهم عبئاً على اقتصاد العالم آنذاك.

وإذ بحثنا في مضمون النصوص التي يعتمد عليها أصحاب الرأي القائل بأن دوافع حركة الفتح العربي كانت اقتصادية بالدرجة الأساس وجدنا أنها في أغلب الأحوال كانت عبارات حماسية وردت في سياق خطب القادة، وهذه الخطب فيها الكثير من المعاني والمضامين الأخرى، بهدف تهيئة الجنود وحثهم على القتال والصمود وما ينتظرون من ثواب في الدنيا والآخرة (ومن جانب آخر ليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربي سببها الجفاف أو الجوع، أو ما يشير إلى قحط أو مجاعة ألمت بالعرب آنذاك، والمدقق في نص توجهات أبي بكر لجبوشه يدرك تلك الحقيقة "لا تخونوا، ولا تغروا، ولا تمثوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيئاً كبيراً، ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تنبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً ودعوا الناسك في صوامع يتبعدون"^(٤٢)) وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن قبل التفسير الاقتصادي لظاهرة الفتح العربي الإسلامي كسبب وحيد أو حاسم.

وكذلك لا نرى أي سبب يدفعنا إلى الاعتقاد بأن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني، وإن الحروب التي قاموا بها تعد حروباً دينية ولا نظن أن العرب المشاركون في تلك الفتوحات ومعظمهم من البدو - كانت تسودهم الروح الدينية، أو الرغبة في القتال من أجل نشر الإسلام، وقد رأينا كيف ارتدت العرب، وإنها لم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف، إذا كانت هناك قناعات إيمانية قوية لدى الخلفاء وكبار الصحابة وأئتياء المسلمين في المدينة ومكة، فإنها من غير الممكن أن تكون موجودة لدى البدوي - وهو الذي لا يهتم بالدين - ومن

ثم تدفعه للقتال من أجل نشر الإسلام فضلاً عن وجود نص صريح في القرآن الكريم يؤكد حرية العقيدة إذ "لا إكراه في الدين" ^(٤٣)، والإسلام دفع بالحرية الإنسانية خطوات مهمة، لم تكن مألوفة آنذاك.

ولا شك أن المسلمين الذين تعرضوا لشتي صفوف الأذى من الكفار في عقيدتهم، لا يمكن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم، هذا بالإضافة إلى أن الكتاب التي كتبها النبي، أو المعاهدات التي أبرمها قادة الفتح مع غير المسلمين فيها تأمين كامل وواضح للحرية الدينية ^(٤٤). أما الجهاد الذي ورد في القرآن الكريم أو على لسان أبي بكر، فهو لم يكن يعني في أي وقت من الأوقات غير الدفاع عن الإسلام ومحاربة المشركين أعداء الرسول الذين عارضوه وأضطهدوا اتباعه وأرغموهم على الهجرة إلى الحبشة مرتين، ودفعوا الرسول ﷺ إلى البحث عن دار هجرة، ويتمثل هذا المعنى في قوله تعالى **﴿أَذْنَ اللَّذِينَ يُتَّلُونَ بِآثَمٍ طَلَّعُوا وَلَئِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** (الحج: ٣٩) **﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَعُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا دُقَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعِصْمَهُمْ بِعَذْنٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَتَّصَرُّ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** (الحج: ٤٠).

ولم يكن تشريع الجهاد يعني نشر الإسلام في جميع أنحاء العالم عن طريق الحرب، فقد ظهر الإسلام في زمان اشتدت فيه الاضطهادات الدينية في كنف الدولتين الفارسية والبيزنطية وفي البلدان المحلية من قبلهما، فأتاح الإسلام بمبادئه الكريمة الحرية والتسامح في البلاد التي كانت خاضعة للدولتين ولذلك حرص العرب الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم، ولم يرغموا

أحدا على اعتقاد الإسلام ما داموا يدفعون الجزية^(٤٦). ثم أن الإسلام دعا إلى حرية العقيدة فلم يكره أحدا من أهل الكتاب على اعتقاده وهي السياسية التي رسمها الإسلام، ونص عليها القرآن الكريم^(٤٧). لذلك كان المسلمون، إذا أقبلوا على أعدائهم من الروم أو الفرس يعرضون عليهم أحد خصال ثلاث: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب. لذلك يمكن القول أن الجهاد والرغبة في نشر الإسلام عن طريق الحرب، لم يكن الدافع الرئيسي على الفتح - خاصة في المراحل الأولى منه وإنما يمكن اعتباره من العوامل المساعدة والمهمة، إذ لا يخفى ما للدين من قوة دافعة ومحركة للشعوب في تحقيق المعجزات والإنجازات الكبيرة.

وأخيراً نعتقد أن الدافع إلى هذه الفتوح يرجع بشكل خاص إلى ارتفاع معنويات العرب بالدين الجديد، وإن ظهور الإسلام بين العرب كان من شأنه أن أوجد بينهم رابطة قوية هي رابطة الدين التي تسمى على الرابطة القبلية، وكان القرآن الكريم من جانبه يثير فيهم الإحساس بالكرامة والعزة، وبقوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس"^(٤٨) وعلى الرغم من أن ملامح الثقة بالنفس لدى العرب بدأت تظهر حتى قبيل الإسلام من خلال حدثين مهمين على الأقل هما خروج جيش الحبشة بقيادة أبرهة مهزوماً من مكة، وتحدي عرب العراق مملكة فارس وانتصارهم لهم عليهم في معركة ذي قار إلا أن الأهم هو صاحب الفضل الأول في بعث الروح القومية عند العرب، وهو الذي نبههم إلى وحدتهم في الجنس واللغة، ولكن العرب الذين قويت معنوياتهم بالإسلام وتوحدوا سياسياً ونفسياً بعد حروب الردة، مازال بعضهم تحت سيطرة ونفوذ الدولة البيزنطية في

بلاد الشام، والبعض الآخر تحت سيطرة الفرس في العراق، أو على سواحل الخليج العربي، وكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة أبي بكر الصديق رض لكي يوحد شمال هؤلاء العرب ويدعو من لم يسلم منهم إلى الإسلام، ويضمهم إلى كيان الدولة، كما فعل بالنسبة لعرب الجزيرة العربية، فكانت حركة الفتوح، فيما وأن النبي ص قد وضع بنور هذه السياسية من خلال الحملات والغزوات التي أمر بها أو قادها بنفسه على التخوم بين الحجاز والشام.

لقد كانت حركة الفتوح الإسلامية في انطلاقتها الأولى مغامرة حربية خرجت إلى حيز الوجود دون تخطيط مسبق أو تصور متكامل لمشروع فتح، وإنما جاءت نتيجة لظروف وتطورت خاصة تحكمت في الأحداث، ثم ساعدت عليها عوامل أخرى تأتي في مقدمتها الظروف الدولية آنذاك.

فالظاهر أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين في الشمال من جزيرة العرب، والفرس في الشرق كانوا قادرين في أيام قوتهم على أن يحجزا العرب في بلادهم ويحجم دورهم ولكن الدولتين الكبيرتين اخذ يعتريهما الضعف والوهن ابتداءً من القرن السادس الميلادي بسبب الحروب الطاحنة والخصومة الشديدة بينهما والتي أدت إلى استنزاف طاقتهما وإشاعة الفوضى والاضطراب في مؤسساتهما الإدارية والعسكرية والمالية، فضلاً عن الحروب الأهلية والانقسامات المذهبية، والركود الاقتصادي بسبب كساد التجارة، وخاصة تجارة الشرق التي كانت العمود الفقرى لاقتصاد العصور الوسطى والتي كان الخليج العربي منفذها الرئيسي إلى أوروبا وعالم البحر المتوسط وقد تزامنت هذه الظروف العصبية

بالنسبة للدولتين المذكورتين مع حالة النهوض العربي التي أشرنا إليها ثم كشفت الغارات العربية الأولى على مواضع هاتين الدولتين عن ضعف كبير فيهما، فتتباينت انتصارات العرب وتمكنوا في أقل من عشر سنوات من إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، نجحت بكل اقتدار في القضاء وإلى الأبد على إحدى الدولتين الكبيرتين، وتحجيم الثانية بعد طردتها من جميع الأراضي العربية التي كانت تحت سيادتها.

تحرير العراق:

أوضاع العراق قبل التحرير:

كان العراق قطراً معروفاً بغنّى أرضه ووفرة مائه، وكان موطنًا لحضارات راقية تعاقبت على ربوعه منذ فجر التاريخ حتى زوال آخر حضارة عراقية ناضجة سنة ٥٣٩ق.م على أيدي الأخميين الفرس، فقد تعاقبت على احتلال العراق ثلث دول فارسية، لما زاد على ألف سنة الدولة الأخمينية ٥٣٩ - ٣٣٢ق.م، والبرθية ١٤٧ق.م، والساسانية ٢٢٧ - ٦٣٧م ولقد أقام حكام هذه الدول عاصمة ملوكهم على أرض العراق في المدائن (طيفسون)، والعراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي وموارده البشرية وتاريخه الحضاري، صار مركزاً للإمبراطورية الفارسية خاصة خلال الحكم الساساني وعلى الرغم من محاولات الفرس أن يطبعوا البلاد بطبعهم من خلال التقسيمات الإدارية التي وضعوها، وتقسيم الأراضي وتسويتها بأسماء ملوكهم، إلا أن القطر المحتل،

(العراق) ظل متميزاً عن الوطن الأصلي للمحتلين (بلاد فراس) وظل شعبه متميزاً بفضل جذوره الحضارية العميقة كما أن الفرس لم يقدموا إضافات حضارية مهمة على أرض العراق على الرغم من طول مدة احتلالهم لهذه البلاد فقد ذكر الخطيب البغدادي^(٥٠) في تاريخه، أن الفرس ورثوا نسق بابل للري، كما هو ولم يقوموا سوى بتحسينه، فحفروا قنوات ثانوية، لأن نظام الري والقنوات الرئيسة كانت سابقة لهم.

وعلى الرغم من أن العراق كان طيلة تلك القرون، قطرأً محظياً خاصعاً، مستعلاً ولم يكن قطرأً قومياً بالنسبة للحكام الفرس، إلا أنه كان مرتبطاً بالإمبراطورية الفارسية إلى درجة يمكن القول معها أنه لو ضاع العراق لضاع كل شيء بالنسبة لهم وقد دلت الأحداث فيما بعد على ذلك فعلاً، خلافاً لما وقع في الشام وفي الإمبراطورية البيزنطية^(٥١).

أما بالنسبة لسكان العراق قبل انطلاق حركة الفتوح العربية الإسلامية، فقد ذكرت أن اغلبهم كانوا من العرب القدامى، الذين يطلق عليهم الكتاب العرب أسم (النبيط) أو (النبيطين) وعادة ما يستعمل لفظ النبيط في المصادر للإشارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وهم سكان البطائح أو سكان القرى بشكل عام في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق^(٥٢) ويرى الكثير من الكتاب العرب أن هؤلاء كانوا من العرب القدامى، ولعلنا نجد في العبارة التي قالها (عبد المسيح بن عمرو) من أهل الحيرة - لخالد بن الوليد، حين سأله: أعراب انتم أمنبيط؟

قال "تحن عرب استبطنا، ونبط استعربنا" إشارة واضحة إلى التفاعل والاختلاط بين العرب القدمى والمهاجرين الجدد من جزيرة العرب وهو خير جواب لمن يريد معرفة أصل هؤلاء القوم الذى يشكلون جزءاً من المجتمع العراقي، رئيساً ومهماً، قبل الإسلام.

أما عرب شبه الجزيرة فقد كان لهم وجود قديم في المنطقة، وكانت محاولاتهم للتسلل من موطنهم الأصلى إلى المناطق الخصبة المجاورة مستمرة في كل العصور خاصة إلى بلاد وادي الرافدين وربما أشارت المصادر إلى وجود عربي قديم جداً في العراق يمتد إلى نحو ثمانية قرون قبل ميلاد السيد المسيح فقد روى الطبرى (٤٠): أن ثمة قبائل من أولاد (معد بن عدنان) حين ضاق بهم العيش في تهامة والجaz، نزحوا إلى بابل، فابتلى لهم (نبوخذ نصر) حيراً (معسراً) وحبسهم فيه، ثم تخلى عن هذه الفكرة، فابتزوا الأنبار، شمالي الحيرة، واستقروا ثم انتشروا في السواد حتى بلغوا الأبلة وفيهم (حيان وجعفى وكلب وتميم).

ونجح بعض القبائل العربية القوية في إقامة كيانات سياسية مهمة في العراق، أهمها (إمارة الحيرة) المسماة أيضاً (إمارة اللخمين) نسبة إلى مؤسسها عمرو بن عدي بن مصر بن ربيعة بن لخم" وقد اتخذت قبائل هذه الإمارة مقراً لها في معسكر دائم غربي الفرات عرف باسم (الحيرة)، وهي كلمة مشتقة من اللفظ الآرامي (حرتا) ومعنىه العسكرية (٥٥) وكانت الحيرة موجودة قبل الساسانيين، وأصبحت مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي واستمرت كذلك في القرنين

الخامس وال السادس، وتمكنـت من عقد تحالفات وصلـت مع القبائل العربية في العراق وشـرق شـبه الجزـيرـة العـربـية، وسرـعـان ما عـلا نـجمـها وازـدهـرـت في قـلـبـ الـهـلـلـ الخـصـيـبـ بـسـبـبـ اـمـتدـادـ سـلـطـانـهاـ إـلـىـ مـنـطـقـةـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ، فـكـانـتـ أـرـاضـيـهاـ أـيـامـ اـزـدـهـارـهـاـ تـمـدـ منـ غـرـبـ الـفـراتـ، اـبـتـداءـ مـنـ مـجـراـهـ الـأـوـسـطـ، إـلـىـ مـنـتـصـفـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ، وـكـانـ حـاـكـمـ الـبـحـرـيـنـ يـعـينـ مـنـ قـبـلـ أـمـرـاهـاـ، وـكـذـلـكـ شـيوـخـ القـبـائـلـ الـضـارـبـةـ عـلـىـ طـرـيقـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ^(٥١).

وـكـانـتـ قـبـائـلـ إـيـادـ وـتـغـلـبـ وـالـتـمـرـ تـقـيمـ عـلـىـ أـرـضـ الـجـزـيرـةـ الـفـراتـيـةـ (ـفـيـ الـأـقـسـامـ الـشـمـالـيـةـ فـيـ الـعـرـاقـ)ـ بـصـورـةـ رـئـيـسـةـ، وـهـيـ تـرـتـبـطـ اـرـتـبـاطـاـ وـثـيقـاـ بـمـصـيرـ الـحـيـرـةـ، كـماـ وـجـدـتـ أـقـسـامـ مـنـ هـذـهـ قـبـائـلـ فـيـ قـلـبـ السـوـادـ أـيـضاـ^(٥٢).

وابـتـداءـ مـنـ الـقـرـنـ الثـالـثـ لـلـمـيـلـادـ، بـدـأـنـاـ تـسـمـعـ عـنـ وـجـودـ قـبـائـلـ عـربـيـةـ عـدـيدـةـ فـيـ سـوـادـ الـعـرـاقـ، وـفـيـ إـقـلـيمـ الـجـزـيرـةـ الـفـراتـيـةـ، كـانـ فـيـهـمـ مـنـ تـمـيمـ وـبـكـرـ وـعـبدـ الـقـيسـ وـغـيـرـهـاـ، قـبـائـلـ قـويـةـ، وـقـدـ سـكـنـ بـعـضـهـاـ إـقـلـيمـ الـبـصـرـةـ وـمـنـطـقـةـ الـأـيـلـةـ^(٥٣)ـ وـيـبـدـوـ أـنـ هـذـاـ الـوـجـودـ الـعـرـبـيـ القـويـ لـمـ يـكـنـ مـوـضـعـ اـرـتـيـاحـ مـنـ قـبـلـ الـدـوـلـةـ الـفـارـسـيـةـ، لـذـكـرـ لـمـ تـكـنـ عـلـاقـاتـ هـذـهـ قـبـائـلـ جـيـدةـ بـالـدـوـلـةـ السـاسـانـيـةـ، وـكـانـتـ تـقـومـ بـيـنـ فـتـرـةـ وـأـخـرـىـ بـشـنـ الغـارـاتـ عـلـىـ الـحـامـيـاتـ الـفـارـسـيـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ وـقـدـ لـجـأـ الـفـرـسـ إـلـىـ الـمـصـانـعـ وـالـمـهـادـنـةـ مـعـ هـذـهـ قـبـائـلـ لـنـقـادـيـ الـهـجـمـاتـ الـمـتـتـالـيـةـ عـلـيـهـمـ، وـتـعـاملـواـ مـعـ كـبـرـىـ الـقـبـائـلـ إـلـىـ جـوـارـهـمـ، وـهـيـ قـبـيلـةـ بـكـرـ وـعـيـنـواـ رـئـيـسـهـاـ حـاـكـمـاـ عـلـىـ مـنـطـقـةـ الـأـيـلـةـ^(٥٤)ـ كـمـاـ لـجـأـوـاـ فـيـ مـنـاسـبـاتـ كـثـيرـةـ إـلـىـ سـيـاسـةـ الـقـسوـةـ وـالـبـطـشـ فـيـ ضـرـبـ هـذـهـ قـبـائـلـ الـعـربـيـةـ، وـأـشـهـرـ مـاـ تـذـكـرـهـ الـأـخـبـارـ عـنـ هـذـهـ سـيـاسـةـ مـاـ فـعـلـهـ

سابور ذي الأكتاف مع العرب، فيقال أنه نكل ببعض القبائل العربية وخلع أكتافهم انتقاماً لوالده، الذي يبدو أن العرب قتلواه، ولذلك سمته العرب بذى الأكتاف^(١٠)، كما أن خسرو الثاني قتل ملك الحيرة النعمان، وذلك الحدث الذي أدى إلى موقعة ذي قار التي انتصر فيها العرب على العجم. كما مارس الفرس أسلوب آخر مع تلك القبائل بهدف إضعافها وتفتيت قوتها وهو أسلوب التهجير لهذه القبائل أو لأجزاء منها، مناطق سكناها الأصلية إلى مناطق وبيئات واسعة لتهجير القبائل من منازلها إلى منازل أخرى عقاباً لها وضماناً لعدم قيامها بغارات على الحدود، ومع كل ذلك ظل وجود هذه القبائل كبيراً وقوياً ومؤثراً حتى ظهور الإسلام وتحرير العراق.

مقدمات تحرير العراق:

يرجع فضل المبادرة في تحرير العراق، بدون شك إلى قبيلة "بكر بن وائل" التي سبق الإشارة إلى وجودها المميز في الساحة العراقية - فقد كان أفرادها أول من بدأوا الإغارة على المواقع السياسية في السواد، وكانت هذه القبيلة تسترحل في البوادي الغربية من العراق، وامتدت فروع منها من أقصى طريق الخليج العربي حتى أرض الجزيرة الفراتية، وسكنت حوض دجلة الأعلى فنسبت إليها تلك الجهات، وعرفت بـ(ديار بكر)، وهذه الجهات هي مركز الهلال الخصيب الذي يصل بين الخليج العربي والبحر المتوسط، وهذا يعني

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

حسن اختيار هذه القبيلة وفروعها لاماكن استقرارها على امتداد طرق التجارة وأسواقها^(٦١).

ظهرت داخل هذه القبيلة استعدادات رفض وتحد تجاه الدولة الساسانية ثم سرعان ما مثلت رأس الرمح للعروبة تجاه العجم، كما اتضح ذلك خلال معركة "ذى قار" ثم أثناء مقدمات تحرير العراق، التي انطلقت فعلاً مع قبيلة بكر بقيادة شيخهم "المثنى بن حارثة الشيباني".

لقد مثلت معركة ذى قار منعرجاً خطيراً في تاريخ العلاقات العربية - الساسانية، فقد كانت أول مواجهة بين الفرس والعرب على أرض مكشوفة، وتستند أسباب نشوئها إلى تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية ومملكة الحيرة، التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور في زمن آخر المناذرة "النعمان بن المنذر" [٥٨٥-٦١١م] الذي تحدى ملك الفرس، في وقت بدأت القبائل العربية في العراق تلتقط حول زعامته^(٦٢).

بعد معركة ذى قار أخذت القبائل العربية "بكر" و"شيبان" و"عجل" وغيرها من القبائل الضاربة في بادية العراق تغير على الدولة الساسانية ، بشكل منتظم، على الحاميات الفارسية بشكل خاص.

وبينما كانت رحى حروب الردة تدور في شبه جزيرة العرب، بلغ إلى علم قبائل (بكر) أن مملكة فارس كانت في أزمة خلافة، فخططت للقيام بغارات كبيرة على السواد، لذلك خرج رجال من (بكر بن وائل) هما (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجي)، فنزلوا في حشودهما تخوم الدولة الساسانية،

وراحا يغiran على مسالح الفرس فيغنمان ما استطاعا الوصول إليه وكان (المثنى) يغير من ناحية الحيرة، بينما كان (سويد) يشن غاراته من ناحية (الأبله)، وأراد (المثنى) سيد بنى شيبان، ربط هذه العملية بالإسلام فكتب إلى الخليفة أبي بكر رض (يعلمه ضراوته بفارس، ويعرفه وهمهم، ويسأله أن يمدء بجيشه) فلما انتهى هذا الكتاب إلى الخليفة، كتب إلى (خالد بن الوليد) الذي قد فرغ من أهل الردة، يأمره بالسير إلى الحيرة ومحاربة الفرس، على أن يضم معه المثنى ورفاقه، ويدرك البلاذري ^(١٢) أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يغير على السواد في رجال من قومه وكانت أخبار غاراته على هذا الإقليم ومناهضته للاحتلال الفارسي، وانتصاراته عليهم تصل إلى المدينة، وكان أبو بكر رض يتبع بانتظام أخبار هذا القائد العربي، الذي دفعه شعوره القومي بعروبه إلى هذه المواقف فسأل أصحابه عنه فقال له (عاصم بن سنان المنقري): [هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجھول النسب، ولا ذليل العمامد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني] ولا نستبعد أن يكون الخليفة قد اتصل به وآيده في مواقفه القومية، وعرض عليه الإسلام، بدليل قدومه إلى المدينة، و مقابلته للخليفة، الذي بادر بعد ذلك إلى إرسال أول بعثة حربی إسلامی إلى خارج جزيرة العرب، نصرة (المثنى) ومتمنياً ما بدأ به.

الاشتباكات الأولى قبل الحيرة:

سار خالد بن الوليد والمخزومي من اليمامة باتجاه العراق، بناء على أوامر الخليفة أبي بكر رض، وذلك في المحرم من سنة ١٢ للهجرة في ألفين من المسلمين وضم إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، فأصبح معه عشرة آلاف، وكان أبو بكر قد كتب إلى المثنى يأمره ببذل الطاعة لخالد والانضمام إليه، كما كتب إلى قائد آخر على الفرس يدعى مذعور بن عدي العجلي يأمره بأن ينضم إلى خالد ويكون تحت أمرته أثناء عمليات التحرير للمدن العراقية.

يبدو أن وصول خالد إلى العراق رفع من الروح المعنوية عند القبائل العربية المثارة على الفرس، كما أذكى روح النضال عند عرب العراق ضد الفرس فقد طلب زعيم ثالث من بكر بن وائل وجماعة من قومه كانوا ينزلون في الموضع الذي قامت عليه البصرة فيما بعد، اسمه سويد بن قطبة، الانضمام إلى قوات خالد ومساعدته في التغلب على القوات الفارسية في منطقة الأبلة، وذكروا أنه قال لخالد : " إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك " فأجابه خالد بقوله: " فالرأي أن أخرج من البصرة نهاراً ثم أعود ليلاً، فأخذ عسكرك ب أصحابي ، فإن صبحوك حاربناهم " ففعل خالد ذلك ، وتوجه نحو الحيرة فلما أقبل عليه الليل قفل عائداً إلى البصرة وانضمت قواته إلى قوات سويد، وظن الفرس في الأبلة أن خالد قد انصرف عن البصرة، ووجدوا في ذلك فرصة مواتيه ليهاجموا سويد ويقضوا عليه، ثم إنهم هاجموا معسكر سويد فحمل عليهم

خالد وسويدي بقواتهما المشتركة، فانهزم الفرس، وقتل المسلمون عدداً كبيراً منهم، كما لقي العدد الأعظم منهم حتفه غرقاً في مياه دجلة البصرة [شط العرب] واستغل خالد هذا النصر وهزيمة الفرس فاستولى على الخريبة، وهي مسلحة للفرس، واستخلف عليها شريح بن عامر^(١٤) ويقال أيضاً أتى النهر الذي يعرف بنهر المرأة فصالح أهله، وإنه قاتل جمعاً بالمزار^(١٥)، ثم سار يريد الحيرة وخلف سويد بن قطبة على ناصيته وقال: له "قد عركنا هذه الأعاجم بناصيتك عرفة أذلتكم لك"^(١٦).

تحرير الحيرة:

مضى خالد نحو الحيرة فافتتح كسر ودرني وهرمز جرد بالامان، وسار إلى أليس فتصدى له جابان صاحب أليس، فأبعث إليه خالد المثنى بن حارثة، فقاتلته وهزمها وقتل جل عسكره إلى جانب نهر عرف بنهر الدم، ثم صالح خالد أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاه وأعواناً^(١٧).

وأصل خالد زحفه نحو الحيرة حتى خرجت إليه فرسان أرذابة صاحب صاحب خيل كسرى التي كانت مرابطة في المسالحة الواقعة على الحدود بين الفرس والعرب، فقاتلته المسلمون في موضع يعرف بـ "مجتمع الأنهر" وهزموه، ونزل المسلمون على الحيرة فتحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بقيلة وقصر العدسرين، فخرج إليهم عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن بقيلة من الأزد، وهاني بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة

الطائي، وإياس هذا كان عاملًا لكسري أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر
فصالحوا خالدًا على مائة ألف درهم، وقيل على ثمانين ألفًا في كل عام، على أن
يكونوا عيوناً للMuslimين على الفرس ونزل خالد بقصر الخورنق^(١٨).

وتذكر المصادر أن حواراً طريفاً جرى بين خالد بن الوليد وعبد المسيح
ابن عمرو، عندما استقبل عبد المسيح خالداً وكان كبير السن " فقال له خالد: من
أين أقصي أثرك ياشيخ؟
قال : من ظهر أبي.

قال (خالد) فمن أين خرجم؟

قال: من بطن أمي.

قال (خالد): ويحك في أي شيء أنت؟

قال: في ثيابي.

قال(خالد) على أي شيء أنت؟

قال: على الأرض.

قال (خالد): أتعقل؟

قال: نعم وافق.

قال(خالد): ويحك إنما أكلمك بكلام الناس.

قال: وأنا إنما أجيبك جواب الناس.

قال (خالد): أسلم أنت أم حرب؟

قال: بل سلم.

قال (خالد) فما هذه الحصون؟

قال: بنيناها لسفية حتى يجيء الحليم.

ثم تذكر الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة فكان الذي أخذ منهم أول مال حمل إلى المدينة من العراق^(٦٩) وكان ذلك في سنة ١٢ للهجرة.

أمر خالد بشير بن سعد الأنصاري بالمسير إلى بانقياء، فاشتبك معه فرسان الفرس بقيادة (فر خبنداد) ورشقوا من معه بالسهام، فحمل عليهم وهزمهم، وقتل (فرخبنداد) في المعركة، وأصيب بشير بن سعد إصابة بالغة، لم يلبث أن توفي بسببها وهو بعين التمر فبعث خالد جرير بن عبد الله البجلي ليحارب أهل بانقياء، وعندئذ خرج إليه (بصبهري بن صلوبيا) فاعتذر إليه عن القتال، وعرض عليه الصلح، فصالح جرير على ألف درهم وطيسان^(٧٠)، فوجه خالد بالطيسان إلى أبي بكر مع مال الحيرة والألف درهم التي صالحه عليها ابن صلوبيا، فوهب أبو بكر الطيسان للحسين بن علي^(٧١).

تحرير الأنبار:

توجه خالد بعد الحيرة لفتح الأنبار، وعندما وصلها تحصن أهلها، وقدم إليه بها المثنى بن حارثة، فحاصرها أهلها، واحرقا نواصيها، واضطر أهل الأنبار وقاد حاميتها الفارسية (شيرزاد) إلى مصالحة خالد على ما احب كذلك وجه

خالد بن الوليد المثنى للإغارة على سوق يقال لها سوق بغداد الواقعة عن قرن نصر الصراة، وكان يجتمع بها طوائف من كلب وبكر بن وائل وقضاء، فأغار عليها وأصاب ما فيها.

في هذه الأثناء كتب أبو بكر إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه المسلمين، فلم يتردد خالد في تلبية أمر الخليفة، وخلف في الحيرة عمرو بن حزم الأنباري مع المثنى، فسار إلى الانبار، ثم رحل عنها إلى عين التمر، وهي بلدة في طرف الbadia الغربية الفرات كانت مسلحة لأهل فارس وكان يتولى الدفاع عنها مهران بن بهرام بن جوبين في جمع عظيم من العجم وعقبه بن أبي عقة في حشد كبير من العرب من التمر وتغلب وإياد، فخرج أهل الحصن لمقاتلة المسلمين، ونشب قتال عنيف انتهى بهزيمة أهل الحصن، فانسحبوا إلى حصنهم ولزموه، فحاصرهم خالد حتى طلعوا الأمان، فأبى أن يؤمّنهم واستنزل الحصن عنوة، فقتل المدافعين عنه وسي ذراريهم، من بين من سباهم "يسار جد محمد بن إسحاق" صاحب السيرة، ونصريل والد موسى بن نصيري" فاتح المغرب والأندلس وسيرين أبو محمد بن سيرين واخوته" ثم وجه خالد وهو بعين التمر (النسير بن ديسن بن ثور) إلى ماء النبي تغلب، ففاجأهم بالغارة فقتل منهم جماعة كبيرة وأمر طائفة، ومن هناك أغاث النسيير على حي من ربيعة، ثم تكريت وعكرا وغم غائم كثيرة، وسار خالد من عين التمر إلى الشام بعد أمر المثنى بن حارثة بان يعود إلى مقر قيادة الحيرة. وكان مسيرة إلى الشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هجرية وظل المثنى يواصل هجماته

على القوات الفارسية في سواد العراق حتى توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة
سنة ١٣ هجرية^{٧٣}.

تحرير بلاد الشام:

بعد العراق جاء دور بلاد الشام، أو ما يسميه اليونان بـ "سوريا" SYRIA، وهي بلاد واسعة تمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن الفرات إلى الديار المصرية، فيشمل الأراضي الخصبة قرب الساحل التي تغذيها عدة أنهار أهمها: اليرموك، والأردن، وببردي، والأرثد وقويق، وأيضاً بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف بـ "البلقاء".

أما سكان البلاد فكان أغلبهم عرب توافدوا عليه من داخل الجزيرة العربية في شكل موجات ضخمة منتظمة مثل: العاموريين والكنعانيين أو "الفينيقيين" والآراميين والأنباط، وأخيراً العرب اليمانيين من قبائل الضجاع وغسان وكلب وعدرة وجذام وجهام، حيث كانت هذه الأقوام والقبائل تكون معظم سكان بلاد الشام.

وقد نشأت في بلاد الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات، وأقامت لها حضارات متميزة منذ قديم الزمان، ولكون بلاد الشام منطقة اتصال وجسر أرضي يربط بين عالم البحر المتوسط وعالم الخليج العربي والمحيط الهندي عبر العراق، وطمعت فيه الدول القوية في حوض البحر المتوسط، مثل: المصريين

القدماء والبطالمة والرومان، وأخيراً البيزنطيين، الذين يسميهم العرب "الروم" ^{٧٤} كما طمعت فيها الدولة الشرقية الكبرى - الفارسية - وقامت بغزوها عدة مرات. إن قيام الدوليات العربية المستقلة في بلاد الشام، كانت دائماً محطة اهتمام الدولة الرومية ورعايتها وتشجيعها، وكانت حريصة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة معها، وذلك من أجل أن تقف حارسة لحدود أملاكها في الشرق ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس، ومن تلك الدوليات:

الأنباط والتدمريون وأخيراً الغساسنة، والذين كانت تطلق عليهم بعض المصادر العربية اسم "روم العرب" ^(٧٥) لتحالفهم مع البيزنطيين إلى التمسك ببلاد الشام الأشرف المباشر عليه، وقيامهم بتقسيمه إلى أقسام عسكرية عرفت بالأجناد ونشروا فيه الحاميات العسكرية، وهذا النظام هو الذي طبّقه العرب بعد تحرير بلاد الشام.

ولابد من الإشارة إلى أن ظهور السيد المسيح "عليه السلام" في بلاد الشام "فلسطين" كان سبباً في تحول أهله منذ وقت مبكر إلى اعتناق الديانة المسيحية. وساعد على ذلك أن الدولة البيزنطية - التي ورثت الرومان في الشرق - جعلت المسيحية ديانتها الرسمية منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الأول (- م) ومع ذلك كان سكان بلاد الشام، الذين كان أغلبهم من النصارى العرب، يعتنقون المسيحية على مذهب مخالف للمذهب البيزنطي، كما تميزت المسيحية الشامية أيضاً بالرهبة التي ربما، انتقلت إليها من مصر، بحيث كثرت في الشام الصوامع والديارات ^(٧٦).

وفي الواقع يمكننا أن نقول أن نوايا توسيع دولة الإسلام كانت قد بدأت في حياة الرسول ﷺ الذي اتجه بنظرة شمالاً، أي إلى بلاد الشام فكانت سر ايه وغزوته بهذا الاتجاه، وأهمها كانت غزوة "مؤته" التي جسدت بدايات المشروع السياسي للدولة العربية الإسلامية في بلاد الشام فضلاً عن أهدافها الاقتصادية، في تأمين الطريق التجاري للشام الذي كان يشكل عصب الحياة الحجازية.

وبقيل أن يتوفاه الله أحد الرسول الكريم ﷺ في المحرم عام ١١ هـ / ٦٣٢ م جيشاً للمسير إلى بلاد الشام، يقوده (أسامة بن زيد) وأمره "أن يوطئ بالخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين" كما يروي الطبرى (٧٧).

وبعد وفاة الرسول ﷺ أصر الصديق ﷺ على إيفاد جيش (أسامة) إلى مقاصده التي حددتها رسول الله، ولم يتراجع عن موقفه هذا، على الرغم من تدخلات الصحابة وطلبهم تأجيل ذلك بسبب الخطر المحدق بدولة المدينة وبالإسلام نتيجة لحركة الارتداد الواسعة التي عمّت أنحاء مهمة من جزيرة العرب. فمضى (أسامة) إلى الشمال وأوقع بقبائل من قضاة كانت قد ارتدت عن الإسلام ثم أغاث على (أيل) وهي قرية من قرى (مؤته) وقتل من تعرض لجيشه من أهلها وغنم غنائم كثيرة (٧٨).

ولم يكتف أبو بكر بما حققه أسامة في حملته، فعندما اشتدت حركة الاردة عقد لخالد بن سعيد بن العاص وسيره إلى مشارف الشام، في حين عقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاة، ويعد لواء خالد بن سعيد أول لواء عقده إلى الشام، ولكنه أيا بكر لم يلبث أن عزله عن الإمارة وأمر مكانه بيزيد بن أبي

سفيان، بعد هزيمته على أيدي الروم ومنتصره عرب الشام من بهراء وسلیح وغسان وكلب ولخم وجذام بقيادة القائد البيزنطي باهان.

كتب خالد إلى أبي بكر يعلمه بالهزيمة ويستمد فسیر إلهي أبو بكر بعثاً من المسلمين بقيادة ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل، ثم لحق بهما الوليد بن عقبة في جيش لمساندته وبينما كان أبو بكر يستفر أهل مكة والطائف واليمن كان المدد الذي أرسله إلى خالد بن سعيد ويتجه إلى نيماء ثم زحف خالد ابن سعيد إلى جنوب البحر الميت لمقاتلة الروم، فاستدرجه باهان، فتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد، إلى أن وصلت قوات المسلمين إلى مرج الصفر الواقع إلى الشرق من بحرية طبرية وعندئذ طوقتها قوات باهان وقطعت على المسلمين خط الرجعة، واضطر خالد بن سعيد إلى أن يشتبك مع البيزنطيين في إحدى المواقع فانهزم وقتل ابن له، وفر بنفسه إلى ذي المروة قرب المدينة تاركاً جيشه تحت رحمة الروم، ولكن عكرمة بن أبي جهل نجح في تغطية انسحاب قوات المسلمين إلى حدود الحجاز، وظل مقينا هناك رداء المسلمين^(٧٩)، أما خالد بن سعيد فقد عد متخاذلاً وجباناً في الحرب. وأمره أبو بكر بالبقاء في المدينة وعدم مغادرتها.

استجاب عدد كبير من المتطوعين لنداء أبي بكر ~~عليه السلام~~ وأخذت الحشود تتواجد من سائر أنحاء الجزيرة وتتجمع في المدينة في معسكرتين، وبعد اكتمال تنظيمها في شهر المحرم سنة ١٣هـ / ٦٣٤، عقد أبو بكر ثلاثة ألوية.

الأول: لشريحيل بن حسنة، "وهو شريحيل بن عبد الله الكندي وحسنـة أمـه^(٨٠).

الثاني: لعمرو بن العاص بن وائل السهمي.

الثالث : ليزيد بن أبي سفيان وقد عد ذلك التاريخ بداية الانطلاق الرسمي المنظم لحركة الفتوح الإسلامية التي غيرت مسار التاريخ الإنساني في العصر الوسيط أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة: فسار عمرو بن العاص عن طريق آيلة أو ساحل البحر الأحمر (القلزم)، باتجاه أرض فلسطين، وسلك يزيد وشرحبيل طريق "تبوك" أو البلقاء نحو شرق الأردن، وقد واجه القادة الثلاثة مقاومة من سكان المناطق التي مرروا بها وخاصة من بعض العرب المنتصرة مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة، على الرغم من أنهم تمكنا من تثبيت أقدامهم بنجاح في جنوب الشام، لذلك أرسل إليهم الخليفة المدد الذي توافد على المدينة بقيادة أبو عبيده بن الجراح من جانب آخر الحق أبو بكر الوليد بن عقبة بشرحبيل، والحق علامة بن محزر يبعث عمرو بن العاص، والحق معاوية بن أبي سفيان يبعث يزيد بن أبي سفيان وسير معه جماعة من المجاهدين.

وقعت اشتباكات متفرقة مع البيزنطيين أولها وقعة كانت بين المسلمين بقيادة يزيد والبيزنطيين بقيادة بطريق فلسطين بقرية من قرى غزة يقال لها داثن وانتهت بهزيمة البيزنطيين وانسحبوا إلى غزة، بينما سار يزيد مطارداً القوات البيزنطية المنسبة، بلغه أن بوادي عربة من أرض فلسطين حشوداً بيزنطية،

فسير إليها يزيد قائداً من قواده يعرف بأبي أمامة بن عجلان الباهلي، الذي تمكن من الإيقاع بهم وقتل أحد قوادهم^(٨١).

بلغت أخبار توافد قوات المسلمين على جنوب الشام إلى الإمبراطور فاس تعد للمواجهة، وعمد إلى مقاتلة جيوش المسلمين كل على حده" وأراد اشغال بعضهم عن بعض لكثره جنده وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقية ثانية جلق بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توزرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بازاته، وبعث الدارقص، فاستقبل شرحبيل بن حسنة وبعث الفيغار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة، فهاجمهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة في ستة آلاف^(٨٢) . وتدارس قادة جيوش المسلمين الموقف الجديد والتفوق العددي الكبير لجيوش العدو، فقال عمرو بن العاص" إن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ومن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا"^(٨٣). وكان الخليفة أبو بكر قد رد عليهم بمثل هذا الرأي عندما نقلوا إليه صورة الموقف الجديد إذ قال لهم "اجتمعوا ف تكونوا عسكراً واحداً، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعون الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحتربوا من الذنوب، واجتصوا باليرموك متساندين، ليصل كل رجل منكم بأصحابه" وفي الوقت ذاته كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو في العراق

يستحثه على المسير والاتحاق بجيوش المسلمين في الشام على أن يصحب معه نصف عدد المسلمين ويترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثة. فسار خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة ١٣ هـ، بمن معه من المقاتلين واخترق الصحراء الفاصلة ما بين العراق والشام في ثمانية أيام، مارأً بقارقر، وسوى وقرقيسae ودومة الجندي، وقسم وتدمr وحوارين ومرج راهط وثيبة دمشق إلى أن وصل إلى بصرى وعليها شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفیان وأبو عبيده بن الجراح فاشترک خالد في محاصرتها، فصالحه أهلها. تم افتتاح المسلمين جميع المناطق التابعة لكوره حوران " وتوجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضموا إليه فأتى مأب من أرض البلقاء وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى وقال بعضهم أن فتح مأب قبل فتح بصرى " (٨٤).

معركة أجنادين:

ما أن وصل خالد بن الوليد قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين فأمر جميع جنوده بالتجمع في أجنادين، وهي بلدة قرب السرملة من أرض فلسطين، حتى لا ينفرد عدوهم بهم وهو متفرقون فقد أرسل هرقل من حمص شمال بلاد الشام أخاه تيودوروس (ويسميه العرب وردان) على رأس جيش كبير، يزيد عدد على مائة ألف من الروم وبعض العرب المنتصرة (الأقباط) ومعه البطاركة والقساوسة والرهبان بالصلبان، وقد سلحو

بالأسلحة المعروفة في ذلك الوقت: فكان المقاتلة منهم يلبون خفاف الحديد في أرجلهم، وهب مكفونة في الدروع لا يرى منهم إلا الحدق وحينما وصل تيودورس إلى اجنادين نظم جيشه أمام العرب، على أحدث ما هو معروف عند الروم من فن الحرب، فوضع فارساً بين كل اثنين من المشاة أحدهما ناشر والآخر رامح.

أما المسلمين الذين تجمعوا في اجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين ألفاً من قبائل متعددة اتخذت لها رايات وألوية، وشعارها عقيدة الإسلام، وكان لخالد بن الوليد راية خاصة به أسمها "العقاب"^(٨٥) وكانت أسلحة المسلمين بسيطة بدائية لا تصل إلى قوة أسلحة الروم وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبياض (أي الخوذ) وقد نظمهم خالد إلى فرق للرجالات: ميمنة وميسرة وجعل الفرسان وحدهم ليحاربوا على حدة، فكان منهم من يمتلك الخيول أو الأبل. أما خالد نفسه فقد تعمم بعامة صفراء، واشتهر بحريره حمراء، حتى يراه الجميع.

زحف المسلمون وتم اللقاء بين البيزنطيين وبين المسلمين، واشتد القتال بين الفريقين، وأبلغ خالد بن الوليد، يؤمذ، بلاء حسناً، وعلى الرغم من عدم تكافؤ العدد والسلاح بين الجانبين فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجديد فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم في هذه المعركة التي دارت رحاها في جمادي الأول من سنة ١٣

هـ/ يوليو ٦٣٤ م، كانت هذه أول وقعة عظيمة بين عرب الحجاز والبيزنطيين منذ أن ظهر الإسلام.

لقد انتهت المعركة بهزيمة نكراء مني بها البيزنطيون وقتل الفيقار وتذارق واعداد هائلة منهم واستشهد من الجانب الإسلامي بعض الشخصيات الإسلامية البارزة منها: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان بن سعيد، ولما انتهى خبر هذه الواقعة إلى هرقل سقط في يده، وامتلأ نفسه رعبا، فنقل مقر قيادته من حمص إلى إيطاكية^(٨٦).

لقد كان للانتصار في "أجنادين" وقع عظيم بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله، وقد استغلت "المدينة" هذا النصر استغلالاً كبيراً في حث المسلمين على الجهاد بحيث أنه استغل الحماس في عرب الجزيرة مما جعلهم يتقاترون على بلاد الشام، ويشجعهم على السير بدون تردد للانخراط في مشروع الفتح بل ظهرت نوايا الكثير منهم في سكناً بلاد الشام نهائياً وعلى العكس كانت الهزيمة لأعدائهم الروم في "أجنادين" طعنة غيرمنتظرة بحيث لم يصدق هرقل ذلك، ولم يتتصروا إطلاقاً بأن هزيمتهم في "أجنادين" ستؤدي إلى القضاء على وجودهم نهائياً في بلاد الشام وشمال إفريقيا، وإنما اعتقدوا أنها محنّة طارئة أو غضب إلهي بسبب ما ارتكبوه من الخطايا والذنوب.

توفي أبو بكر في ٢٢ شعبان من جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م، بعد هذا الانتصار الكبير، وذلك بعد أن قضى في الخلافة ٦٣

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

حوالي سنتين وثلاثة أشهر [١٣-١١ هـ / ٦٣٤ - ٦٣٢ م] وقد حافظ على الإسلام من ردة العرب، ووجه الجيوش نحو الفتوح، مما يجعلنا نعده من أعظم مؤسسي الدولة الإسلامية بعد النبي.

هوامش الفصل الأول

- حول موضوع الخلافة ونظام الحكم في الإسلام أنظر:
الماوردي، الأحكام السلطانية.
- ابن طباطبأ، الفخرى في الآداب السلطانية.
- القاشندي، مآثر الإناقه في معلم الخلافة.
- ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل.
- المقرizi، السلوك في دول الملوك.
- حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية.
- صبحي الصالح، النظم الإسلامية.
- محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي.
- الأعراف: ١٤٢.
- البقرة: ٣٠.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٩.
- ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٨.
- الإسراء: ٧١.
- خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، دار سيناء القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٠.

- ٨ عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٨.
 - ٩ ابن هشام، ج ٤، ص ٣١١، الطبرى، ج ٣، ص ٢٠٣، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٤.
 - ١٠ الحجرات: ١٤.
 - ١١ انظر: ابن هشام، ج ٤، ص ٣١٦ وما بعدها، البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٤ وما بعدها.
 - ١٢ عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص ٤٢.
 - ١٣ انظر: الطبرى، ج ٣، ص ٢٣٠ وما بعدها، البلاذري، ج ١، ص ١١٩.
 - ١٤ الطبرى، ج ٣، ص ٢٣٣.
 - ١٥ البلاذري، ج ١، ص ١٠٧ وما بعدها.
 - ١٦ المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠.
 - ١٧ الطبرى، ج ٣، ص ٢٣٣.
 - ١٨ المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠.
 - ١٩ نفسه، ج ٣، ص ٢٤٦.
 - ٢٠ ياقوت الحموي، ج ١، ص ٦٨.
 - ٢١ المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٨.
 - ٢٢ الطبرى، ج ٣، ص ٢٢٥.
 - ٢٣ الطبرى، ج ٣، ص ٢٣٢، ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٤٨.
-

- ٢٤- البلاذري، ج ١، ص ١١٥.
- ٢٥- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، المكتبة الإنجليو مصرية، القاهرة.
- ٢٦- الطبرى، ج ٣، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.
- ٢٧- ورد في بعض الروايات أن مالكا لم يرتد وأن بني حنظلة وضعوا السلاح وأعلنوا استسلامهم لجيوش خالد، البلاذري، ج ١، ص ١١٧.
- ٢٨- الطبرى، ج ٣، ص ٢٤٣.
- ٢٩- البلاذري، ج ١، ص ١١١.
- ٣٠- ابن سعد، ج ١، ص ٥٤.
- ٣١- البلاذري، ج ١، ص ١١٦، ابن الأثير، ج ٢، ص ١٦٠.
- ٣٢- ابن هشام، ج ٢، ص ٩٥٣، البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠١ - ١٠٤.
- ٣٣- ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦٠.
- ٣٤- ومنهم المستشرق الإيطالي "كاليتاني" وغيره من المستشرقين أمثال برنارد لويس، ولامانس، وبيكير.
- ٣٥- فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.
- ٣٦- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٥.
- ٣٧- الطبرى، ج ٤، ص ٩.
- ٣٨- ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٣٢.
- ٣٩- الفتح: ٨ - ٩.

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

- .٤٠ - سبأ: ٢٨.
- .٤١ - الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.
- .٤٢ - ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٢٧.
- .٤٣ - البقرة: ٢٥٦.
- .٤٤ - انظر: عبد الحكيم الكعبي، معاهدات الصلح بين المسلمين ونصارى الجزيرة الفراتية خلال حركة الفتح الإسلامي، مجلة البلقاء، جامعة عمان الأهلية/الأردن، المجلد ٩، العدد ١، نيسان ٢٠٠٢ ص ١٣٧ - ١٥٥.
- .٤٥ - الحج: ٣٩.
- .٤٦ - انظر: سورة التوبه: ٢٩.
- .٤٧ - انظر: سورة البقرة: ٢٥٦.
- .٤٨ - آل عمران: ١١٠.
- .٤٩ - تقع آثار هذه المدينة حالياً جنوب بغداد، وتسمى أيضاً "سلمان بالك".
- .٥٠ - تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، ج ١، ص ٥٧.
- .٥١ - هشام جعيط، الكوفة، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣، ص ٩.
- .٥٢ - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣١.
- .٥٣ - الطبرى ج ٣، ص ٣٤٤.
- .٥٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٨.

- ٥٥- دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الحيرة" مجلد ٨، ص ١٦١، مقال F. BUHL.
- ٥٦- جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٣.
- ٥٧- الطبرى، ج ٣، ص ٤٧٤.
- ٥٨- الطبرى: ج ٢، ص ٢٠٦.
- ٥٩- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ٦٠- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٢٧.
- ٦١- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٩.
- ٦٢- الطبرى، ج ٢، ص ٢٠٦.
- ٦٣- فتوح البلدان، ص ٢٩٥.
- ٦٤- المصدر نفسه، ص ٢٩٦.
- ٦٥- منطقة بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، شمال البصرة بأربعة أيام، معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٨.
- ٦٦- البلاذري، ص ٣٤٤.
- ٦٧- المصدر نفسه، ص ٣٤٥.
- ٦٨- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣١.
- ٦٩- البلاذري، ص ٣٤٥.
- ٧٠- الطيلسان: ضرب من الأوشحة بلبس على الكتف أو يحيط بالبدن ليس به تفصيل أو خياطة (فارسي معرب).

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

- ٧١ - البلاذري، ص ٢٤٧.
- ٧٢ - المسلحة: موضع السلاح؛ المرقب والجمع مسلح.
- ٧٣ - الطبرى: ج ٣، ص ٢٢ وما بعدها، الدنیوری، الأخبار الطوال، ص ١١٢.
- ٧٤ - سورة الروم: ٢.
- ٧٥ - الطبرى، ج ٣، ص ٨٠.
- ٧٦ - ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٧٧.
- ٧٧ - الطبرى، ج ٣، ص ١٨٤.
- ٧٨ - المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٣.
- ٧٩ - المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٠.
- ٨٠ - ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٠٦.
- ٨١ - البلاذري، ص ١٨٨.
- ٨٢ - الطبرى، ج ٢، ص ٣١.
- ٨٣ - المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ٨٤ - البلاذري، ص ١٨٩ وما بعدها.
- ٨٥ - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨١.
- ٨٦ - البلاذري، ص ١٩٤.

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب

المبحث الأول: فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر وبرقة

المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة

المبحث الأول

فتح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

مقدمة:

كان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جيد، ولكن أبو بكر أخذ على عاتقه قبل موته، اختيار خليفة لهم، حتى يجنبهم الفرقة في هذه الظروف العصبية، فكتب عمر بن الخطاب عهداً بالخلافة لقي قبولاً من جميع المسلمين.

مارس عمر بن الخطاب رض حقه في الخلافة بناء على اختيار أبي بكر رض لذلك تسمى في أول الأمر: " الخليفة رسول الله" - كما أشرنا سابقاً أو حتى خليفة أبي بكر. ولكن ثبت بالتجربة تعقيد المخاطبة بهذا اللقب، فتسمى عمر بال الخليفة فقط كما انه أضاف إلى هذا اللقب لقباً جديداً متماشياً ومناسباً لمرحلة الفتوح، وهو لقب "أمير المؤمنين" سرية أو جيشاً، والمؤمن هو المسلم الذي دخل الإسلام بعد ارتادها وخرجت للجهاد، فكان عمر أول من تسمى به، وتوارثه الخلفاء من بعده، لا يشاركون فيه أحد.

وفي الواقع إن مؤرخي العرب يبرزون شخصية عمر بن الخطاب كأعظم ما تكون في جزيرة العرب وقائد لحماية الشديد للإسلام، ولموقفه الحاسم

الفصل الثاني: خلافة عمر بن الخطاب

يوم السقيفة، ولأنه أيضاً أبو حفصة زوج النبي، قطعاً لا ريب فيه أنه اشهر خلفاء المسلمين، فعصر عمر بعد العصر الذهبي للإسلام، ولم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام أن عصرين كمل ثانيهما أولهما، كما حدث في عصر أبي بكر وعمر ويتجلّى ذلك من خلال سير الأحداث وتواصلها بين الخلفتين.

معارك جبهة العراق:

الموقف العسكري في العراق بعد رحيل خالد:

انتهى دور خالد بن الوليد في العراق عندما جاء كتاب أبي بكر الصديق يأمره فيه أن يستخلف غيره على العراق، وأن يمضي إلى الشام لينجد المسلمين بعد الذي تجمع لهم من الروم فمضى خالد من العراق إلى الشام - كما ذكرنا - واستخلف على العراق المثنى بن حرثة الشيباني الجندي المغامر الذي يدين له تحرير العراق بالكثير من الجرأة والقوة والاندفاع.

بقي من جيش تحرير العراق حوالي "تسعة آلاف" وقيل "ثمانية آلاف" مقاتل بقيادة المثنى بن حرثة الشيباني وكان معظمهم مسکراً في الحيرة ما عدا بعض المفارز المثبتة على طول شواطئ الفرات من جهة الشمال والجنوب وبالقرب من المناطق التي تمر تحريرها من قبل الجيش العربي كالأبله والولجة وعين التمر والأنبار.

لم يكن موقف الجيش العربي حسناً فما عدا قلة عدده الذي لا يتاسب وخطورة الواجب الملقى على عاتقه نجد أن الفرس، وقد استقر على ملتهم أحد أحفاد الأسرة السasanية يدعى (شهر يار) تمكنا من إعداد جيش يضم عشرة آلاف مقاتل بقيادة "هرمز جاذویه" ولما علموا بسفر خالد بن الوليد إلى الشام أرسلوه نحو الحيرة على أمل استرجاعها من العرب فكان على المثنى أن يقاتل هذا الجيش فجمع المفارز المثبتة على الفرات وتقدم بقواته إلى بابل التي اختارها ميداناً للمعركة المنتظرة وحسنأً فعل المثنى بانتخابه هذا الموضع لقتال الفرس.

التحق الجيشان ببابل في أوائل شهر ربيع الثاني ١٣ هـ ودارت المعركة بين الفريقين مدة من الزمن انتهت بانكسار الجيش الفارسي وترجعت فوله المنهزمة إلى المدائن والجيش العربي يتعقبها وينكل بها^١.

لقد بدأت المرحلة الثانية من تحرير العراق مع خلافة عمر بن الخطاب، ولسن يعود خالد إلى العراق مرة ثانية، فقد آثر الخليفة الثاني أن يعيشه من القيادة ولن يقصر الخليفة الجديد جهداً على الشام فقد حققت الجيوش الإسلامية في الشام ظفراً طيباً مكن لها منها وكان لابد لهذه الفتوحات التي بدأت في العراق أن تستكمل غایاتها وتتابع طريقها ولذلك وجد عمر أنه مدفوع إلى العراق ملفوت إليه، على مثل ما وجد أبو بكر من قبل أنه مدفوع إلى الشام ملفوت نحوه، فبدأ عمر يندب الناس بالتوجه إلى العراق.

لقد بدأت المرحلة الثانية إذن، ب الخليفة الجديد هو عم، وبإمداد جديد، هو إمداد أبي عبيد الثقفي، الذي كان أول من لبى نداء عمر، وذكر البلاذري: "لما استخلف عمر بن الخطاب ^{رض} وجه أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وهو أبو المختار بن أبي عبيد، إلى العراق في ألف، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بتلقيه، والسمع والطاعة له، وبعث مع أبي عبيد، سليمان بن قيس بن عمرو الأنصاري، وقال له: لو لا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون (أي شديدة تدفع بعضها بعضاً) لا يصلح لها إلا الرجل المكيث (المتأني)، فأقبل أبو عبيد لا يمر بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنية، فصاحب خلق، فلما صار بالعزيز، بلغه أن جaban الأعجمي بستر في جمع كثير، فلقيه فهزم جمعه وأسر منهم، ثم أتى درني وبها جمع للجمع، فهزمه إلى كسر، وسار إلى الجالينوس، وهو بباروسما، فصالحه أبن الاندرز عز عن كل رأس على أربعة دراهم، على أن ينصرف ووجه أبو عبيد المثنى إلى زندورد، فوجدهم قد نقضوا فحاربهم فظفر وسبى ووجه عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الزوابي فصالح دهقانها على مثل صلح (باروسما)^٢.

أهم المعارك قبل القادسية:

معركة النمارق:

سار أبو عبيد الثقفي وسعد بن عبيدة وسليمان بن قيس الأنصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم إلى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم

باستفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم، ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرزاء عشر سنين ثم يكون الملك في أول كسرى إن وجدوا ممن غلمانهم وإلا ففي نسائهم فدعت بوران مرازبه فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم ويطيعوا توجته فدانت له فارس قبل قدم أبي عبيد ثم قدم المثنى إلى الحيرة وقدم بعده أبو عبيدة بشهر فكتب رستم إلى الدهاقين أن يؤثروا بال المسلمين وبعث في كل رستاف رجلاً يؤثر بأهله وبعث جنداً لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعمل وخرج من الحيرة ونزل خفان، ونزل جيش الفرس النمارق فسار إليه أبو عبيدة واقتلوها بالنمارق قتالاً شديداً فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشه وأسمه جابان. ولحق المهزومون ككسر وبها نرسى ابن خالة الملك فسار إليهم أبو عبيدة واقتلوها قتالاً شديداً ثم أنهزم الفرس وهرب نرسى وغلب المسلمين على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعث الجالينوس بجيش فنزل بياقيشاتا فسار إليه أبو عبيدة فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيدة على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب رض قال لأبي عبيدة إنك تقدم على أرض المكر والخدعنة والخيانة والجريمة تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعلموا وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون وأحذر لسانك ولا تفشن سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرره وإذا ضيعه كان بمضيعة

فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظ على ما أوصاه به عمر

.٣٠

معركة الجسر الخاسرة (شعبان سنة ١٢ هـ):

ويقال لها وقعة القرقس أو "قُس الناطق" أو "المروحة" حيث عسكر الفرس على الضفة الشرقية لنهر الفرات تجاه الحيرة بقيادة يهمن جاذوية، فلما قدم أبو عبيد اتخذت قوات المسلمين أماكنها على الضفة الغربية المقابلة، وعرض بهمن على أبي عبيد أن يختار بين أن يعبر الفرس إليه أو يعبر هو إليهم. فاختار أبو عبيد العبور إلى الضفة الشرقية ورد على من حذر مغبة ذلك بقوله (لا يكونوا أجرأ على الموت منا) وقد وضع أبو عبيد للعبور جسراً من الزوارق مر عليه جند المسلمين (٤).

كان جيش الفرس يضم عدداً من الفيلة، ولذلك كانوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم ذرعاً من الفيلة، فاضطرب نظام المسلمين وقتل عدد كبير منهم وعلى رأسهم أبو عبيد، فحاولوا التقهقر إلى الضفة الغربية للفرات، لكنهم فوجئوا بانقطاع الجسر على يد أحد أقرباء أبي عبيد، اعتقدوا منه أن ذلك أدعى للاستسلام لكن قطع الجسر أدى إلى زيادة الاضطراب بين المسلمين، لأنهم لم يكونوا على بينة من أمره بل فوجئوا به. وكان من الممكن أن يباد جيش المسلمين بأكمله في ذلك اليوم، لو لا ما أبداه بعض أبطالهم من ضروب البسالة، حيث تمكروا من إعادة الجسر في ظروف بالغة الصعوبة، ووقف المثنى يحرس

الانسحاب ويحميه حتى ينقد ما يمكن إنقاذه وقد استشهد قائد جيش المسلمين أبو عبيد بعد أن أثبت شجاعة شخصية وقلة خبره في شؤون الحرب. كما جرح المثنى جروحاً بليفة^(٥). وقدرت خسائر العرب بستة آلاف منهم أربعة آلاف قتلوا في ميدان المعركة مع نخبة ممتازة من القادة بينما غرق الألاف في النهر في أثناء الانسحاب. أما خسائر العجم فقد قدرت أيضاً بستة آلاف قتيل وجريح^(٦) ونعتقد أن في هذا التخمين بعض المبالغة.

وقد لجأ إلى الصحراء أكثر من ألفين من المسلمين الفارين من المعركة، وكاد يقتلهم الجوع والعطش لا يريدون العودة إلى المدينة حياء وخجلأً من عار الهزيمة، وقد بذل الخليفة عمر جهوداً كبيرة لاستعادتهم.

موقعة البويب (رمضان سنة ١٣ هـ):

لما بلغ عمر بن الخطاب استشهاد أبي عبيد في معركة بالجسر، ندب الناس إلى المثنى وكان من ندب قبيلة بجبلة ورئيسها جرير بن عبد الله البجلي فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجة إلى العراق فأبوا إلا الشام، فعزم عليهم عمر التوجة إلى العراق وينقلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثنى، وكتب إلى أهل الردة، وكل ما جاء أحد بعث به إلى المثنى، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوارد عليه في جمع عظيم وجاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر النصارى، وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر قادة الفرس فاجتمعوا من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب، وكان على جيش الفرس

مهران مهروية فأرسل إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن يعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات، وهياً المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقوموا على عدوهم فأفطروا: وأقبل الفرس في ثلات صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لأصحابه أمن الذي تسمعون فشل فألزموا الصمت ودنوا من المسلمين فطاف المثنى في صفوهم يحرضهم، وقال إنني مكبراً ثلاثة فتهيؤا ثم أحملوا في الرابعة فلما كبروا أول تكبيرة اعجلتهم فارس وخالفتهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمري إنك أمرتني عربي وإن لم تكن على ديننا فإذا حملت على مهران فاحمل معك فأجابه، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهما واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنiban نقتل ولا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المسلمين ولا المشركون، وأنهى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد أزال القلب وثبت مجنبي المسلمين على مجنبي المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فاقتربوا مصعدين ومنحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلواهم وجعلوهم جثثاً وبقيت عظام القتلى دهراً طويلاً وكانوا يحرزون القتل مائة ألف وسمى ذلك اليوم يوم الأعشار أحصى إلى الليل ومن الغد إلى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضي الله عنه (١٧).

موقعية الخنافس وسوق بغداد:

لقد استقام الأمر للMuslimين بعد البويب، واستقاد لهم السواد وأخذ المثنى يمخره هنا وهناك، وفرق القواد واذكى المسالح وأغار على تجمعات الفرس في مكان فيه.

وكان من هذه الغارات غارته على الخنافس وهو سوق يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد قصاعة وربيعة يخرونهم، فركب المثنى وغار على الخنافس يوم سوقها فانتهت السوق وما فيها وسلب الخفراء ثم رجع إلى الانبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا إليه وأتواه بالأعلاف والزاد وأخذ منهم الأدلة على سوق بغداد وهو موضع المدينة التي احتطها المنصور فيما بعد وصيّبهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء، ثم رجع إلى الانبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الأطراف وبعث خيلاً على أحياه تغلب بصفين، فاغاروا عليهم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة ففروا وأدركوه بتكريت فأصابوا ما شاءوا من النعم.

وقد كان المثنى هو سيد هذه الغارات كلها بعد البويب، وكان على مقدمته حذيفة بن محض وعلى مجنبيته النعمان بن عوف بن النعمان ومطر الشيبانيان ولا يطول أمر هذه الغارات فقد أدرك الفرس أي نذر مبينة تهدد دولتهم الواسعة فبدأوا يعدون للمعركة الجديدة: معركة القادسية، إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ^(٨).

القادسية : المعركة المصيرية:

بلاد فارس هي تلك الهضبة، أو منطقة الأستبس من الأرضي الصلبة والصحراء والجبال، التي تمتد في الجنوب إلى ساحل بحر الهند، وفي الغرب إلى الخليج العربي وسلسلة جبال زاجروس، وفي الشرق إلى السند، وفي الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون.

ومنذ قديم الزمان كانت هذه المنطقة مقاماً لهجرات متعددة من أنواع الحيوانات، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآري، الذي ظهر على الخصوص في المنطقة الشمالية الغربية من الهضبة أو ما يعرف بميديا mydia ، وهي التي سماها العرب :إقليم الجبال" ^(١) لكثره جبالها. ويبدو أن الآريين - وبهم سميت إيران - كانوا يسكنون أول الأمر هذه البلاد مع الهندوس الذين غادروها إلى الهند، بدليل تقارب اللغتين (الزند الإيرانية والسنسرية الهندية).

ومن الهجرات التي وفدت على هذه الهضبة، هجرة الفرس، وهم من الآريين أيضاً والتي امتدت إلى جبال زاجروس إلى الشرق من نهر دجلة فعرفت بهم المنطقة التي سميت "فارس" وإن اندمجاً مع العناصر السابقة في أنحاء إيران، وكونوا الشعب الذي سماه العرب: "العجم" كما ظهرت لهم اللغة التي عرفت بـ "الفالوية" ^(٢).

ونتيجة لتعدد الهجرات وتتنوع السكان فيها، حدثت اضطرابات في بلاد فارس، الأمر الذي دفع ملوك العراق القديم من البابليين والآشوريين، إلى التوسع في تلك البلاد وإخضاعها وإعادة النظام إليها، إلا أن الفرس استطاعوا أن يوحدوا بلادهم بقيادة كورش الأكبر (٥٥٨-٥٢٩ ق.م) الذي أسس في فارس الدولة الأخمينية، وتمكن كورش الأخميني هذا من القضاء على آخر حضارة عراقية ناضجة في بابل سنة ٥٣٩ ق.م وكان جده المسمى أيضاً كورش قد استولى على نينوى عاصمة آشور سنة ٦١٤ ق.م.

تمكن الإسكندر المقدوني من القضاء على الدولة الأخمينية سنة ٣٣١ ق.م، فنفرقت بلاد فارس إلى دولات صغيرة يحكم كل منها ملك واستمرت على هذه الحال إلى أن ظهر الاشكانيون في منطقة "بارث"^(١) وهي خراسان الحالية فأقاموا لهم دولة خضعت لها هذه الممالك سنة ٢٤٧ ق.م، فتلقب ملوكهم بلقب "شاهنشاه" [أي ملك الملوك] وهم الذين يسميهم العرب "ملوك الطوائف"، إلا أن هذه الدولة الممزقة توحدت من جديد على يد أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الساسانية سنة ٢٢٦ م، بقيادة أردشير، وهذه الدولة هي التي حاربها العرب وأسقطوها مطلع القرن السابع الميلادي، بعد أن حكمت ما يقرب من أربعة قرون، وخضعت لها شعوب كثيرة في الشرق، وجعلت عاصمة ملوكها على أرض العراق، في المدائن (طيسفون) كما أشرنا سابقاً.

أولاً: تحشيد الجيش العربي في القادسية

كانت بداية تحشيد الجيش العربي بإعلان النفير في الجزيرة العربية بقول الخليفة عمر بن الخطاب عليه كلامته الماثورة "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب" وهو يتلو رسالة المثنى على رجاله ومستشاريه وقد أخذ منه الغضب مأخذ وعزم على أمر لم تسمع به العرب قبل الآن.

لقد أعلن النفير العام في الجزيرة ولم يدع ذا رأي وشرف وبساطة، لا خطيباً ولا شاعراً إلا وجنته وعمم عند ذهابه إلى الحج الرسالة التالية: "على العرب أن لا يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلا وجهوه إليه إذا كان أقرب إلى المدينة منه إلى العراق، أما من كان أقرب إلى العراق فليلسل إلى المثنى".

وكتب إلى المثنى يأمره بأن لا يدع في ربعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبموه وإلا حشدتموه، أحملوا العرب على الجد إذا جد العجم، فتلقوا جدهم بجدهم.

فكان لإعلان النفير في الجزيرة العربية صدأه وتأثيره في أبنائها فجاءت إمدادات العرب إلى عمر من كل وجه فعزم على قيادة نخبة الجزيرة بنفسه تنفيذاً لقوله الماثوره: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب" واستخلف على العاصمة العربية علي بن أبي طالب، وفي أول يوم من محرم سنة ١٤ هـ خرج من المدينة العاصمة إلى مكان يدعى (صرار) على بعد خمسة كيلومترات من

المدينة في طريق العراق إلا أن رجاليات العرب وقد عقدوا مؤتمراً خطيراً الشأن في "صرار" لم يوافقوه على قيادة الجيش بنفسه وطلبوها أن ينتخب غيره لهذا العمل، بينما كانوا يتذكرون فيمن يتولى قيادة حرب العراق أباً كتاب من سعد بن أبي وقاص وكان حينئذ في هوازن يقول فيه: "وقد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذو نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم رأيهم فشانك بهم" ^(١٢).

فلما قرأ لهم الكتاب قالوا له: "وجدته يا أمير المؤمنين" قال: "من هو؟" قالوا: "الأسد في براثنه - سعد بن أبي وقاص".

فوافقهم على ما أرادوا وكتب له يستعجله بالقدوم ليوكل إليه أمر حرب العراق، وأوصاه وصيحة كريمة جاء فيها: "يا سعد إني قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به، ولا يغرنك من الله إن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله ليس بيته وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضعيتهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين" ^(١٣).

وفي هذه المرحلة نسلم الصحابي سعد بن أبي وقاص قيادة حرب العراق ووضع عمر تحت تصرفه أربعة آلاف مقاتل في صرار "إحدى ضواحي المدينة" وأصدر الخليفة عمر إليه الأوامر التالية: أن يسلك في تقدمه الطريق الذي يوصل المدينة بزرود وشراف والقادسية (طريق زبيدة المشهور) وأن يكون هدفه الأول الوصول إلى (زرود) حيث يطلب من القبائل العربية منبني تميم وأسد والرباب التقطيع في جيشه وبعد أن يلبوا نداءه يستمر على تقدّمه إلى "شراف" حيث يستطيع أن يكمل تحشده فيها ويخبره عندئذ بموقفه ليرسل إليه وصايا جديدة^(١٤).

بعد ذلك وقف الخليفة عمر يودع فرسان الجزيرة قائلاً لهم: إن الشرف فيكم يا معاشر النخاع المتربيع، سيرروا مع سعد، فسار القوم إلى العراق متوجهين نحو (زرود) وكان الموسم موسم شتاء، فوصلوا إليها وتفرقوا في مياها قام قائدتهم سعد بدعاوة القبائل العربية منبني أسد وتميم والرباب للقطيع في جيش الفتح فلبى طلبه سبعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف منبني أسد ومثلهم منبني تميم والألف الآخر منبني رباب^(١٥).

و قبل أن يترك سعد (زرود) أرسل كتيبة من الخيالة مؤلفة من ٥٠٠ فارس بقيادة المغيرة بن شعبة إلى الأبلة (البصرة) ليستمر تحشده في شراف والقادسية ويأمن الخطر من جناحه الأيمن ثم تقدم بجيشه الذي بلغ ١٢٠٠٠ مقاتل إلى شراف، وفور وصوله إليها قام بدعاوة القبائل العربية للقطيع في جيش الفتح كما قام بتنظيم جيشه وفقاً للأوامر الصادرة إليه في هذا الشأن من الخليفة، فألف من كل عشرة جنود حظيرة وعين عليها عريفاً ثم ألف من

الحظائر سرايا، ومن السرايا كتائب وعین لكل وحدة قائدًا كما عین على القيادة أمراء من الذين اشتهروا بأصالة الرأي في الحروب^(١٦).

وبعد أن استعداده للتقدم كتب إلى عمر في موقفه وموقف جيشه ذاكراً تفاصيل خطوطه الدفاعية الأمامية، تلك المراكز العسكرية التي أسسها المثنى ما بين غضى القادسية وطالباً الخليفة أن يصدر إليه الأوامر بالتقدم، وفي خلال هذه الفترة قدم إلى شراف المعن بن حارثة والزعماء العراقيين الآخرون من قادة جيش الفتح الأول ناعين إلى سعد بن أبي وقاص وفاة المثنى بن حارثة وبمبلغه وصيته له واستعدادهم للخدمة بزعامته^(١٧)، وأن آخر ما قام به هذا القائد العربي وصيته لسعد بن أبي وقاص التي أودع فيها رأيه في خطة المعارك والتي تتضمن ما يلي: "إذا قدم سعد فيقاتل على حدود أرض العجم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلهم في عقر دارهم، فإن ظهر الله المسلمين ونصرهم فلهم ما ورائهم وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكون أعلم بسبيلهم وإجراء على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم".

بعد تجمعهم في "شرف" واستعدادهم إلى التوجه إلى القادسية جاءت أوامر الخليفة إلى قائد جيش العراق بالرسائل التالية^(١٨): "أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله، وأعلم فيما لديك أنك تقدم على أمّة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فأبدوهم الشد والضرب وإياكم

والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكره أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم، وإذا انتهت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول، وهو منزل رغيب خصيـب حصين، دونه قنـاصـر وأنـهـار مـقـنـعـة فـتـكـون مـسـالـحـكـ علىـأـنـقـابـهاـ وـيـكـونـ الناسـ بـيـنـ الـحـجـرـ وـالـمـدـرـ عـلـىـ حـافـاتـ المـدـرـ وـالـجـرـاعـ بـيـنـهـماـ،ـ ثـمـ إـلـزـمـ مـكـانـكـ فـلـاـ تـبـرـحـهـ فـإـنـهـمـ إـذـاـ أـحـسـوـكـ أـنـفـضـهـمـ وـرـمـوـكـ بـجـمـعـهـمـ الذـيـ يـأـتـيـ عـلـىـ خـيـلـهـمـ وـرـجـلـهـمـ وـحـدـهـمـ وـجـدـهـمـ،ـ فـإـنـ أـنـتـ صـبـرـتـ لـعـدـوكـ وـاحـتـسـبـتـ لـقـتـالـهـ وـنـوـيـتـ الـأـمـانـةـ رـجـوتـ أـنـ تـتـصـرـرـواـ عـلـيـهـمـ ثـمـ لـاـ يـجـتـمـعـ لـكـمـ مـثـلـهـمـ أـبـدـاـ إـلـاـ مـنـ أـدـنـىـ مـدـرـةـ مـنـ أـرـضـهـمـ إـلـىـ أـدـنـىـ حـجـرـ مـنـ أـرـضـكـ ثـمـ كـنـتـ عـلـيـهـاـ أـجـرـاـ وـبـهـاـ أـعـلـمـ وـكـانـواـ عـنـهـاـ أـجـبـنـ وـبـهـاـ أـجـهـلـ حـتـىـ يـأـتـيـ اللـهـ بـالـفـتـحـ عـلـيـهـمـ وـيـرـدـكـمـ الـكـرـةـ،ـ ثـمـ طـلـبـ مـنـهـ مـعـ كـاتـبـ ثـالـثـ:ـ "...ـ فـيـ يـوـمـ ...ـ تـرـحـلـ فـيـهـ شـرـافـ إـلـىـ الـقـادـسـيـةـ فـيـمـاـ بـيـنـ عـذـيـبـ الـهـجـانـاتـ وـعـذـيـبـ الـقـوـادـسـ...ـ وـالـحـذـرـ الـحـذـرـ عـلـىـ مـاـ أـنـتـ عـلـيـهـ"ـ وـبـعـدـ أـنـ قـامـ سـعـدـ بـتـقـسـيمـ جـيـشـهـ إـلـىـ وـحدـاتـ مـعـيـنةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الصـنـوفـ التـيـ يـتـأـلـفـ مـنـهـاـ اـصـدـرـ أـمـرـ الـمـسـيرـ عـلـىـ الـوـجـهـ التـالـيـ:

المقدمة بقيادة: زهير بن عبد الله.

الميمنة بقيادة: عبد الله بن المعتم.

الميسرة بقيادة: الشاب شرحبيل بن الصمت.

المجردة بقيادة: سلمان الباهلي.

الركاب (الرئل الراكب) بقيادة: عبد الله بن ذي السهمين.

وطلب من آمر المقدمة أن يكون هدفه الأول احتلال العذيب أو (عذيب المجانات) وينظر فيها إلى حين وصول الكوكب (القسم الأكبر) إليها، أما هدف الثاني فيكون سهل القادسية وقد تم احتلال الهدف الأول الذي لم يلقوا فيه مقاومة سوى بعض المترصدین من جواسيس الأعداء الذين طاردوهم خيالة المقدمة واستطاعت اللحاق بهم قرب القادسية.

وفي المسير إلى الهدف الثاني أرسل آمر المقدمة مفرزات استطلاع في نواحي شتى منها رعيل مؤلف من ثلاثة فارسٍ بقيادة (بكير بن عبد الله) ليستطلع له أخبار العدو بأطراف الحيرة.

ولما وصل جيش سعد بن أبي وقاص إلى "العذيب" ترك الخط الثاني المؤلف من النساء وعيال الجنود فيها وأقرز حامية كبيرة لحمايتهم واستمر على تقدمه إلى أن وصل إلى سهل القادسية فعسكر في "قديس" بينما طلب من مقدمته احتلال قنطرة نهر العتيق والتعسّك حيالها، وقد شنت مفرزات كثيرة غارات (ما عدا الحصول على المعلومات واختبار الأرض والتغلب فيها) غنمو أموالاً طائلة جعلتهم في بحبوحة من العيش^(١٩).

ثانياً: تحشد الجيش الفارسي ومسيره إلى القادسية

لقد بذل رستم الجهد لجمع أعظم جيش تستطيع فارس جمعه لقتال العرب، وذلك ليس على حدود العراق فحسب بل في الجزيرة ذاتها وقد اتخذت

القيادة الفارسية العامة مدينة سباط "الصويره" مركزاً لها ولجيوشها وقد تم في خلال الأشهر الثلاثة الأولى لعام ٦٣٥هـ "تحشيد" جيش يتراوح عدده بين ١٠٠ و ١٢٠ ألف جند من صنف المشاة والخيالة والفيلة.

وفي أثناء هذا التجمع وردت الأخبار من حدود الفرات الغربية تنبئ بازدياد نشاط العرب في غاراتهم، وقد جاء في إحدى رسائل حكام المقاطعات الفارسية إلى الملك ما يلي في هذا الصدد: "إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه الحرب، وإن فعل العرب منذ نزلوها لا يبقى على شيء، وقد أخبروا ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك إلا الحصون، وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا وإن أبطؤوا عن الغياب أعطيناهم بأيدينا".

فطلب الملك من رستم أن يتولى قيادة الجيش بنفسه ليضرب العدو ضربة قاضية في القادسية ويسيّر بعد ذلك لاحتلال الجزيرة العربية ليشغل أهلها بالدفاع عنها.

إلا أن لرستم رأياً غير رأي الملك، إذ لا يريد أن يشتبك الفرس بالعرب بمعركة فاصلة إلا بعد إنهاك قواهم بحركات الإزعاج واستدرجهم لقتال رجعي إلى داخل البلاد وأن يرسل غيره من القادة في هذه المهمة حتى إذا آن الأوان ضربهم رجال فارس بقوته الاحتياطية المدخرة لهذه الغاية ضربته الكبرى.

وفي هذه الأثناء طلب الخليفة عمر من قائد في العراق سعد بن أبي وقاص بعد أن علم منه خبر استعداد الفرس وتأليف جيش كبير لقتال العرب-

أن يرسل وفداً إلى عاصمتهم، وقد جاء في كتاب الخليفة إلى سعد يوضح فيه الغرض من إرسال هذا الوفد إذ يقول: "لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به، واستعن بالله واتكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظرة والرأي يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم، واكتب إلى في كل يوم".

فتتألف الوفد من عدد كبير من رجالات الجيش البارزين كالنعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمغيرة الأسدية وعاصم بن عمرو.

سار الوفد إلى المدائن تواً على الخيول كلها صهال وعليهم المقطعات والبرد وفي أيديهم سياط دقاق، ولما علم الملك بقدومهم جمع رجالاته في البلاط وطلب حضور الوفد وقد افتح الملك الحديث كما يلي: ما جاء بكم وما دعاكما إلى غزونا والولوج ببلادنا؟ أمن أجل أنا جمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فأجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن يشرح له رسالة محمد وما جاء به لخير الناس إلى أن قال: "... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه، الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلقنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وببلادكم! وإن تقitemونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم. فأجابه الملك: إن لا علم في الأرض أمة كانت أشقي ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين

منكم، قد كنا نوكِل بكم قری الضواحي فيكتوفونناكم، لا تغزون فارس ولا تطمدون
أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا
لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجودكم وكسوناكم وملكونا عليكم ملكاً يرفق بكم^(٢٠).

فأجابه المغيرة الأسدية:

أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحiron من
الأشراف وأن يكرم الأشراف الأشراف ... وليس كل ما أرسلوه جمعوه لك ولا
كل ما تكلمت به أجابوك عليه ... فأما ما ذكرت من سوء الحال فما هي ظهر
الأرض ولا نليس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وشعار الغنم، ديننا يقتل بعضنا
بعضًا ويغير بعضنا على بعض، فكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث
الله إلينا رجلاً معروفاً ... وقال لنا من تابعكم على هذا (يشير إلى القرآن) فله ما
لكم وعليه ما عليكم، ومن أبي فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمتعون منه
أنفسكم ومن أبي فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ... فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت
صاغر وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتتجي نفسك.

فرد عليك الملك:

لولا أن الرسل لا تقتل لقتلكم، لا شيء لكم عندي! ثم التفت إلى حاشيته
قائلاً أتوني بوقر من تراب واحملوه على أشرف هؤلاء: ثم سرقوه حتى يخرج
من باب المدائن، ثم وجه كلامه إلى الوفد العربي: "ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه

أني مرسل إليكم رستم حتى يدفونكم ويدفعه في خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور".

وبعد أن حمل التراب عاصم بن عمرو خرجوا إلى خيلهم فركبواها والتراب معهم إلى أن وصلوا إلى مقر جيشهم يبشرون إخوانهم بالفال الحسن من أرض العراق ستكون لهم إن شاء الله!.

لم يكتم الملك يزدجرد إعجابه بالوفد العربي فقال لرستم الذي أتاه يستفسر منه عما جرى في المفاوضات (ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتم دخلوا عليّ، وما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جواباً منهم، لقد حذقني القوم، لقد وعد القوم أمراً لم يدركنه أو ليموتن عليه)^(٢١).

ولما علم رستم بما فعله الملك تشاءم وأرسل في طلب الوفد العربي ليأخذوا منهم التراب قبل أن يخرجوا من أرض العراق، فلم يستطعوا اللحاق بهم.

وبعد مرور شهرين من تجمع رستم في سباط قرر بتأثير ضغط الملك وإلحاحه أن يتقدم لقتال العرب وهو مكره، وكانت خطته تقضي بإرسال مقدمة سوقية كبرى تتالف من ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة الجالينوس وطلب من هذا القائد أن يتقدم عن طريق سباط - كوثي - النجف القادسية وحذر من الدخول في معركة حاسمة مع العرب، بل عليه كما قال رستم "أن يزحف زحفاً وأن لا ينجذب إلى المعركة إلا بأمر منه".

وحاول رستم أن يقنع الملك لآخر مرة ببقاءه مع جيشه في المدائن وينتظر ما يقوم به الجالينوس الذي له شهرة وساعة لا تقل عن شهرته، فأبى الملك عليه ذلك وطلب الدخول بمعركة حاسمة سريعة لتقرير المصير، فلم ير بدأ من أن يتقدم ببقية جيشه البالغ عدده ٦٠٠٠٠ مقاتل و٣٥ فيلاً ووجهته كوثي - بابل - بوبيا (ابراهيم الخليل) - الحيرة، وقد ترك مؤخرة لجيشه تقدر بـ ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة الفيرزان.

كان تقدم جيش رستم بطيناً جداً فقد بقي في طريقه الذي لم يكن يتجاوز مائة وسبعين كيلومتراً نحو من شهرين قبل وصوله لساحة المعركة ونراه في خلال هذه المدة تتنبه الهواجس من كل جانب، فقد كتب إلى أخيه في مارس يطلب إليه أن يستعد مع الزعماء الآخرين للدفاع عن بلادهم إذ أنه يرى: "أن هؤلاء القوم سيظهرون علينا وسيتولون ما يلينا" ثم يشكو له إجراء الملك على توليته القيادة العامة وهو مكره^(٢٢).

بعدها تقدم جيش رستم حيال العرب وعباً جيشه البالغ ١٢٠ ألفاً إلى شرقي نهر العتيق واضعاً قسماً منه في جناحه الأيمن ومعه ثمانية فيلة وقسماً منه في الجناح الأيسر ومعه سبعة فيلة أما كوكب قوته (قسمها الأكبر) فوضعه في القلب ومع ثمانية عشر فيلاً ونصب رستم مقره الفخم خلف القلب.

بينما اتخذ العرب مراكزهم إلى غربي نهر العتيق ومن خلفهم (الخندق) - خندق سابور - وكانت المقدمة تحتل القنطرة وهي الجسر المشيد على نهر العتيق وعن يسارها ويمينها قوات الخيالة تحمي أجنحة الجيش العربي الذي

يستند إلى اليمين إلى مياه الفيضان من الجنوب وإلى الصحراء القاحلة من الشمال وفي مركز الجيش إلى الوراء، القصر أو قلعة قديس القديمة (في السهل الذي يسمى الآن الرحبة) وقد اتخذ سعد بن أبي وقاص مقرًا لقيادة الجيش وقبل أن تتناول تفاصيل المعركة باختصار المفاوضات التي جرت بين رستم قائد الجيش الفارسي من جهة، والوفود العربية المختلفة من جهة أخرى، تلك المفاوضات التي تبين لنا بوضوح أهداف الأمتين والحالة النفسية لكلا الفريقين وما كاد رستم ينتهي من حشد جيشه في القادسية حتى أرسل إلى قائد مقدمة المسلمين يطلب إليه مفاوضته فلبى هذا طلبه ففاوضه رستم على شروط الصلح مقنعًا إياه بتحسين شؤون العرب المادية وترفيع حالهم وتسهيل تجارتهم فرد عليه القائد العربي بأن ما تقنعوا به قد فات أوانه، وأن حال العرب قبل الإسلام هو على طرفي نقيض من حالهم الآن، إنهم ما خرجنوا من جزيرتهم إلا لتحرير الأمم من العبودية أو على حد تعبيره: "إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ولما سأله رستم هل إذا دان الفرس بدين العرب ترجعون؟ فأجابه: "أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة في أو حاجة فصدقه رستم على قوله! وقد تركت المفاوضات الأولى في نفس رستم أثراً بالغاً يدلنا على ذلك المؤتمر الذي عقده بعد مفاوضة رجال جيشه وقد تحداهم إلى وجوب وضع حد لهذه الحرب الشعواء التي لا يعلم أحد نتائجها الخطيرة^(٢٣).

ولقد طلب رستم إجراء مفاوضات أخرى مع العرب وقد لبوا طلبه لأن كلا الفريقين كان يرمي في مفاوضاته إلى ما فيه مصلحته فرستم يتroxى منها تأجيل المعركة الفاصلة لإطالة الوقت على العرب أملاً منه بضجرهم من طول الانتظار وأمل رحيلهم من حيث أتوا بينما كان العرب يتroxون من مفاوضاتهم هذه كسب الوقت بضعة أيام إلى أن تصل إليهم النجدات التي أرسلها أبو عبيدة ابن الجراح من دار الحركات السورية بعد انتصار العرب على الروم في معركة السيرموك من جهة والإضعاف الروح المعنوية في رجال الفرس من جهة أخرى ففي المفاوضات الثانية وكان يمثل العرب فيها ربعي بن عامر نرى رستم سأله: هل لكم أن تؤخرروا هذا الأمر (ويقصد به شروط المسلمين) حتى ننظر فيه وتنظروا؟ فأجابه ربعي: نعم كم أحب إليك؟ أيام أم يومين؟ لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤسائ قومنا فأجابه ربعي: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وما عمل به أئمننا أن لا نتمكن الأعداء من أذانا ولا نوجهم عند اللقاء أكثر من ثلاثة أيام) فنحن مرتدون عنكم ثلاثة فانظر في أمرك وأمرهم وأختر واحداً من ثلاثة بعد الأجل (يقصد إما الدخول في الإسلام وإما الجزية وإما القتال)، فأجابه رستم: أسيد أنت: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجبر أذنابهم على أعلاهم! وعلى هذه الصورة انتهت المفاوضات الثانية، وقد أرسل رستم على إثرها يطلب إلى سعد أن يرسل إليه رجلاً له عقل ورأي ليفاوضهم، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وقد انتهت المفاوضات في هذه المرة بغضب رستم الذي قال للمغيرة: "وحق الشمس، لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين" (٢٤).

ثالثاً: المعركة (*)

بدأت معركة القادسية في منتصف يوم (الاثنين) الأول من شهر محرم سنة ١٥٥ - ٦٣٦، حيث تم عبور جيش رستم نهر العتيق واتخذ الجيشان موقعهما بين الخندق والعتيق، وقد استعد العرب للقتال منذ الصباح فجمع سعد بن أبي وقاص رؤساء الكتائب وأمراء القبائل في مقره (وكان لا يستطيع الجلوس أو الركوب لظهور الدمامل فيه) فأوضح إليهم خطورة الموقف الذي هم فيه وأنهم اليوم أمام معركة فاصلة في تاريخ العرب والإسلام، وعليها يتوقف مصيرهم فإذا أن يقيعوا في جزيرتهم الفاحلة وإما أن ينسابوا في الأرض التي وعد الله بها عباده الصالحين، وطلب إليهم أن يشجعوا جنودهم ويحثوهم على القتال حثاً يغلي به دم القلوب وتتوتر له الأعصاب ويونغر الصدور ويهدون الموت وطلب إليهم أن يبدوا بالزحف الهام بعد صلاة الظهر توأً عندما يسمعون صوت التكبير الثالثة.

تقدمت صفوف العرب المتقدمة جمِيعاً للهجوم وكان الفرس في تعبئة القتال ينتظرون أعداءهم فتلاقت الصفوف واشتبك الفريقان بقتال شديد، وقد مثلت فيلة الفرس في هذا اليوم دوراً خطيراً إذا استطاع أصحابها من توجيهها إلى الخطوط الأمامية فأفرزت خيول العرب التي لم تتعود رؤيتها ونكصت راجعة وكان بنو أسد (أهل الردة السابقون) يقومون بنصيب وافر من تحمل عباء المعركة وقد تلافي سعد بن أبي وقاص الموقف بأن طلب من كتيبة بن تميم

هجوم الفيلة برميهها بالنبل وقطع وضنها وقد فعلوا ذلك وردوها على أعقابها عن بنى أسد الذين حافظوا على مراكزهم إلى الليل برغم الخسائر التي منيوا بها وكانت ٥٠٠ قتيل(٢٥).

سمى اليوم الأول يوم أرماث وانتهى في الشطر الأول من الليل وكانت كفة الفرس راجحة كما كانت خسائرهم أقل من خسائر العرب.

وفي اليوم الثاني من المعركة (يوم أغوات) قامت جماعات نقل القتلى العرب في صباح اليوم التالي باكراً بإخلاء القتلى من الميدان ودفهم بين وادي العذيب وعين شمس، بينما قام حاملو النقالات بنقل الجرحى إلى العذيب لتقوم النساء بتمريضهم ومداوتهم، وفي الوقت الذي استعد الجيش ليقوم بالقتال طلعت نواصي خيل الإسلام قادمة من الشام وكانت مقدمة جيش النجدة الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح من سوريا وعده ستة آلاف مقاتل.

وكان على المقدمة البطل المقدام القعقاع بن عمرو الذي مثل في قتال هذا اليوم الدور الأول فيما عدا مناورته التي قام بها ليخدع أعداءه بأنه أتى بجيش عظيم وذلك بأن قسم مقدمته التي كانت ألف فارس إلى أرتال صغيرة بفرجات كبيرة وفي الوقت عينه قوى معنويات جيش العراق التي تأثرت بنتيجة معركة الأمس باشتراكه في القتال فور وصوله إذ قام بجولات موفقة قتل فيها (بهمن - جازوية) القائد الفارسي الذي انتصر في معركة الجسر، وكان قتال اليوم على العموم بجانب العرب، ولا سيما فيما يتعلق بالفيلة التي تكسرت صناديقها في معركة اليوم السابق ولم تشارك في القتال.

ومما يجدر ذكره هو أن العرب حملوا عشرة من الرجال على إبل أبسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها في حملتها على خيول الفرس متشبعين بالفيلة وقد نجحت عمليتهم إذ انهزمت خيول الفرس في القلب فطاردها الفرسان العرب وهم يفكرون بالمنهزمين إلى أن صدتهم المشاة، هذا وقد استمر قتال ذلك اليوم حتى منتصف الليل وتوقف القتال وكفة العرب هي الراجحة وبلغت خسائرهم في هذا اليوم بين قتيل وجريح ٢٠٠٠ بينما خسائر الفرس ١٠٠٠ بين قتيل وجريح.

وفي اليوم الثالث من المعركة (يوم غماس) استبشر العرب عندما طلع عليهم صباح هذا اليوم الكوكب (القسم الأكبر) من قوة النجدة المرسلة إليهم من الشام واستمروا على القتال الذي توقف عند منتصف الليلة السابقة بنشاط عظيم حيث دخل المعركة خمسة آلاف جندي جديد إلا أن فعل الفيلة كان شديداً على العرب كما كان في اليوم الأول من المعركة، وعلى هذا فقد طلب قائد العرب سعد بن أبي وقاص من الفرسان الذين يعتمد عليهم كالدقعاع وعاصم بن عمر أن يخلاصوا المسلمين من شدة وطأتها بأن يحاولوا فقاً عيونهم وقص مشافرها بالسيوف فقاموا بواجبهم خير قيام إذ اختاروا منها الفيلة المتقدمة التي كانت في القلب فحملوا على مشافرها بالسيوف فولت هاربة عبر العتيق واتبعتها الفيلة الأخرى وانفسح المجال للمشاركة العرب على التقدم في القلب بينما كانت الخيالة تحمي أجنحتها، وكان الموقت على هذه الحالة إلى الليل عندما قام القعقاع بكثيبته

بهجوم ليلي شديد على مراكز الفرس المتضعضعة وعقبته الكتائب الأخرى فاختلط الجيشان واختل توازن المعركة إلى درجة أن الجيشين لم يريا مثل هذا القتال قط، وانقطعت أخبار القتال عن رستم وسعد والكل ينظر الصبح بفارغ الصبر ليعرفوا نتيجة هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الأمتين^(٢٦).

وفي اليوم الرابع للمعركة (يوم القادسية) ومن حسن حظ العرب أن تكون نتائج قتال الليلة الثالثة أو ليلة الهرير بجانبهم كما كان من حسن حظهم أن يكون معهم القعاع بن عمر الذي قال فيه أبو بكر: "لا يهزم جيش فيهم مثل هذا" فقد سيطر القعاع على الموقف وطلب في صباح اليوم الرابع للمعركة الاستمرار على الهجوم ساعة أخرى فإنها ساعة النصر النهائي.

واستمر زخم الهجوم حتى الظهر إذ بدأت تظهر دلائل خور العزيمة من نفوس الأعداء، وفي تلك اللحظات العصيبة تهب ريح غريبة تقلع مقر قيادة الفرس وتضعف من مقاومتها في الوقت الذي استطاعت فيه كتائب العرب المركبة من التوغل في قلب العدو المترافق، وقد أسرع القعاع ومعه فصيلة من جنوده الشجعان إلى مقر قيادتهم يفتشون عن رستم الذي اختبأ بين حيوانات المقر فسارع (هلال علفة) بضربيه بسيفه فأخطأه وألقى رستم نفسه في العنق ولحق به هلال الذي أخذ برجله وأخرجه من النهر وقتلته ثم نادى: "قتلت رستم ورب الکعبه".

ولم يك ينتشر هذا الخبر ويعلم الفرس بموت قائدتهم وأن المسلمين غنموا رايتهم التاريخية "درقش كافيان" حتى تراجعوا والعرب من ورائهم تطاردهم،

ومما يجدر ذكره هو أن الجالينوس أحد قادة الفرس المشهورين قام ومعه بضع كتاب تحمي الانسحاب عبر العتيق إلا أن معظم جنود هذه الكتائب لقوا حتفهم، وقتل من الفرس في الليلة الرابعة وفي نهارها ٣٠٠٠ مقاتل بينما خسر العرب ٨٥٠٠ بين قتيل وجريح.

ولما تم انسحاب الفرس إلى شرق العتيق أمر سعد أمير المقدمات زهرة بأن يطاردهم من الخلف في الوقت الذي أمر القعقاع بأن يطاردهم من جهة اليمين وشرحبيل من جهة اليسار.

ومع أن مؤخرات الفرس كانت تقاوم المطاردة بشدة بقت مياه الفرات لغمر الأرضي التي اجتازوها فقد استمر العرب على تعقبهم عصر اليوم الرابع مسافة كبيرة أوصلواهم فيها إلى مكان قريب من النجف، وعندها عادوا إلى الفادسية ظهر اليوم الخامس، وقد قُتل في أثناء المطاردة (الجالينوس) الذي كان يحمي الانسحاب.

ولم تكن مطاردة العرب في الحقيقة مطاردة جدية لأن المعركة التي دامت أربعة أيام بلياليها أنهكت قواهم إنهاكاً لم يعانون مثله في ماضي حروبهم، ولم تكن لهم الطاقة ليتحملوا أعباء معارك جديدة وتتوغل في بلاد يلقون فيها مقاومة مستمرة، إنهم ضحوا بثلث قوتهم بينما كان الثنان الآخران في أشد الحاجة إلى الراحة.

ولقد كان مجموع خسائر الفُرس بمعركة القادسية بلغت حوالي ٥٠٠٠٠ مقاتل بينما بلغت خسائر العرب بين قتيل وجريح حوالي ١١٥٠٠ مقاتل وقد خسر الفرس ذخائر وأموال لا تحصى فأغنت كل فرد من أفراد الجيش الذي اشترك في المعركة^(٢٧).

أحداث ما بعد القادسية:

لم يستطع الجيش العربي المنتصر الذي حطم القوة الضاربة لجيش الإمبراطورية الساسانية مطاردة فلول ذلك الجيش مطاردة حقيقة بعد كسبه المعركة.

لقد فقد الجيش العربي ثلث قواته، بينما كان الثناء الآخران في أمس الحاجة إلى الراحة والاستجمام وإعادة التنظيم بعد معركة دامت أربعة أيام، جرى القتال الأخير فيها أكثر من ثلاثين ساعة متواصلة، فضلاً عن ضرورة إخلاء الجرحى من الميدان، وجمع أسلاب الحرب وتوزيعها على الجنود المنتصرين.

مع كل ذلك فسعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية أمر بعد راحة قصيرة أن تقوم عدة مفارز بتطهير المنطقة الواقعة إلى غرب الفرات من فلول الجيش الفارسي المغلوب وقد نفذت خطته بدقة، وكانت أمام سعد بن أبي وقاص مشكلة هجرة السكان وتركهم أرضهم بسبب الحركات الحربية وخوفهم من تكيل الجيش الفاتح بهم لأنضمائهم إلى جانب الفرس كرهًا عنهم، ولأن الإسلام يأمر بقتل المشركين إن لم يسلموا ولم يدفعوا الجزية، ويأمر بقتل من نقضوا عهودهم

مع العرب في حين أنهم يدعون أن الفرس أكر هوهم عليه، وهذه كلها أمور تتجاوز صلاحيات قائد الفتح، ولابد من استشارة الخليفة في الأمر وتلقى أوامر صريحة لحل هذه المشاكل الأساسية وحتى الخليفة عمر لم يتخذ قراراً حاسماً في الموقف قبل أن يستشير قادة الإسلام في المدينة، فكتب إلى سعد كتابين نورد نصهما لما احتوياه من آراء جريئة وبعيدة المرمى في إدارة الشعوب وسياساتها، تلك الآراء التي قال فيها الكاتب الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبيون كلمته المشهورة: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب".

الكتاب الأول:

"أما بعد، فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرضى منه إلا بالكثير، وأما الثاني العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا لبعيد ولا في شدة ولا في رخاء، وإن رؤي إلينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأعمق للباطل من الجور وأن رؤى شديدة فهو أنكش للكفر، فمن تم على عهده من أهل السواد (العراق) ولم يعن عليكم بشيء فله النمرة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه استكره من لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوا بهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاوروا فانبذ إليهم وأبلغهم مأمنهم".

الكتاب الثاني:

"أما عن من أقام ولم يجل وليس لهم عهداً فلهم ما لا لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم، وكذلك الفلاحون إذا ذلك، وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة، وإن كذبوا نبذ إليهم. وأما من أuan وجلا فذلك أمرٌ جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم أن يقيموا لكم من أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، وإن كرهوها ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم".^(٢٨)

التقدم نحو شاطئ دجلة الغربي:

وبقصد العمليات الحربية أمر الخليفة سعداً بأن يتقدم لاحتلال المدائن عاصمة الدولة الساسانية على أن يترك النساء والعيال بالعتيق على جانب الفرات الغربي بعد أن يضمن حمايتهم بمفرزة قوية، وكانت فلوغ الجيش الفارسي قد اجتمعت في بابل وأصر قادة الجيش الباقيون على قيد الحياة كالنخيرجان ومهران الراري والهرمزان وعلى رأسهم الفيرزان أن يقاتلوا العرب فيها بمعركة نهائية ينقرقون بعدها إذا كتب لهم الفشل، كل إلى جهة معينة، وقد وضعوا حاميائهم في كل من اللسان -مدينة الكوفة حالياً- وبرسيبة.

سار الجيش العربي وكل أفراده فرسان مسلحون مرفهون، مقدمة سوقية بقيادة زهرة بن الحوية إلى اللسان فلم تلق فيها مقاومة من حاميها التي انسحبت إلى برسيبة دون قتال.

ولما وصل القسم الأكبر إلى اللسان تقدمت المقدمة إلى برسبيا، وبعد قتال طفيف مع حاميتها تلتها وانسحبت الحامية الفارسية إلى بابل، وبقي حاكم المقاطعة الفارسي في برسبيا بعد أن قبل تأدية الجزية، وقدم هذا الحاكم الفارسي مساعدة قيمة للعرب فنصب الجسور لعبور جيشه صوب بابل، وأعطاهم معلومات ثمينة عن الجيش الفارسي المحتشد في بابل.

أخبر آمر المقدمة سعداً بتفاصيل الأمر وانتظر أوامر قائده، فقرر سعد الاستمرار على التقدم إلى برس ومقاتلة الفرس حتى بابل.

وفي بابل معركة سريعة خاطفة انتهت بنصر مبين للعرب فلا عجب فرروح النصر التي كان يقابل بها الجندي العربي لم تتوفر في الجندي الفارسي الذي كان قادته يفكرون في طرق الهزيمة إلى داخلية البلاد، لا بل وفرَّ الهرمزان من ميدان المعركة إلى الأهواز كما فرَّ النخيرجان إلى بهر سير ومنها عبر إلى المدائن.

أما كبير القادة (الفيرزان) فقد فرَّ إلى نهاؤن حيث فيها كنوز الملك فاستولى عليها.

تحرير كوثي وسباط:

ونقدم الجيش العربي بعد تحريره مدينة بابل إلى كوثي، فاحتلها بعد قتال طفيف، زار سعد بيت إبراهيم الخليل في المدينة ثم تقدم الجيش إلى سباط فاحتلها وعقد الصلح مع أهلها توجه بعدها إلى بهر سير (المدينة الدنيا) واسمها

القديم سلوقية، وفي موقع يسمى (المظالم) الواقع على الطريق بهرسير التقت مقدمة الجيش العربي بكتيبة الحرس الملكي الفارسية وتسمى (كتيبة بوران) وكانت قد اتخذت موضعًا دفاعياً أمامياً لحماية بهرسير فهزتها بعد قتال عنيف.

حصار بهرسير (المدائن الدنيا) وسقوطها:

لم يكن أمام الجيش العربي غير المدائن فتقدم إليها مسرعاً، وكان الفرس قد أقاموا في المدينة الشرقية المقابلة للمدائن خط دفاع قوي فحصنت على شكل نصف دائرة تستند فيها التحصينات من الشمال والجنوب على نهر دجلة، ويرابط فيها جيش فارسي قوي.

ولم يكن الجيش العربي مستعداً لاختراع هذا النوع من الدفاعات الحصينة فاضطر إلى محاصرة المدينة شهرين كاملين وفرض عليها حصاراً اقتصادياً اضطر فيها المحاصرون على أكل الكلاب والسنانير، واستعان الجيش العربي بأهل البلاد فصنعوا لهم عشرين منجيناً وعدها من العربات والدبابات أخذوا يرمون بها الحصون.

وعرض الملك يزدجرد خلال الحصار الصلح على العرب فاقتصر أن يجلو جيشه عن بهرسير (المدائن العليا) وأن تكون البلاد الواقعة غربي دجلة إلى العرب، ويحتفظ الفرس بالبلاد الواقعة شرقي نهر دجلة، وأن يكون النهر حداً فاصلاً بين الدولتين، ورفض سعد بن أبي وقاص هذا العرض فوراً مؤكداً أن ليس هناك من حل سوى الخيار بين ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب. وكان

واضحاً أن قبول واحد من هذه الشروط لا يحول دون دخول الجيش العربي البلاد.

وكان العرب في خلال الحصار يخضعون القرى والدساكير الواقعة غربي نهر دجلة ويوطدون حكمهم فيها، وقام سلمان الفارسي الذي كان رائد الجيش الإسلامي بدور خطير في تثبيط هم المحاصرين التي كان يبئها من وراء الحصون.

وفي أواخر شهري الحصار قام الجيش الفارسي بمحاولة يائسة للخروج من الحصار فشن هجوماً مقبلاً عنيفاً على العرب المرابطين حول المدينة، إلا أن هجومهم أحبط فعادوا أدراجهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة.

تحرير المداين:

(صفر سنة ١٦هـ / نيسان "ايريل" سنة ٦٣٨م) وقف آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية - الملك الشاب يزدجرد منذ توليه العرش سنة ٦٣٢ موقف المدافع المستميت بوجه الفتح العربي للبقاء على ملكه في العراق، ويحدثنا التاريخ بأنه كان رجلاً شجاعاً ذا عزيمة قوية، وحاول عبثاً الوقف بمفرده بوجه التحول الجديد، فلقد خانه قادة جيشه المتذبذلون فارين إلى داخل البلاد الفارسية، ولم يجد في شعبه أي حافز للقتال، ولم يقف إلى جانبه حلفاء الأمس من سكان البلاد الأصليين الذين سخروا لمنفعة حكامهم القساة المستبدین،

ولم يبق لديه غير جيش محترف كثير في عدده وقوى في عدته تنقصه روح القتال.

وإذاء هذه الحقائق قرر إخلاء العاصمة والانسحاب إلى داخل البلاد ليتخذ من المناطق الجبلية الوعرة على حدود العرب وحدود فارس خط الدفاع ليحول دون زحف موجة الفتح العربي، وأرسل فعلاً خزانه وأسرته إلى حلوان قريباً من قصر شيرين الحالية.

ولما سقطت المدائن الغربية (بهرسir) ترك الملك عاصمته وذهب إلى حلوان بعد أن ترك حامية عسكرية لتعويض العرب ولصدهم إذا حاولوا عبور دجلة.

عبور دجلة:

علم قائد الجيش العربي أن الملك يزدجرد بدأ يخلي العاصمة، وذلك يعني تهريب كل نفائس الإمبراطورية التي حكمت الشرق الأوسط عدة قرون، وكان فيضان دجلة في بدايته، وعلى استمرار في الصعود طيلة شهرین قادمين، ولا سبيل للمدائن وهي هدفه الأخير الذي عينه له الخليفة، سوى عبور النهر سباحة، وكان قراره خطيراً يتطلب موافقة قادة جيشه وجنه عليه، فجمعهم وألقى بهم الخطاب التالي: "إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فينا وشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تأتوا منه فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأمنوا ذواتهم، وقد رأيت

من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحركم الدين إلا أنني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم".

وافقه القادة على رأيه وأقرروا خطته القضية بتأسيس رأس جسر على الضفة الشرقية يقوم بعملياتها عاصم بن عمرو وبكتيبة الأهوال المؤلفة من ستمائة فارس، على أن تسبقها سرية من الفدائين عبرت النهر، وتغلبت على فصيلة من الجيش الفارسي حاولت إحباط العبور وتم تأسيس رأس الجسر بجهد ضئيل، وعندها عبرت كتيبة الأهوال النهر بقيادة عاصم بن عمرو وأعقبتها كتيبة الفرسان بقيادة البطل القعقاع بن عمرو، فالقسم الأكبر بقيادة سعد بن أبي وقاص الذي اقترن بسلمان الفارسي بسايره في السباحة!.

وهكذا بوغرت المدائن بعد ثلاثة أيام فقط من سقوط المدائن الغربية - مbagatة لم تكن تتمنى أن تتم بهذا الشكل وبهذه السرعة، وباتت فكرة مقاومة الفاتحين مستحيلة، فسلمت العاصمة دون قتال ووقف السكان يتطلعون إلى تلك المسرحية العجيبة في التاريخ يتضامنون: جاء الشياطين!.

وسمي ذلك اليوم يوم الماء، وسماه آخرون: يوم الجرثيم! لا يعي جندي إلا أنسنت له جرثومة يريح عليها(*).

دخول العاصمة:

تم عبور النهر من ضاحية العاصمة الجنوبية العربية، ودخل الجيش الظافر المدائن تقدمة كتيبة الأهوال وعلى رأسها قائدتها الشجاع عاصم بن

عمرو، وأعقبتها كتيبة الفرسان وعلى رأسها القعاع بن عمرو فالقسم الأكبر على رأسه سعد بن أبي وقاص، وسار الجيش بمظاورة من شوارع العاصمة إلى أن وصل الكوكب (القسم الأكبر) القصر الأبيض - دار الملك^(٣٩).

وعلى باب القصر الأبيض وقف سعد بن أبي وقاص قائد الجيش المنتصر خال رسول الله يقرأ الآية الكريمة: ﴿كُمْ تَرْكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْنَٰنِ ۖ وَنَذْرُؤُونَ ۖ وَمَقَامٌ كَرِيمٌ ۖ وَسَعْيٌ كَافُوا فِيهَا فَأَكْفَنَ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا أَخْرِينَ﴾^(٤٠). ثم دخل القصر وصل إلى جيشه صلاة الفتح وسط التمايل المتاثرة في باحاته، وكانت أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك في صفر سنة ست عشر^(٤١).

ولم يتمالك سلمان الفارسي نفسه فقال في حشد من الناس: "ذلت لهم والله البحور كما ذلت لهم البر ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً، فطبقوا الماء حتى ما يرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حدثياً منهم في البر، ولو كانوا فيه فخرجوه ولم يفقده شيئاً ولم يغرق منهم أحد" وبدأ سعد بتبثيت مركز جيشه في العاصمة فأرسل زهرة وهو قائد المقدمات باتجاه النهروان يؤلف خط ستار لحماية العاصمة، وطلب منه في نفس الوقت أن يرسل مفرزات المطاردة والاستطلاع في النواحي الشمالية والشرقية المحيطة بالعاصمة على أن تكون على اتصال بالقوات الفارسية المرابطة في أطراف النهروان بقيادة مهران.

الفتائم:

لقد كان عدد الجيش العربي الفاتح ستين ألف مقاتل، بما فيهم أولئك الذين بقوا لحماية القاعدة في الفرات، وقد أصاب كل فرد من هذا الجيش اثنا عشر ألف درهم ما عدا الخمس الذي أرسل إلى بيت المال، فيكون مجموع النقود التي وجدت في الخزانة تسعين مليون درهم على أقل تقدير.

ولم يكن لهذا المال شأن يذكر إزاء ما غنمته العرب من التحف الفنية والمجوهرات والأواني الذهبية والفضية ومن أسلحة وملابس وديباج مما لا يحصى ولا يقدر بثمن على الإطلاق ولم تشهد مثله العرب في تاريخهم.

وأرسل سعد إلى الخليفة عمر ما عدا الخمس المخصص لبيت المال بعض التحف الفنية العجيبة كبساط الملك الذي أبدع المؤرخون في وصفه، وعجزوا عن تقدير ثمنه، وكذلك أرسل تاج الملك وحليه وسيفه وثيابه وتحفًا أخرى عجيبة، ولما رأها الخليفة عمر قال: "إن قوماً أدوا هذا لذروا أمانة". فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً: "عفت فعفت الرعية!"^(٣٢).

القتال في ثلاثة جبهات لتحرير الأراضي العراقية:

موقف الفرس بعد تحرير المدائن:

لم يبق الملك الذي فقد عاصمة ملكه، ولا لقادة الإمبراطورية الذين شتتوا في داخل بلادهم من أمل بعد هزيمة القادسية سوى سلاح اليأس يقاتلون

بـه الفاتحين القادمين على غزو بلادهم في عقر دارهم، وكان يعز على الملك يزدجرد الثالث أن يتم انهيار الإمبراطور على يديه فعمل المستحيل لإعادة تنظيم ما تبقى من جيشه، وأخذ يبحث في نفوس أبناء قومه روح المقاومة في المناطق الجبلية القريبة من سهل العراق حيث اتخذ من حاضرتها حلوان مقراً له.

وقام قادة الفرس في كل مكان من بلادهم بتجنيد مواطنיהם وإعادة تنظيم جيوشهم للدفاع عن وطنهم بعد أن سروا معركة العراق أو كانوا يخسرونها.

واستطاع الفرس بفترة وجيزة أن يحشدوا ثلاثة جيوش في وسط الجبهة قريباً من العاصمة، وفي أقصى الجنوب إزاء البصرة وفي أقصى شمالي العراق حيث كانوا لا يزالون يسيطرون على منطقة الموصل.

ففي الجبهة الوسطى حيث تدور معركة تقدير المصير استطاع مهران الرازي جمع جيش يربو على مائة ألف جندي حشده في جلواء على مشارف المنطقة الجبلية لحررين وقره غان ودراويشة.

وفي الجبهة الجنوبية ألف الهرمزان جيشاً قوياً حشده على مشارف شط العرب مقابل البصرة، والهرمزان هو أحد قادة الجيش الذي فرَّ من معركة بابل وعاد إلى بلاده الأهواز بوصفه أميراً من أمرائها.

وقام حاكم الموصل الفارسي بتأليف جيش مختلف من الحاميات الفارسية والرومانية ومن القبائل العربية من إياد وتغلب والنمر، وزحف به إلى تكريت لمقاتلة العرب فيها، ليخفف الضغط عن الجبهة الشرقية الوسطى التي تدور فيها

المعارك الحاسمة في الوقت الذي تحصنت فيه الحاميات الفارسية المرابطة على ضفاف القسم الشمالي الغربي لنهر الفرات لصد أي هجوم عربي عليها.

موقف الجيش العربي:

لم يقم الجيش العربي بعد احتلال المدائن بحركات عسكرية جديدة إذ كان لابد من إعادة تنظيم الجيش وإعطائه فرصة الراحة ولابد من تنظيم إدارة العراق الغني، وتشغيل جهازه الزراعي الذي تأثر بالحرب التي دامت أربع سنوات متواصلة.

وكانت القيادة العربية العامة بنفس الوقت مدركة للموقف العسكري ولمدة بخطط أعدائها، وقدرت كذلك أن المعركة الفاصلة بينها وبين الفرس ستكون في الجبهة الوسطى حيث بدرت بوادر الفعاليات التي كان يبذلها الملك طريد على الحدود فقررت على ضوء هذا الموقف تصفيية الجيوب الضعيفة قبل أن تدخل معركة مصرية أخرى مع الجيوش الرئيسية للأعداء.

الجبهة الشمالية:

أ. معركة تكريت:

تنفيذاً لأوامر الخليفة عمر رض إلى سعد بن أبي وقاص في المدائن تم تأليف قوة ضاربة من خمسة آلاف مقابل بقيادة عبد الله بن المعتم وتضم خمسة

آخرين من القادة وهم: ربعي العنزي ويقود المقدمة، والمحارب بن حسان الذهلي للميمنة، وفرات بن لحيان للمسيرة، وهانئ بن قيس على الساقية (المؤخرة)، وعرفجة ابن هرثمة لقيادة الفرسان.

أمرت القوة أن تسير إلى تكريت بمحاذاة نهر دجلة فقطعت المسافة بين المدائن وتكريت بأربعة أيام، وفي تكريت شوهد جيش العدو المختلط المؤلف من الفرس والعرب وبعض الجنود الرومان قد تحصن في المدينة، متخدًا خطة الدفاع المستكين ومتخفيًا وراء الحصون، راضياً بالحصار الذي فرضه عليه قادته في حين أن الغرض منه هو مبادأة العرب بالهجوم ليحققوا الهدف المنشود الذي كان يتواهه الملك يزدجرد.

حاصر الجيش العربي حاكم الموصل البيزنطي في تكريت أربعين يوماً جرت خلالها مناورات بسيطة، وعندما اشتدت وطأة الحصار قرر الجنود البيزنطيون الانسحاب من المدينة فتأثر بذلك الجنود العرب من قبائل إiad وتغلب والنمر الذين كانوا في صفوف الأعداء، فاتفق زعماؤهم على مفاوضة العرب بالدخول في الإسلام، واتفق معهم في الوقت ذاته على الاشتراك مع جيشه للقضاء على الجيش الفارسي - البيزنطي المختلط فرسموا لذلك خطة سرية كان نصيبهم منها أن يسدوا بوجه الأعداء طريق الانسحاب من ناحية النهر في الوقت الذي يهاجم فيه جيش عبد الله بن المعتم من ناحية البر، واتفقوا على وقت وإشارة الهجوم، وقد نفذت الخطة بدقة وبنجاح كبيرين فاستطاع الجيش العربي

الإسلامي اقتحام خطوط الدفاع الجنوبية الغربية ليلاً في الوقت الذي بوغت فيه العدو وبجنود العرب من الخلف فارتباك أيماء ارتباك وقضى عليه القضاء المبرم. وبعد هذا النصر أرسل عبد الله بن المعتم مفرزة من جيشه معززة بأفراد القبائل العربية التي أسلمت وانضمت إليه في مكان يدعى الحصتين وبه حاميات فارسية فاستطاعت تلك المفرزة إخضاعها^(٣٣).

بـ. تطهير غربى الفرات:

كان خط الحدود بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية يمر من شمالى غربى الفرات ما بين القائم والوكمال، فقطع الفرات وتقع الجزيرة ضمن حدود الدولة البيزنطية، وكان بلدة قرقيسيا والفرضان هيت مراكز عسكرية لقطاعات الحدود البيزنطية والفارسية.

ولما رأى العرب المسلمين أن جموع أهل الجزيرة قد أمدوا هرقل بجند
يساعدونه على أهل حمص ويعثروا جنداً لتعزيز حامية هيت فـَرَأَي الخليفة عمر
على تطهير غربي الفرات من تلك الحاميات، فأمر سعد بن أبي وقاص أن يرسل
رتلًا بقيادة عمر بن مالك لإنجاز هذه المهمة، فسار الرتل بمحاذاة نهر الفرات
وحاصر بلدة هيت، ولما كان أهلها قد تحصنوا فيها قرر إفراز قسم من قواته
لتطويق البلدة وحصارها وسار بباقي قوته فباغت قرقيسيا واحتلها، فلما سمعت
حامية هيت بمصير قرقيسيا اضطررت هي أيضًا على التسليم^(٣٤).

الجبهة الجنوبيّة:

معارك البصرة والأهواز:

لَبِي سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ نَدَاءُ قَانِدِهِ عَتَبَةَ فِي الْبَصَرَةِ فَأَرْسَلَ بِأَمْرِهِ الْخَلِيفَةِ رَتَلَيْنِ أَحدهما بِقِيَادَةِ نَعِيمِ بْنِ مَقْرَنٍ وَالثَّانِي بِقِيَادَةِ نَعِيمِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَمْرَهُمَا أَنْ يَتَجَهَا نَحْوَ مَيْسَانٍ وَدَسْتَ مَيْسَانٍ حَتَّى يَكُونَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَهْرِ تَيْرِي.

أَمَّا عَتَبَةُ فَقَدْ أَرْسَلَ رَتَلًا آخَرَ بِقِيَادَةِ "سَلْمَى بْنِ الْقَيْنِ" وَ"حَرْمَلَةَ بْنِ مَرِيْطَةَ" وَأَمْرَهُمَا أَنْ يَنْزَلَا بِقَوَافِلِهِمَا عَلَى حُدُودِ أَرْضِ مَيْسَانٍ وَدَسْتِ مَيْسَانٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنَازِرَ، وَمَعَ أَنَّا نَجْهَلُ تَفَاصِيلَ الْأَوْامِرِ الَّتِي زَوَّدَ بِهَا قَانِدُهُذِهِ الْأَرْتَالِ وَمَدِيَّ تَعَاوِنِهِمَا مَعَ بَعْضِهِمَا فِي إِنْجَازِ مَجْرِيِ الْأَحْدَاثِ وَمَنْ مَوْقَفُ قَوَافِلِ الْعُدُوِّ الْمَرَابِطِ بَيْنَ نَهْرِ تَيْرِي وَبَيْنَ الدَّلْتَانِ حِينَذَاكَ، وَكَذَلِكَ مِنَ الْمَفَاؤِضَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا قَانِدُ رَتَلِ الْبَصَرَةِ وَنَعْنَى بِهِ سَلْمَى بْنِ الْقَيْنِ مَعَ رُؤُسَاءِ قَبْيلَةِ "بَنِي الْعَمِ" الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَقْطَنُ فِي تَلَكَ الْجَهَاتِ وَالَّتِي انْتَهَتْ بِإِتْفَاقِ رُؤُسَائِهَا عَلَى الاشتِراكِ فِي الْقَتَالِ إِلَى جَانِبِ إِخْوَانِهِمُ الْعَرَبُ الْمُسْلِمِينَ، فَيُثُورُ أَحَدُ الرُّؤُسَاءِ وَهُوَ غَالِبُ الْوَائِلِيِّ بِمَنَازِرِ وَيُثُورُ الْآخَرُ وَهُوَ كَلِيبُ بْنُ وَائِلِ الْكَلَبِيِّ بِنَهْرِ تَيْرِي فَيُقْتَلَا الْمَقَاتِلُ ثُمَّ يَكُونُ وَجْهَهُمَا رَتَلُ الْبَصَرَةِ فَيَتَعَاوَنُونَا مَعَهُ فِي الْقَتَالِ.

وَفِي لَيْلَةِ الْهُجُومِ الْمُقرَرَةِ خَرَجَ رَتَلُ الْبَصَرَةِ بِقِيَادَةِ سَلْمَى بْنِ الْقَيْنِ عَلَى تَعْبِيَّةٍ وَاتَّصَلَ بِرَتَلِ الْكُوفَةِ، وَهَاجَمَ الرَّتَلَانِ جَيْشَ الْهَرْمَانِ بَيْنَ دَلْتَانِ وَنَهْرِ تَيْرِيِّ، وَفِي أَثْنَاءِ الْاِشْتِباَكِ أَتَى الْمَدُّ مِنْ قَبَائِلِ بَنِي الْعَمِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَوَارَدَتْ فِيهِ

الأخبار إلى الهرمزان بأن مناذر نهر تيري قد أخذتا فزع عز ذلك موقفه وقرر الانسحاب من المعركة إلى ما دون شاطئ دجبل، وقد استطاعت فلول قواته عبور جسر سوق الأهواز واتخذها معسكراً بحیال تلك المدينة، وأقام على الجسر قوة تحميء وتحول دون عبور الجيش العربي، إلا أن هرمزان كان يقدر خطورة موقفه فطلب الصلح، وقد أجاب عتبة عليه مشرطاً أن يقصر ذلك على الأهواز فقط، أما نهر تيري ومناذر سوق الأهواز فتضم إلى البصرة لأنها جزء منها ولا شأن للهرمزان بها فوافق الهرمزان على شروط الصلح هذه، وعلى أثر عقد الصلح عين سلمى بن القين حاكماً عسكرياً على المناذر، أما الحاكم المدني فهو غالب الواثلي، وعيّن حرملة بن مريطة حاكماً عسكرياً على نهر تيري، أما الحاكم المدني فهو كليب بن وائل.

وقد أوعز لطوانف قبيلة بني العم على النزوح إلى منازلهم وأن تقطع لهم الأراضي ويرفع عن حالهم لاستيطان تلك المنطقة تحقيقاً لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب ونزولاً عند إرانته^(٣٥).

الجبهة الوسطى:

معركة جلواء:

أمر الخليفة عمر رض بأن يتقدم جيش مؤلف من اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة هشام بن عتبة أبي الوقاص نحو جلواء لمنازلة الجيش الفارسي الرئيسي

المحتشد فيها، وأمر أن يقود مقدمة الجيش القعقاع بن عمرو وأن يتولى قيادة الميسرة عمر بن مالك، وقيادة الميمنة سعد بن مالك، وأن يكون قائد الساقية سعد الجهين.

وكانت الأوامر تقضي بطرد العدو من جلولاء، وبعد أن يتم النصر للعرب يتقدم القعقاع بمقدمة إلى سلسلة الجبال الأولى التي تفصل العراق عن إيران أو على حد تعبير الخليفة عمر رض "يكون بين السواء، العراق" وبين الجبل على حد سواعكم: فيرابط فيها ويحول دون تسرُّب الفرس إلى العراق ^(٣٦).

تقدِّم جيش هشام بن عتبة من المداين إلى جلولاء فقطع المسافة بينهما في أربعة أيام، وفي جلولاء شاهد العدو وقد اتَّخذ موضعًا دفاعيًّا حول هذا الموقع مسندًا ظهرها إلى نهر ديالي، وقد أحاط دفاعاته بسياج من الخشب ثم استبدل بسياج من الحديد فيه فتحات معينة عن الطرف.

وقد أحاط العرب بدفاعات الفرس وحدثت مناورات ليست بذات شأن بين الفريقين، ولما رأى الفرس أن الإمدادات متواصلة إلى عدوهم خافوا من العاقبة وقرروا الخروج من دفاعاتهم والاشتباك مع العرب المسلمين في معركة فاصلة، وقد مهدوا السبيل إلى ذلك بدفع بعض أقسام الخندق لجعلها طرقة لخليهم.

وفي صباح أحد أيام ذي القعدة سنة ١٦ هـ (كان الأول سنة ١٣٧) خرج الفرس للقتال فنشبت بين الفريقين معركة حامية إلى درجة أن نفذ ما مع الفرس من نبل ونشاب فاستخدموه رماحهم وسيوفهم.

استمر القتال على هذا الشكل حتى ظهر اليوم وكاد العرب يغلبون على أمرهم لو لم ينقد الموقف القعقاع بن عمرو الذي مثله في الساعة الأخيرة من معركة القادسية فكسب معركتها وها هو في معركة جلواء يصرخ في جنوده (أهل لكم هذه؟ احملوا حملة رجل واحد حتى تخلطوهم ولا تذبن!) ومع أن الحملة كانت عنيفة إلا أنها لم تثمر عن فوز نهائي، وفي المساء عاد القعقاع فضبط قسماً من الخندق وقد عزم على النصر الذي لاح له بين عينيه يحرّض الجيش على القتال ولم يجد بأساً لتشجيع الجيش من أن يأمر مناديه أن يقول: "يا عشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق!" فحملوا وهم لا يشكون في كون هشام بن عتبة في الخندق فإذا هم بالقعقاع قد استولى عليه^(٣٧).

وانهزم الفرس، فعقرت خيلهم وتخطبوا بالسياج الحديدي وصاروا رجاله، واتبعهم المسلمون فعملوا فيهم قتلاً رهيباً ولم ينج إلا القليل، وذكر البعض أن قتلى الفرس من هذه المعركة كان مائة ألف جلهم من أهل الرأي فجاللت القتلى المجال ما بين يديه وما خلفه فسميت جلواء بما جلّها من قتلامن وهي جلواء الواقعة وبذلك يقول الشاعر العربي:

ويوم جلواء الواقعة أصبحت كتائبنا تردى بأسد عوابس

وقد طارد القعقاع بمقدمته فلول السيف الفارسية المنهزمة حتى دخل مدينة خانقين وقتل فيها قائد الجيش العام مهران الرازي واستمر على التقدم

دخل مدينة قصر شيرين، وعلى فرسخ واحد فقط من حلوان قاتل حاميتها التي كان يقودها خسرو فغلبها واستولى على حلوان^(٣٨).

وسيق أن غادر يزدجر الثالث هذه المدينة قاصداً مدينة الري بعد أن ينس من مقاومة العرب المسلمين والوقوف في وجههم.

وكان القعاع يود لو سمح له بالتوغل في الجبل للقضاء على البقية الباقيه من المقاومة الفارسية، إلا أن الأوامر الصادرة إليه حالت دون أمنيته المخالفة لرغبة الخليفة عمر^{رضي الله عنه}، فقد قال الخليفة بهذا الصدد: "وودت لو أنَّ بين السواد وبين اجل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم...".

وقد بقي القعاع في حلوان إلى أن اختيرت الكوفة قاعدة لجيش الفتح بدلاً من المدائن أما الغنائم التي حصل عليها العرب المسلمين فكانت عظيمة أصاب كل فارس منها تسعه آلاف درهم وتسعة دواب ما عدا الخمس^(٣٩).

معركة ماسيدان:

لم يبق لفتح القسم الأوسط من العراق في الجبهة الشرقية غير مدينة ماسيدان التي تسللت إلى سهلها قوة صغيرة من الجيش الفارسي بقيادة أذين بن الهرموان فأرسل سعد رتلأ بقيادة ضرار بن الخطاب لطرد هذه القوة من مناطق الحدود العراقية فالتقى بها في مكان يدعى "بهندف" وبعد قتال قصير تغلب عليها وقتل قادتها وتعقب فلولها إلى نهر سيروان (قسم ديالي الأعلى)^(٤٠).

وهكذا تنتهي في هذه الجبهة الصفحة الأولى من الحركات الحربية التي حررت العراق من الحكم الأجنبي لتبدأ صفحة جديدة في ميادين أخرى.

وقعة نهاوند [فتح الفتوح]:

قيل أنها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشر وقيل سنة إحدى وعشرين، أشار أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كانت الفرس ملكهم وهو بمرور فحرکوه، وكاتب الملوك بين الباب والسد وخراسان وحلوان فتحرکوا، وتكلّموا واجتمعوا إلى نهاوند، ولما وصلها أولئك بلغ سعداً الخبر فكتب إلى عمر وقد وشا بسعد قوم سعوا به وألبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان من تحرى أمره الجراح بن سنان الأستدي في نفر، فقال لهم عمر: والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم، فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمد صاحب العمال يقتضي آثار من شکي زمان عمر، فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه، فما سأله جماعة إلا أثروا عليه خيراً سوى آل الجراح الأستدي فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً، حتى انتهى إلىبني عبس فسألهم، فقال أسماء بن قتادة: اللهم إيه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية. فقال سعد: اللهم إن كان قالها رباء وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرّضه لمضلات الفتنة، فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فرأيتها حتى

يجلسها، فإذا عثر عليها قال: دعوة سعد الرجل المبارك، ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال: اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فاجهد بلادهم، فجهدوا، وقطع الجراح بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي -عليه السلام- ليغتاله بساباط، وشذخ قبيصه بالحجارة، وقتل أربد بالوجي ونعل السيوف.

وقال سعد: إني أول رجل أهرق دمأً من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعها لأحد قبلي ولقد رأته خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أن أصلى وأن الصيد يلهبني وخرج محمد بهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر، فقال: كيف تصلي يا سعد؟ فقال أطيل الأوليين وأخذف الآخرين فقال: هكذا الظن بك أبا اسحق ولو لا الاحتياط لكان سبileم بينا، وقال من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله [بن عبد الله] بن عثمان، فأقره، فكان سبب نهاوند ويعثها زمن سعد.

وأما الواقعة فهي زمن عبد الله، فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفاً ومانة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له: إن أهل الكوفة يستأننك في الانبعاث وأن يبدؤوهم بالشدة ليكونوا أهيب لهم على عدوهم.

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد همت أن أسير فيمن قبلني ومن قدرت عليه فائزلا منزلاؤسطاً بين هذين المصررين ثم

استغفروهم وأكون لهم رداءً حتى يفتح الله عليهم ما أحب، فإن فتح الله عليهم حبّتهم في بلدانهم.

فقال طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين قد أحكمت الأمور، وعجمتك البلايا، واحنكتم التجارب، وأنت وشأنك، لا نبو في يديك ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر، فمرنا نطيع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا عليك، إليك هذا الأمر وقد بلوت وجريت واحتربت فلم ينكشف شيء من عوّاقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم، ثم جلس.

فعاد عمر، فقام عثمان فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقي جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت فقل عندك ما قد تکاثر من عدد القوم و كنت أعزّاً وأكثر، يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمنع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحرير، إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه، وجلس.

فعاد (عمر) فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع

وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والغيالات، أقرر هؤلاء في
أمسارهم وأكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلث فرق: فرقة إلى إخوانهم
بالكوفة مددًا لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير
ال القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغير ما يكره، أما عددهم
فإنما لم نكن فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه، فأشاروا علي برجل
أوليه ذلك التغر ول يكن عراقياً، قالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك، فقال:
والله لأولئن أمرهم رجلًا يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من هو؟ فقال: هو
النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هولها، وكان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ،
وكان على خراج كسر، فدعا عمر السائب بن الأقرع إليه عهد النعمان بن
مقرن، قال له إن قتل النعمان فولي الأمر حذيفة بن اليمان، وإن قتل حذيفة فولي
الأمر جرير بن عبد الله البجلي، وإن قتل جرير فالامير المغيرة بن شعبة، وإن
قتل المغيرة فالامير الأشعب بن قيس وكتب إلى النعمان بن مقرن: "إن قبلك
رجلين هما فارسا العرب: عمرو بن معدى كرب، وطليحة بن خوبيلد فشاورهما
في الحرب، ولا ترفع إلى باطل، وأن يهلك ذلك الجيش فاذهب، فلا أرينك" (٤).

سار السائب حتى ورد الكوفة ودفع إلى النعمان عهده، ووافت الإمداد،
وخلف أبو موسى بالبصرة ثلثي الناس، وسار بالثلث الآخر حتى وافى الكوفة،
فتجهز الناس، وساروا إلى نهاوند، فنزلوا بمكان يسمى "الإسفيدهان" من مدينة

نهاند على ثلات فراسخ، قرب قرية يقال لها "قديسان" وأقبلت الأعاجم
يقودها مروان شاه بن هرمز حتى عسكروا قريباً من معسكر المسلمين
وخدقوا على أنفسهم، وأقام الفريقان بمكانهما فقال النعمان لعمرو وطلحة: "ما
تريان؟ فإن هؤلاء القوم قد أقاموا بمكانهم لا يخرجون منه، وإن دادهم ترى عليهم
كل يوم" فقال عمرو: "الرأي أن تشيع أن أمير المؤمنين توفى، ثم ترحل بجميع
من معك، فإن القوم إذا بلغهم ذلك طلبونا فنقف لهم عند ذلك" ففعل النعمان ذلك،
وتباشرت الأعاجم، وخرجوا في أثر المسلمين حتى إذا قاربوا وقفوا لهم، ثم
زحفوا، فاقتتلوا، فلم يسمع إلا وقع الحديد على الحديد، وكثرت القتلى من
الفريقين، وحال بينهما الليل فانصرف كل فريق إلى معسكره، وبات المسلمون
لهم أئن من الجراح، ثم أصبحوا وذلك يوم الأربعاء، فتزاحموا، واقتتلوا يومهم
كله، وصبر الفريقان، وركب النعمان بن مقرن برذونا أشهب، ولبس ثياباً
بيضاء، وسار بين الصفوف، يحيي المسلمين، ويحضهم، وجعل ينتظر الساعة
التي كان الرسول ﷺ يقاتل فيها، وستنزل النصر، وهي زوال النهار، ومذهب
الرياح، وسار في الرأيّات يقول: "إني هاز لكم الراية ثلاثة، فإن هزتها أول مرة
فليشد كل رجل منكم حزام فرسه، وليستم سكته، فإذا هزتها الثانية فصوبوا
رماحكم، وهزوا سيفكم فإذا هزتها الثالثة فكبروا، واحملوا، فإني حامل".

فلما زالت الشمس بأدنى صلوا ركعتين ، ووقف، ونظر الناس إلى
الراية، فلما هزها الثالثة كبروا وحملوا فانتقضت صفوفهم الأعاجم، وكان النعمان

أول قتيل، فحمله أخوه سعيد بن مقرن إلى فسطاطه، فخلع ثيابه، فلبسها، وتقلد سيفه، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان، وثبتوا يقاتلون عدوهم ثم أنزل الله نصره، وانهزمت الأعاجم، فذهبت على وجوهها حتى صاروا إلى قرية من نهاوند على فرسخين، تسمى "ذيزيد" فنزلوها لأن حصن نهاوند لم يسعهم، وأقبل حذيفة بن اليمان، وقد كان تولى الأمر بعد النعمان حتى أanax عليهم، فحاصرها بها، ولم يلبث أصحاب الحصن أن صالحوا المسلمين على الأمان^(٤٢).

وتعتبر موقعة نهاوند خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس ولذلك سميت "فتح الفتوح" وبها أنهار سلطان الفرس نهايةً.

وتترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن، منها الدينور التي أقر أهلها بالجزية والخارج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم المسلمون إلى طلبهم، ومنها ما سبذان التي صولح أهلها على مثل صلح أهل الدينور، كذلك صالحه أهل السيروان على الجزية والخارج.

وقام جرير بن عبد الله البجلي بفتح همدان قسراً على مثل صلح نهاوند في آخر سنة ٥٢٣هـ، كما افتح أبو موسى الأشعري مدينة قم وقاشان عنوة، ثم أصبهان في سنة ٥٢٣هـ، ولم تستعص على المسلمين سوى اصطخر التي لاذ بها "يزجerd"، ثم انتقض أهل اصطخر عليه فهرب يزجerd إلى خراسان ولكنه ليصرعه في مرو في سنة ٥٣٠هـ^(٤٤)، ويصرع الملك يزجerd فقد الفرس كل أمل استرجاع فارس، ودالت دولتهم.

أما الجزيرة الفراتية التي كانت بعض مدنها تحت سيطرة الروم البيزنطيين فقد كان تحريرها ضرورة حربية لتأمين فتوح الشام، وكان أبو عبيدة ابن الجراح قد بعث عياض بن غنم إلى الجزيرة ثم توفى أبو عبيدة خلفه عياض، وود عليه كتاب عمر بن الخطاب بتولية حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة الفراتية في النصف من شعبان سنة ١٨ هـ في خمسة آلاف مقاتل، واشترك معه في هذه الحملة ميسرة بن مسروق العبسي، وكان على مقدمة جيشه، وسعيد بن عامر الجمحى وكان على الميمنة، وصفوان بن المعطل السلمي على الميسرة، وتمكنت جيوش عياض من تحرير مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى فوصلت إلى الرقة التي صالح أهلها على الجزيرة بعد حصار دام بضعة أيام وأمن جميع سكانها على أنفسهم وذارياتهم وأموالهم ومدينتهم، ثم واصل عياض زحفه إلى "حران" فتحصن أهل المدينة، فتركها إلى الراها "أورفة" ونجح في الاستيلاء عليها صلحاً، وكتب إلى أهلها أماناً، كذلك صالح أهل حران على مثل صلح الراها، ففتحوا أبوابها لل المسلمين ثم زحف عياض إلى سميساط صالحه أهلها على مثل صلح الراها، وسار إلى نصيبين سنة ١٩ هـ ففتحها، كما فتح قرقيسيا وسنجار وميافارقين وقرى الفرات وآمد وحصن كفرنوثا وماردين ودارا صلحاً على مثل صلح الراها وحران والرقة، ثم فتح عياض ارزن صلحاً، وهكذا تم تحرير كامل الجزيرة الفراتية بسهولة ويسر^(٤٠) فقد ذكر الطبرى أن الجزيرة كانت "أسهل البلدان أمراً، وأيسره فتحاً"^(٤١).

المبحث الثاني

فتح الشام ومصر وبرقة

استكمال تحرير بلاد الشام:

معركة اليرموك:

بعد هزيمة الروم في معركة أجنادين، قرر هرقل نقل مقر قيادته من حمص إلى أنطاكية -شمال بلاد الشام- كما أشرنا سابقاً، وفي الوقت نفسه راح يجهز جيشاً ضخماً فترته المصادر بما لا يقل عن المائة ألف^(٤٧) وقرر أن يقوده بنفسه لمحارمة جيوش المسلمين، وذكر الطبرى^(٤٨) أن جيش المسلمين كانت عدته ٤٦ ألفاً فمن الأجناد الأربع ٢٧ ألف ومن خلال خالد بن سعيد ثلاثة آلاف، ومن إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد عشرة آلاف ومن المسلمين الذين استمروا تحت قيادة عكرمة بعد هزيمة خالد بن سعيد ستة آلاف وكان يتولى قيادة جيوش بيزنطة، القائد الأرمني باهان وكان يعرف عند البيزنطيين بشدة بلائه، وكان من الفرق البيزنطية فرقة الغساسنة، وعرب الشام من قبائل لخم وجذام يتقسمهم جبلة بن الأبيهم الغساني، وفرقة من سكان أرمينيا.

تجمع الجيش الإسلامي شمالي نهر اليرموك، في سهل واسع يعرف بالواقوسة أو الياقوسة، ويبدو أن نظام الجيش الإسلامي بتقسماته الأربع تحت قيادة أربعة من القواد لم يحظ برضى وموافقة خالد بن الوليد، وكان يرى ضرورة توحيد هذه الجيوش بجيش واحد منظم وتحت قيادة واحدة، ليواجهوا به جيش الروم الموحد، فخطب في المسلمين قائلاً: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته". فسأله المسلمون عن خطته واستشاروه الرأى فقال: "إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى إنا سننيلسرا، ولو علم بما كان ويكون لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشياهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فاتله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيد عليه أن دانوا له، إن تأمروا بعضكم لا ينتقصكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا، فإن هؤلاء قد تهالوا، وهذا يوم له ما بعده إن ردناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاون على الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتآمر كلهم، ودعوني إليكم اليوم" فأمروه على أنفسهم. ثم وزع خالد جيوش المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها ما بين ٣٦ كرداً و٤٠ كرداً - كل كرداً يتألف من

ألف جندي - ثم قسم الكرايس إلى ثلاثة أقسام: ميمنة وعليها عمرو بن العاص، وشريهيل بن حسنة، وميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان، وقلب وأقام عليه أبو عبيدة بن الجراح، ثم ولّى على كل كرداً من قواد المسلمين أمثال القعاع ابن عمرو وجعله على أهل العراق ومعه عياض بن غنم، وهاشم بن عتبة كل منهم على كرداً، كما قدم على فالة خالد بن سعيد رحمة بن خليفة وأمرى القيس ويزيد بن يحيى وعكرمة بن أبي جهل وزاد الكلاع ومعاوية بن حديج، وقبل أن يشتبك المسلمون مع البيزنطيين، قرأ المقداد بن الأسود سورة الأنفال وهي سورة الجهاد^(٤٩).

أصدر خالد بن الوليد أو أمره إلى مجنبي "القلب" بقيادة عكرمة والقعقاع بالهجوم على الروم وسرعان ما نشب القتال والت蛔 الجندي، وفي هذه الأثناء قدم البريد من المدينة فبلغ خالد بوفاة أبي بكر رض في ليلة النصف من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ، وخلافة عمر رض كما أبلغه نباً عزله عن الإمارة وتولية أبي عبيدة، فأخفى خالد خبر وفاة أبي بكر وأخذ الكتاب من البريدي واحتفظ به لحين انتهاء المعركة حفاظاً على معنويات المقاتلين.

واصل المسلمون قتالهم بقيادة خالد بن الوليد إلا أنهم اضطروا إلى التراجع عن خطوطهم و مواقعهم بعد هجوم شنه عليهم البيزنطيون، وقد ثبت كل من عكرمة وعمه الحارث بن هشام أمام الهجوم البيزنطي ولم يتراجع، وصرخ عكرمة ونادي قومه قائلاً: "من يباع على الموت" فباعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزرور في ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم وقاتلوا أمام

فسطاط خالد، وثبت المسلمون أمام البيزنطيين فبادر خالد بالهجوم بقلب الجيش، فانهزم فرسان العدو وتركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين، فأذرع المسلمين فيهم بالسيوف واقتربوا في خندقهم، فاقتحمه خالد عليهم، وانهزموا إلى سهل الواقصية، فتقاهم المسلمون بالقتل، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين، أبادوا فيه العدد الأعظم من جيش البيزنطيين، واستشهد من المسلمين حوالي ثلاثة آلاف من بينهم عكرمة بن أبي جهل وعمر بن مكرم وضرار بن الأزور، وانحاز جبلة بن الأبيهم إلى الأنصار وقال لهم: "أنتم أخوتنا وبنو أبينا" ثم أعلن إسلامه هو وجماعه من قومه^(٥٠)، أما هرقل فقد ذهل بما أصاب جيشه من هزيمة ساحقة على أيدي المسلمين ورحل إلى عاصمته القسطنطينية مغادراً أرض بلاد الشام إلى الأبد.

تحرير مدن بلاد الشام:

استثمر المسلمون انتصارهم الساحق في اليرموك فتقدموا لتحرير بقية أرض الشام ومدنه، وزحف أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق، فنزل بمرج الصفر متبعاً فولوك الروم، بقيادة باهان، الذين لاذوا بفحل، وبلغه أيضاً أن مددًا بيزنطياً قد أتى أهل دمشق من حمص، وفي هذه الأثناء جاءه قرار الخليفة عمر رض بأن يبدأ بتحرير دمشق لأنها حصن الشام وبيت ملكهم وفي نفس الوقت يشغل أهل فحل بخييل توقف بازائهم، فإذا فتحت دمشق سار إلى فحل فإذا نجح في افتتاحها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص بالأردن

وفلسطين ونفذ أبو عبيدة توجيهات الخليفة، فزحف بمعظم الجيش الإسلامي وهاجم مدينة دمشق، وترك على فعل طائفة من المسلمين لمحاصرتها وقد لجأ البيزنطيون المحاصرون في محل إلى إغراق الأرضي حول فحل بالمياه، فوحلت الأرض الأمر الذي أعاق تقدم المسلمين.

أما القوة المهاجمة لمدينة دمشق فقد نجحت في إحكام الحصار حولها، إذ رابط خالد بن الوليد على رأس فرقة من الجيش قوامها خمسة آلاف مقاتل على بابها الشرقي، وعمرو بن العاص على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، بينما رابط يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما أبو عبيدة فقد نزل على باب الجابية، يتجلّى وسط هذه المواقف التاريخية الخلدة دور خالد بن الوليد، فقد ذكرت المصادر أنه كان يقطأ لا ينام ولا ينسم ولا يخفى عليه من أمور أهل دمشق شيئاً فانتهز انشغال الروم بأحد احتفالاتهم، وغفلتهم عن حراسة الباب الشرقي، ليقحمها، وكان قد أعد سلام من العبال، وبفضل هذه العبال تمكن نفر من المسلمين من ارتقاء السور، وعندما بلغوا أعلىه كبروا، وفي هذه الأثناء اقتحم خالد الباب الشرقي بعد قتل حراسه، ولما أيقن الروم أن المدينة اقتحمت عنوة من تلك الجهة طلبوا الصلح من أبي عبيدة وفتحوا له باب الجابية، فصالحهم دون أن يعلم بما أنجزه خالد بن الوليد، فتقدم القادة والتقوّا في وسط دمشق^(١) مزهوي بن نصرهم المبين.

بعد تحرير دمشق كان لابد من حسم موضوع فحل المحاصرة، وتتفيداً للخطبة التي وضعها الخليفة توجه أبو عبيدة لاقتحام فحل، فجعل خالد بن الوليد

على المقدمة، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطيين، وحرر المسلمون فحل ثم بيسان وطبرية، من جانب آخر حرر شرحبيل بن حسنة جميع مدن الأردن وتغلب على سواده.

توالى بعد ذلك تحرير مدن الشام الشمالية إذ زحف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، فصالح أهلها على مثل ما صالح به أهل دمشق، ثم قصد بعلبك وحماة وشيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين، وواصل أبو عبيدة زحفه فسار إلى معرة النعمان، وحررها صلحاً، وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سوريا إلى عبادة ابن الصامت ففتحها عنوة^(٥٢) ثم اقتحم انططوس وكانت خالية من سكانها، وحرر جبلة عنوة، وأوكل بالحفظ عليها والدفاع عنها حفظة وحراساً خلال مدة الصيف.

أما أبو عبيدة فقد سار وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، وكانت لتنوخ، فنجح المسلمين في السيطرة عليها وعلى قراها، بعد دحر الروم وقتل قادتهم "ميناس"، وصالح أبو عبيدة أهلها على مثل صلح حمص، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليمان بن حلوان، ثم تقدم أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم، فحررها صلحاً، ومن هناك زحف إلى أنطاكية واشتبك مع أهلها فطلبووا الصلح^(٥٣).

واصل أبو عبيدة تحريره لمدن الشام الشمالية الواحدة تلو الأخرى حتى بلغ نهر الفرات وسيئر قواه في بعوث إلى مدن منيح ودلوك وربان وبالس،

فافتتحوها صلحاً، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي، وهو أول من سلك هذا الدرب من المسلمين، وسير خالد بن الوليد إلى مرعش فاقتصرها وصالح أهلها على الجلاء^(٥٤).

تحرير بيت المقدس وسواحل الشام الجنوبية:

مضى عمرو بن العاص يحرر المدن الفلسطينية، وتمكن في أمدقصير من الاستيلاء على نابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعسقلان وغزة ورفع دون قتال ثم زحف نحو إيليا (بيت المقدس) وحاصرها زهاء أربعة أشهر، كان خلالها القتال متصلأً وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن أتم فتح قنسرين ونواحيها في سنة ١٦هـ، فاشترط بطريق إيليا (صفرونوس) على أبي عبيدة أن يأتي عمر بن الخطاب عليه السلام بنفسه ليتسللها ويوقع معاهدة الصلح خوفاً من أن تتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب، فقدم عمر بن الخطاب في سنة ١٦هـ وعقد عهد الصلح لأهل إيليا، أورد الطبراني نفسه^(٥٥)، ولما بعث عهد الأمان إلى أهل إيليا ودخلها جند المسلمين شخص عمر إلى بيت المقدس من الحابية، وتم تحرير إيليا على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ١٦هـ، أما عمرو بن العاص فقد مضى إلى قيسارية وحاصرها ولم يتمكن من اقتحامها فقد كانت الإمدادات تصلها عن طريق البحر.

كان يزيد بن أبي سفيان قد توجه إلى مدن الساحل الشمالي بعد تحرير دمشق مباشرة سنة ١٤هـ، ولم يأت عام ١٧هـ حتى كان قد أتم تحرير مدن صيدا وعرقا وجبيل وبيروت، وهي مدن ساحلية، ولم يلق فيها مقاومة ذات شأن من جانب سكان هذه المدن التي جلا معظمهم عنها، وكان يزيد يقيم على الحصن أيامًا قليلة "فربما قوتل قتالاً غير شديد وربما رمى" وساعدته على تحرير هذه السواحل من الوجود البيزنطي أخوه معاوية.

وكانت مدينة طرابلس (الشام) قد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد لمنعها ووثاقة تحصيناتها، فقد ذكر البلاذري أن "يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق سوى طرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها"^(٥٦) إذ كان اقتحام طرابلس يتطلب حصاراً من البر والبحر في آن واحد قد يطول أمده، لذلك كان يزيد يرى أن يرجى هذا الأمر إلى أن تتوفر له الإمكانيات، وخاصة الخبرة في مجال الحصار البحري، الذي لم تكن للعرب خيرة فيه.

توفي يزيد بن أبي سفيان في آخر عام ١٨هـ في طاعون عمواس (عمواس قرية من قرى فلسطين) وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق الساحل، ولم ينتهي لمعاوية إتمام تحرير طرابلس إلا في خلافة عثمان بن عفان.

تحرير مصر:

سكن مصر منذ قديم الزمان جنس جمع خصال الساميين والحاميين، وإلى عصر الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضعيف من الجنس الننجي، وقد استطاع

هذا الجنس أن يكون حصار حضارة تعد من أقدم الحضارات، التي يمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الإسكندر الأكبر في ٣٣٢ق.م و خضعت بعد ذلك للبطالمة والروماني والبيزنطيين، إلى أن جاءها العرب كمحررين، ومع ذلك فمصر خلأ احتلال هذه الشعوب الغربية عنها، ظلت تكون شعباً منفصلاً في الجنس واللغة والتقاليد.

ومع أن مصر عاشت بينها الأول آلاف السنين إلى أن اضطررت إلى تركه في ظل الحكم الروماني بسبب تشويعه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه وأباطرته، ولذلك تحولت مصر منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي تناهت ضد الظلم الروماني، وفي جوهرها تشبه ديانتها القديمة، فعلل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح، وهو القديس "مرقس" كما أنه ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة.

ويبدو أن الديانة المسيحية انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث الميلادي، بدليل كثرة الروايات التي تتحدث عن اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها للنصارى المصريين، وحتى بعد أن جاءت بيزنطة سارثة الرومان في الشرق والتي جعلت المسيحية ديانتها الرسمية - نجد أن المسيحية المصرية تتخذ مذهبًا مختلفاً - مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح - على عكس البيزنطيين الذين قالوا بالطبيعة الإلهية والبشرية للمسيح، أو ما عرف بمذهب الملكانية نسبة إلى الملك أو الإمبراطور البيزنطي. وقد كان هذا الموقف الديني من جانب المصريين، سبباً في أن جعل المسيحية في مصر توأكها حركة قومية منذ

ظهورها، وخصوصاً أن البيزنطيين كانوا كالرومانيين يضطهدون المصريين
اليعاقبة، ويزيلون بطاركة كنيستهم ويستحلون سفك دمائهم.

عهد الخليفة عمر بن الخطاب رض أمر تحرير مصر بعد إنتهاء تحرير
بلاد الشام وفلسطين إلى عمرو بن العاص، أشهر قادة الفتح الإسلامي بعد
خلد، وكان قد أسلم سنة ثمان للهجرة، واشترك في قمع الردة، كما قاد عمليات
تحرير فلسطين المجاورة لمصر، ويوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً عظيم
الهامة عريضاً ما بين المنكبين، معروفاً بالدهاء وهو من مظاهر الزعامة عند
العرب، وكان عمرو عارفاً بمصر التي دخلها قبل الإسلام.

لقد حاولت بعض الروايات أن تجعل فكرة تحرير مصر آتية من عمرو
ابن العاص وحده، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن
الخليفة غير راغب فيه، وأنه أرسل إليه كتاباً يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل في
أرض مصر، ولكن القائد المغامر لم يلق بالاً لأوامر الخليفة واجتاز الحدود
المصرية ليضع الخليفة أمام الأمر الواقع، ونرى أن هذه الرواية ليس لها أساس
واقعي وأن قرار تحرير مصر آتى نتيجة تفكير متأني ومداولات بين الخليفة
وقواد جيشه في مؤتمر الجابية حين مجئه الشام، لأهمية هذا القرار بالنسبة
للهلة العربية الناشئة، ولعل التردد الذي تتسبه بعض الروايات العربية إلى عمر
قد يكون مبعثه تخوفه على سلامة المسلمين من احتمالات هذا القرار ومخاطرها،
لقد كان قرار الخليفة وأمره قاطعاً إلى عمرو بن العاص بالتوجه بجيشه إلى

مصر بمجرد قراءة كتابه، بما يدل على أن خطة التحرير كانت مدبرة من قبل الخلافة ذاتها.

إن من أهم أسباب ظهور فكرة تحرير مصر -فضلاً عن العوامل الاقتصادية- هي تأمين فتوحات وإنجازات العرب في بلاد الشام، والقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة الشام، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك مباشرةً، فقد كان على العرب يعملون ألف حساب لرد فعل يأتي من الجانب البيزنطي، حيث كانت جيوشهم موجودة بكثافة في مصر، فضلاً عن انسحاب قواتهم التي كانت موجودة في فلسطين إليها، وحتى لا يقع العرب بين فكي كمامة الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى وجيوش مصر.

من جانب آخر كان احتلال البيزنطيين لسواحل مصر وما تهيئة لأساطيلها من قوة بحرية فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها، وفيها مركز الدولة العربية الناشئة، وربما كان العرب أنفسهم يطمئنون في احتلال مصر بقصد إنشاء قوة بحرية تمهدًا لمواجهة البيزنطيين في البحر، كما تغلبوا عليهم في البر.

ويمكن أن نضيف سبباً آخر لظهور فكرة تحرير مصر هو أن مصر كانت معروفة عند العرب من الذين زاروها منهم قبل الإسلام بثرائها الواسع، فهي في نظرهم المدرة السوداء أي الخصبة، وأنها أكثر من الشام والعراق أموالاً مما يجعل من تحريرها من أيدي الروم قوة للمسلمين، وعوناً لهم، فضلاً عن إمكان إضعاف بيزنطية بحرمانها من خيرات هذا البلد وموقعه الهام جداً.

سار عمرو بن العاص بجيشه في سنة ١٨ هـ في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما، وكانت تعرف قديماً بحصن بيلوز، وكان قوم من الروم مستعدين للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية واستمر حصار المسلمين لها ما يقارب من شهر إلى أن سقطت في أيدي المسلمين^(٥٧) وبسقوطها أمن العرب الطريق المؤدية إلى مصر وربطوا بينهم وبين قواعد تموينهم في الشام.

بعد الفرما سار عمرو نحو حصن بابليون دون أن يلقى مقاومة تذكر إلى أن نزل القواصر فدخلها ثم سار إلى حصن بليبيس قاتل البيزنطيين نحو شهر حتى افتحها، ثم مضى في طريقه حتى أتى أم دنين وهي قرية تقع إلى شمال حصن بابليون وهناك اشتباك عمرو مع البيزنطيين في قتال عنيف، انتهى بهزيمة الروم، فتحصّنوا داخل الحصن، فحاصرهم، وقاتلهم قتالاً شديداً، وكان حصن بابليون من المناعة والحسانة بحيث لا يمكن اقتحام أسواره أو تخريب أبراجه، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن وطال الأمر كتب عمرو إلى عمر يستمدّه فآمدته عمر بأربعة آلاف رجل وكتب إلى عمرو: "إن قد أمدتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد"، ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر أخذ يفاوض عمرو في شروط الصلح وارسل قيرس هذه الشروط إلى

هرقل فغضب هرقل وأرسل إلى قيرس وقاد الروم يعنفهم على تخاذلهم أمام العرب، ورفض الروم الصلح واستوف القتال من جديد.

وفي هذه الأثناء عمد الزبير إلى اصطناع الحيلة، فوضع سلماً إلى جانب الحصن، ثم صعد معه جماعة، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فكبر الزبير وكبر من معه، فأجابهم المسلمون من خارج، فلما سمع البيزنطيون التكبير لم يشكوا فقط في أن العرب قد اقتحموا الحصن، ففر الحراس والمدافعون عن تلك الجبهة، فنزل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون في الحصن وتم فتح الحصن بعد ما يقرب من سبعة أشهر، وعقد العرب مع المصريين معااهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى في سنة ٦٤٠ م/٥١٩.

وكان لسقوط حصن بابليون أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعني سقوط مركز الدفاع الأول في مصر، وفتح الطريق للزحف إلى الإسكندرية، ويبدو أن قيرس سافر إلى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعااهدة، ولكن الإمبراطور رفض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين استئناف القتال وكان عمرو قد استغل فرصة غياب قيرس في بيزنطة فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونيين إيخميم وقرى الصعيد وعلى تنيس ودمياط ودميرة وغيرها، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين إلى الإسكندرية حاضرة مصر^(٥٨).

سار عمرو إلى الإسكندرية في ربيع الأول سنة ٦٤٢ م/٥٢٠ م بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غائم^(٥٩) واشتبك عمرو مع

البيزنطيين في عدة مواقع محصنة، كحصن نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الغربي، ثم في سلطيس الواقعة على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور الحالية، وانهزم البيزنطيون في كل من هذين الحصتين، ثم التقى عمرو مع البيزنطيين في معركة حصن الكريون، وكان أهم معلم بيزنطي أمام الإسكندرية وكانت الكريون تشرف على ترعة الإسكندرية التي يعتمد عليها أهل الإسكندرية في السقي ونقل البضائع، ونشبت بين الطرفين في هذا المكان معركة حامية استمرت عدة أيام انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً فتراجع البيزنطيون على أثرها بعد أن قتل عدد كبير منهم، وتحصنت فلول الجيش البيزنطي المتراجع في الإسكندرية وكانت الإسكندرية مدينة حصينة لها أسوار محكمة البناء ولها حصن منيع كان الفرس قد أقاموه خلال حقبة احتلالهم للإسكندرية في شرق المدينة من جهة الميناء الشرقية، وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الإسكندرية لمنعها فأثار أن يترك عليها فرقة للرباط ويؤجل اقتحامها لفرصة أخرى بينما توجه لتحرير بقية الوجه البحري^(٦٠).

دام حصار الإسكندرية بضعة أشهر، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال: "ما أبطأوا بفتحها، إلا لما أحثروا" وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حرر الإسكندرية صلحأ يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، وخلف بها ألف رجل من أصحابه، ومضى عمرو من معه في طلب من هرب من الروم إلى البحر، والمتفق عليه أن عمرو بن العاص حاصر الإسكندرية مدة أربعة

عشر شهراً، منها تسعه أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن تحريرها أنجز في أول المحرم سنة ٦٤٢/٥٢١م^(١).

لابد من الإشارة إلى أن أهم العوامل المساعدة على تحرير الإسكندرية موت هرقل وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته، وقيام المنازعات في القسطنطينية من أجل العرش، مما اضطر البيزنطيين إلى التعجيل على إنهاء حالة الحرب، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية، وقد تم الاتفاق بين الطرفين على أن يدفع أهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية وفي مقابل ذلك يتتعهد المسلمون بعدم التدخل في شؤون المسيحيين وكثائفهم، والسامح لليهود بالبقاء في الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة أحد عشر شهراً خارج المدينة ريثما يبحرون عنها الروم، وقد تم جلاء الروم عنها نهائياً في سبتمبر سنة ٦٤٢.

تحرير برقة وطرابلس:

بعد تحرير مصر سار عمرو إلى برقة أو ما يسميه اليونان بنطابوس أي المدن الخمس وإلى طرابلس Tripolis أي المدن الثلاث: وكلاهما عبارة عن صقع كبير يتكون من شريط ساحلي تتواافق فيه الزراعة بسبب سقوط الأمطار في أودية تناسب إلى برك، ولوجود المياه في الآبار، وخلفه صحراء مجده أو جبال، حيث يكون جزءاً من البلاد الممتدة حتى المحيط، التي كانت تعرف قديماً بلوبيا Libya، وللعرب "بالغرب".

وكان يسكن برقة وطرابلس عنصر من الناس يُعرف للعرب باسم البرير، لعلهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامي، وهم من نفس الجنس الليبي القديم الذي عرفه الفراعنة، فكانت أغلبيتهم كالعرب يعيشون في قبائل معظمهم من البدو الذين يتقلون بين الوديان والجبال للارتفاع، أما من كان قد اختلطوا منهم بحياة الروم فيسمون بالأفاريق (أي المتحضرين)، وقد كانت أهم قبائل برقة وطرابلس: لواتة وهوارة ونفوسه^(١٢).

بعد أن استكمل عمرو بن العاص تحرير مصر كان من الطبيعي أن يفكر في فتح برقة وطرابلس الغرب لعاملين، الأول: أن برقة كانت تعد امتداداً طبيعياً لمصر، وإقليمياً متمماً لها، إذ هي تجاور لوبياً ومراقبة، وهما كورتان من كور مصر الغربية، وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقيا منذ عهد الإمبراطور البيزنطي موريق (٥٨٢ - ٦٠٢م) وأصبحتا رسمياً تابعتين لمصر، وإن كانتا في حقيقة الأمر مستقلتين ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الإمبراطور المغتصب فوقياس كانت برقة وطرابلس في مقدمة الولايات المغربية التي آزرت جريجوريوس على الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية، ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل تحرير مصر أن يبادر بتحرير برقة وطرابلس تأميناً لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي.

والعامل الثاني هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في التحرير نحو الغرب، وهو أمر يدل عليه سير الفتوحات العربية في الشام ومصر وبرقة

ثم إفريقية والمغرب والأندلس وجنوبي فرنسا، ولم يكن المحاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهاءهم من تحرير مصر التماسا للمغامن التي كانت تعود عليهم من الغزو، ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماماً من تحرير مصر، ويقرع لفتح برقة، فنراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة "أنطابليس" بعد تحرير مصر في سنة ٥٢٠ هـ وجه عقبة ابن نافع الفهرس إلى زويلة وبرقة فافتتحما ويويد ابن أبي دينار القيروانى هذه الرواية في كتابة المؤنس والظاهر أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة ابن نافع عن بلاد برقة فجعل بتسير جيوشه لتحريرها.

سار الجيش الإسلامي غرباً حتى قدم برقة، وكانت وقتذ أشبه بولاية ببرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواته البرية وهي من أكبر قبائل البربر شأنها وأشدتها بأساً، وكان برب لواته ساخطين على البيزنطيين كارهين لحكمهم الجائر، وتعسفهم في جباية الضرائب، كما نعموا منهم لكثرة مظالمهم، فعملوا على التخلص من الحكم البيزنطي، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم بفرض الولاء لجيش المسلمين^(٦٣).

بعد إنجاز تحرير برقة توجه الجيش الإسلامي لتحرير طرابلس باعتبارها مفتاح الدخول لقلب إفريقيا وقد تطلب هذا الأمر تسirir جيشين: الأول يسير بمحاذة ساحل البحر بهدف الاستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن الساحل، والثاني يتوجه نحو الداخل بقصد السيطرة على الواحات التي ستؤلف

مراكز المقاومة في قلب البلاد إذا ما تركت و شأنها، فسير عمرو قائده عقبة إلى فزان فحررها ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة وكانت مهمة عقبة – على ما يبدو – هي التأكيد من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل وقوفهم موقفاً حيادياً، ونجح عقبة في هذه المهمة وأصبحت المنطقة الممتدة بين برقة وزويلة آمنة أمام تقدم المسلمين.

سار الجيش الأول قيادة عمرو بن العاص لتحرير إقليم طرابلس ومدن الساحل الليبي، فبدأ بمدينة سرت التي تقع بين برقة وطرابلس، فاستولى عليها، ثم زحف على مدينة لبدة، وكانت قليلة العمران آنذاك، فاستولى عليها، ثم مضى نحو طرابلس وكانت مدينة حصينة، أسوارها من جميع الجهات عدا جهة البحر، فحاصرها شهراً ولم يتمكن من اقتحامها لمنعاتها. وتشير الروايات الخاصة بتحرير طرابلس أن جماعة من الجيش الإسلامي من بني مدلنج فاجئوا الروم من جهة ساحل طرابلس بعد انحسار مياه البحر بسبب حركة الجزر ومهدوا السبيل أمام عمرو لدخول طرابلس، وبعد تحرير طرابلس سير عمرو فرقة من الفرسان إلى سرت (صبراته) فحرروها، كذلك أرسل قائده بسربن أرطأة إلى واحة ودان فحررها سنة ٢٣ هـ وبذلك تم للعرب تحرير برقة والقسم الشرقي من ولاية طرابلس في خلافة عمر بن الخطاب رض ^(١٥).

المبحث الثالث

التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة

بناء المدن الجديدة:

حرص الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رض على إقامة قواعد عسكرية في العراق ومصر تكون بمثابة در هجرة للمقاتلين العرب أطلق عليها اسم "الأمسار" أما الشام فلم تنشأ فيه مثل تلك الأمسار لأن الشام كان فيه الكثير من الدور والمدن التي هجرها أصحابها وجلوا عنها فراراً من الحرب، فاستولى عليها العرب واتخذوها سكناً لهم يغنينهم عن بناء دور جديدة.

إن الأساس الذي أنشئت عليه هذه المدن أو الأمسار هو أن تكون قواعد حربية ومعسكرات للجند، إلا أن هذه المدن قدر لها أن تصبح بعد ذلك مراكز إشعاع فكري وحضاري وديني في قلب الأقطار المحررة، وهذه المدن هي البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر.

تأسيس البصرة:

هناك عدة أدلة تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في اتخاذ مدينة البصرة خلال المرحلة التأسيسية على الأقل، ومن بين هذه الأدلة:

- ١- تتفق آراء بعض المؤرخين الرواد في أن عتبة بن غزوان قد نزل ومن معه من المقاتلين في بداية الأمر في معسكرات متنقلة، فضربوا أولًا الخيام والقباب وال QSاطيط، فلم يكن في البصرة بناء لهم، فهي تعكس فكرة أن الموضع الذي نزل به عتبة كان يمثل مخيماً عسكرياً.
- ٢- حينما نجح عتبة في هجماته رأى أهمية موقع المخيم استراتيجياً في حربه ضد الفرس فكتب إلى الخليفة عمر ﷺ بضرورة اتخاذ هذا الموضع ليجتمع فيه العرب قائلاً ما نصه "لابد لل المسلمين من منزل يشترون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا عن غزوهم".
- ٣- أن الخليفة عمر ﷺ قبل أن يعطي الإنذن بتمصير الموضع اشترط على عتبة أن يوافق هذا الموضع جملة من الشروط والمستلزمات لابد من وجودها وتوفّرها فقال له: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" أي اختار المكان الذي يقع على الأطراف أو الحدود علامة على هذا الشرط فإن الخليفة اشترط: "بأن يجمع أصحابه في موقع واحد ويسكن قريباً من الماء والمرعى".

نستخلص أن الهدف من هذه الشروط الثلاثة هو تأسيس معسكر للمقاتلين العرب ليكونوا على اتصال سهل بالمدينة وليكون مكاناً يضم المقاتلين فحسب.

وبالفعل فقد رکز عتبة بن غزوان في جوابه على رسالة الخليفة عمر رض على المميزات الرئيسية التي تميز به الموضع فإنه: قریب من منابع المياه، يقع على طرف البر، يكثر فيه القص والقضاء. فوافق الخليفة قائلًا إنها أرض قريبة من المشارب والمراعي والمحظب.

لقد كان من المتوقع أن يتّخذ عتبة بن غزوان الأبلة قاعدة عسكرية وعاصمة إدارية ومكاناً للانطلاق للحملات العسكرية القادمة للحملات العسكرية القادمة، فالمدينة قديمة وتتمتع بموقع وأهمية اقتصادية وتجارية متميزة ولكن عتبة لم يتّخذها انطلاقاً من المعايير الرئيسية لاستراتيجية العرب العسكرية، فالابلة ميناء تجاري محاط بالبساتين والأنهار، لذلك ستكون هذه الطبيعة الجغرافية عائقاً أمام الوظيفة التي أنشئت من أجلها البصرة.

وأخيراً استقر الرأي على اتخاذ مدينة البصرة لما لها من أهمية من حيث موقعها كمعسكر للفتوحات الإسلامية، وأصبحت فيما بعد من أعظم مراكز العلم والسياسة وال الحرب في البلاد الإسلامية وأصبح لها شهرة عظيمة في العالم الإسلامي ^(١٦).

تمصير البصرة:

كلمة مصر تعني في اللغات الآشورية والعبرية، والآرامية الحدود، ولها في اللغة العربية مثل هذا المعنى، فيقال: "اشترىت الدار بمصورها"، وجاء عن عمر بن الخطاب رض أنه قال: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" ويقصد أجعلوها على الحدود، ولكن هذه الكلمة أصبح استعمالها منذ زمن عمر رض يقتصر بصورة خاصة على الأماكن السبعة (*) التي اتخذها العرب قواعد عسكرية يقومون منها بحملاتهم الحربية وفتحاتهم وجعلوها مراكز لإدارة البلاد والأقاليم التي يفتحوها وقد ظل الطابع العسكري صفة بارزة لهذه الأمصار طوال القرن الأول الهجري.

وتعتبر البصرة أولى الأمصار التي أمر عمر بن الخطاب رض باحتطاطها، وأول من مصرَ البصرة عتبة بن غزوان في سنة ١٥ هـ بأمر من عمر رض، وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب رض -الذي تمت في عهده أعظم الانتصارات الأولى في الفتوح- أهمية الاستقرار، فأمر في السنوات الأولى من خلافته بتأسيس (أمصال) يستقر فيها المقاتلون وعوائلهم، وتكون قواعد للإدارة ولتحركات الجيوش العربية، ومع أن الغالبية العظمى لسكان هذه الأمصار هم من المقاتلين إلا أن الغرض الأساسي من تأسيسها هو تأمين الاستقرار، وتنبيت نظم إدارية، وتسخير الحياة المدنية، إلا أنها سرعان ما نمت فيها حياة اقتصادية وفكرية عميقة واسعة طغت بمرور الزمن على السمة العسكرية، وأصبحت من

أعظم المراكز الحضرية لا في دول الإسلام فحسب وإنما في العالم المتحضر عموماً.

وفي رواية حول تنصير البصرة (ينظر علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما نزل عتبة بن غزوان، الغريبة كتب إلى عمر بن الخطاب ^{عليه السلام} يعلمه نزوله بها، وإنه لابد للMuslimين من منزل يشترون به إذا شتوا وإذا رجعوا من غزوهم لجوؤا إليه، فكتب إليه: "اجمع أصحابك في موقع ول يكن قريباً من الماء والمرعى" فكتب عتبة بن غزوان كتاباً يقول فيه: "إني وجدت أرضاً كثيرة القضية في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ماء فيها قصباء"، فلما قرأ الكتاب قال: "هذه أرض نصرة، فأنزل بها الناس، وبنوا مساكن بالقصب، وبنوا مسجداً.

وقد اختلف المؤرخون حول زمن تنصير البصرة، فكان نزول المسلمين فيها سنة ١٤هـ، إلا أن تخطيطة لم يتم إلا سنة ١٧هـ ومن هنا نشأ الاختلاف، وذكر ابن الأثير أنها مصرت في سنة ١٤هـ.

إلا أنه يقول: في رواية أخرى (أنها مصرت في ربيع - سنة ١٦هـ) على أن بعض المؤرخين ذكروا أنها مصرت في سنة ١٥هـ، ويقول الهمданاني: "ويبدو أن نزول المسلمين أولًا في الخيام، ثم سمح لهم عمر ^{عليه السلام} باستخدام القصب ثم اللبان، كان سبب الخلاف في تحديد الزمن الذي مصرت فيه".

ويقول البلاذري: "إن أبا موسى الأشعري ولـي البصرة سنة ١٦" ويقال سنة ١٧هـ، وثبتت أن أبا موسى ولـي البصرة في سنة ١٦هـ وهذا يقتضي أن عتبة أرسل قبل ذلك التاريخ، وتقرب هذه الرواية من ادعاء سيف بن عمر "أن البصرة

مصرت في ربيع - سنة ١٦هـ، وأن عتبة بن غزوان خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلواء وتكريت ولعله وجهه إليها سعد بأمر عمر بن الخطاب. ويجد أن نشير إلى أن الواقدi يقول: "أنشئت البصرة سنة ١٧هـ من التأريخ، قبل الكوفة بستة أشهر، وأنشئت الكوفة سنة ١٨هـ من التأريخ" ومع أن التاريخ مذكور عن تأسيس البصرة، إلا أنه يوحي بتأخير إرسال عتبة بن غزوان إلى البصرة^(٦٧).

لم تتفق الآراء تماماً حول توقيتات إيفاد عتبة إلى المنطقة، وظهور البصرة فضلاً عن التناقض في علاقات الواقع وعرض الظروف التي رافقت التأسيس ويمكن القول أن هناك مجموعتين مختلفتين من الروايات، الأولى تجعل من سنة ١٤هـ / ٦٣٥م تأسيس المدينة وأن الخليفة عمر هو الذي أرسل عتبة في شهر ربيع الأول من تلك السنة لفتح الأبلة بعد مقتل شريح بن عامر الذي كان قد أول إليه قيادة عمليات المشاغلة والإغارة على القوات الفارسية هناك، فمكث عتبة عدة أشهر دون قتال، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يوجه بدله عبد الرحمن بن سهل، لكنه مات قبل أن يصل البصرة، فانتدب العلاء بن الحضرمي الذي كان في البحرين ليتوجه إلى البصرة ويحل محل عتبة، وقد توفي هذا أيضاً، وفي هذه الأثناء أغاث عتبة ففتح الأبلة ثم الفرات وبرقاد، وفي هذا السياق نجد رواية أخرى أن الخليفة عمر بن الخطاب ولد عتبة أمر فتح الأبلة بعدما بلغته أخبار قطبة بن فتادة، وما كان يقوم به من غارات على الفرس وما أبداه

وقومه من مساعدة للقائد خالد بن الوليد عندما اجتاز منطقة البصرة سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م متوجهاً نحو الكوفة.

أما المجموعة الثانية من الروايات فتشير إلى أن البصرة أُسست سنة ١٦ هـ وأن عتبة توجه إلى منطقة البصرة بناء على أوامر من القائد العام للجيوش الإسلامية في العراق سعد بن أبي وقاص، وكان تحت إمرته، وكان سعد قد تسلم أمراً من الخليفة عمر بهذا الشأن حول إيفاد عتبة إلى تلك المنطقة، فيذكر الطبرى أن سنة تنصير البصرة هي ١٦ هـ / ٦٣٧ م بينما يحددها اليعقوبى سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م، ويقول ابن الفقيه أن عتبة نزلها سنة ١٦ هـ ومصرها سنة ١٧ هـ أما رواية المسعودى وهي الأقرب إلى الدقة فتشير إلى وقوع حادثتين الأولى كانت سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م عندما وصل عتبة أراضي البصرة وأقام فيها مسكنراً مؤقتاً اتخذه كنقطة انطلاق لغزوات محدودة على التخوم القريبة، والثانية هي تنصير البصرة في شهر محرم سنة ١٧ هـ أو في ربيع الأول أو الثاني سنة ١٦ هـ.

إن التدقيق في تلك الروايات يكشف لنا أن هذا التناقض أو الاختلاف هو مفتعل ولا ينسجم وسير الأحداث، وربما أوجدهه دوافع وظروف أخرى، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن أصحاب القرار في شبه جزيرة العرب قد فكروا بتأسيس مدينة مستقرة أو (دار هجرية) حضرية، والأمر لم يحسم بعد على أرض العراق في تلك المواجهة العسكرية مع الإمبراطورية الساسانية ونعتقد أنه لا يصح الحديث عن موضوع تأسيس أو تنصير مدينة قبل النصر الحاسم في

القادسية وطرد فلول الجيش الساساني من أرض العراق واستقرار الأمور نهائياً لصالح المسلمين.

يمكنا أن ننتهي إلى أنه كانت هناك لحظتان واضحتان في ظهور البصرة، الأولى تمثلت في الإقامة المؤقتة سنة ١٤ هـ بعد معركة البويب مباشر، والثانية هي الإقامة الدائمة المصحوبة بالتحطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية، وفراغ العرب من السيطرة على العراق وطرد القوات الساسانية منذ سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م، وينسب المؤرخون المسلمين بحق تأسيس البصرة إلى الصحابي عتبة بن غزوان.

تأسيس الكوفة:

كان تأسيس الكوفة إحدى الضرورات الحربية التي اقتضتها طبيعة الفتح الإسلامي لبلاد فارس في زمن عمر بن الخطاب رض فقد اندفع الجيش العربي تحت قيادة سعد بن أبي وقاص بعد فتوح السواد بين المدينة حاضرة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وبين ميدان القتال، فكان من الضروري أن يتخد الجيش الإسلامي المحارب نقطة ارتكاز له أو معسراً ثابتاً قريباً من ميدان القتال فأصدر عمر أمره إلى سعد بأن "يتخذ للمسلمين دار الهجرة وقيرواناً" وكان سبب اتخاذها أن المسلمين اتخذوا المدائن قاعدة حربية لهم بعد موقعة القادسية واستمرت كذلك حتى شاهد عمر بن الخطاب رض تغيراً في وجوه من نزلوها

وضعفاً، فسألهم عمر بن الخطاب ﷺ عن سبب ذلك فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا، فأمرهم أن يرتدوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين.

وقيل: بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر: أن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاءها وتغيرتألوانها، وقد كان حذيفة مع سعد، فكتب عمر إلى سعد: "أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم" فكتب إليه سعد: "إن الذي غيرهم أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إيلها من البلدان" فكتب إليه عمر: "أن أبعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتدوا منزلاً برياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر" فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار فسار في غربي الفرات لا يرض شيئاً حتى أتى الكوفة.

وكان من العوامل التي دفعت العرب إلى اتخاذها من أجل تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق أو دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن، فسكنتها القبائل العربية، وأيضاً لأن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة بلاد فارس فظهر على جنده السقم لاعتراضهم جو الصحراء، حيث سرعان ما كره العرب المدائن لرداءة جوها، وبعث عمر بن الخطاب ﷺ لهم يقول: "إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل" وأيضاً لأن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن لا يتذدوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها، وأمر بثاقب بصيرته أن يبني لهم معسكراً على حدود الجزيرة الشرقية حتى يظل اتصالهم بالجزيرة وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة.

وكذلك لأنه عندما نزل سعد الأنبار فاحتلوها وأصابهم الحمى فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فكتب إلى سعد أنه لا تصلح العرب إلا حيث يصلح البعير والشاة في منابت العشب فانظر فلة في جنب البحر فارتدى المسلمين بها منزلا، وأيضاً لأنه عندما نزل المسلمون المدائن وطال بها مكثهم وآداهم الغبار والذباب فرءوا أن يغيروا المكان والانتقال إلى مكان يناسبهم فنزلوا إلى الكوفة واتخذوها بلاد والاستقرار بها، وقد اشترط عمر بن الخطاب عليه السلام القيام بإنشاء المدينة بالقرب من مراكز قديمة هي الحيرة، وأن يراعوا في اختيارها أن يكون مناخها مناخاً صحرائياً وكذلك أن تكون على أطراف المنطقة الزراعية (الريف) ولا يفصلها عن الجزيرة أي حاجز مائي قد يعيق حركة الجنود أو الهجرات إليها، وفي رواية الطبرى أنه عندما رجع سعد بالناس من جلواء قدم عمار وخرج بالناس إلى المدائن فاحتلوها، قال عمار: هل تصلح بها الإبل، قالوا: لا، إن بها البعوض، قال عمر: إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل، قال: فخرج عمار بالناس حتى نزل الكوفة.

وتحتفل الروايات في طريقة اهتداء سعد إلى هذه المنطقة التي اختطف فيها الكوفة، وأياً ما كانت الرواية الصحيحة فإن النتيجة التي نصل إليها من بين هذه الروايات المختلفة هو أن اختيار الموضع الذي قد تم فيه تأسيس الكوفة لم يكن أمراً مرجلاً إنما كان بعد نظر طويل وبحث دقيق وهي نتيجة لا تقبل اختلافاً ولا يطعن فيها تعدد الروايات التي انتهت بنا إليها.

أما بصدق تاريخ تمسير الكوفة: فهناك تباعاً واختلافاً في سنة تمسيرها فالبعض يجعل تأسيسها في سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م وهناك من المؤلفين من جعل سنة تمسيرها سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م، وقد ذكر المسعودي أيضاً أن سعد بن أبي وقاص قد مصرَّ الكوفة في سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م^(٦٨). في حين يرى آخرون أن تأسيسها في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م، وهم من المؤلفين القدامى ويرى آخرون بأن تأسيسها سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م ورأي آخر يشير إلى أنها مصرت في سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م، ولكن المتفق عليه أنها مرت بعدة مراحل قبل التمسير النهائي الذي جاء بعد تمسير البصرة، وتم اختيارها وتوزيع خططها في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م.

تأسيس الفسطاط:

أول ثمار تحرير مصر تأسس الفسطاط فقد ذكر أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأننه في ذلك فسأل عمر بن الخطاب ﷺ هل يحول بياني وبين المسلمين ماء فأجابه عمرو بن العاص نعم يا أمير المؤمنين فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص لا أحب أن تنزل المسلمين متزلاً يحول الماء بياني وبينهم فتحول عمرو من الإسكندرية إلى المكان الذي سمي فيما بعد الفسطاط.

بنيت مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ وذلك بناء على رغبة أمير المؤمنين على غرار البصرة والكوفة في العراق، وأصبحت عاصمة البلاد ومركزاً إسلامياً وقاعدة عسكرية يمكن للعرب أن يواصلوا منها التقدم نحو المغرب، وكان عمرو

ابن العاص يريد أن يتخذ له حاضرة ليستقر فيها وكان اختيار المكان طبيعياً ولم يكن اختياراً اعتباطياً.

بني عمرو بن العاص أول مسجد للإسلام في مصر وكان يسمى جامع عمرو بن العاص أو (الجامع العتيق).

وذكر أن مكان المسجد كان خاناً لقيسية بن كلثوم من بنى سوم سأل عمرو قيسية في منزله هذا أن يجعله مسجداً فقال قيسية أنت تصدق به على المسلمين فسلمه إليهم واختط مع قومه وبني الجامع في سنة ٢١ هـ وكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً.

بني المسجد على نفس النسق الذي بني عليه مسجد النبي عليه السلام في المدينة وإلى جانب المسجد الجامع بني عمرو بن العاص دار الإمارة ثم قسم الأرض فيما حول المسجد ودار الإمارة إلى خطط وزرعها على القبائل العربية التي استقرت في المدينة وأصبح المسجد مع مرور الوقت موضع عناية الولاية والأمراء فأخذ يزداد في حجمه ومكانته.

وقام العرب بحفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر فسارت السفن من مصر إلى الحجاز وسميت بخليج (أمير المؤمنين) كما فتحوا الترعة والجداول التي أهملها الرومان وأصلحوا طرق المواصلات فتحسن حال الفلاحين.

وبخصوص تسمية الفسطاط فقد تعدد الآراء في تسمية هذا المكان بالفسطاط، فالرأي الأول يعتمد على قصة اليمامة، وأن عمرو بن العاص عندما

أراد التوجه لتحرير الإسكندرية أمر بتنزع فسطاطة (الخيمة) فإذا به يمامه قد باضت بيضها، فقال عمرو: تحرم علينا فأقرها هو عليه وأوصى به حتى تفرخ اليمامه وتطير صغارها.

وعند رجوع المسلمين من الإسكندرية بعد أن أوصاهم عمر بن الخطاب
﴿لَا يَرْجِعُ الْبَقَاءُ إِلَّا حَوْلَ الْمَاءِ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ نَنْزِلُ؟﴾

قالوا: الفسطاط يعنون فساطط عمرو بن العاص الذي خلفه بمصر،
وهناك رأي آخر أن كل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط وإنها كلمة تعني
المدينة.

والرأي الثالث يقول أن الكلمة الفسطاط قد أخذت من الكلمة الإغريقية Fessatum بمعنى المدينة وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بها وأصحاب هذا الرأي غالبيتهم من مؤرخي الفرنجة، وفريق آخر يقول أن الكلمة الفسطاط تعني المعسكر^(٦٩).

كانت هذه الأمسار ثمرة من ثمار حركة التحرير العربية الإسلامية التي انطلقت من شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، وقد لهذه الأمسار أن تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية للدولة العربية الإسلامية، وأن تصبح مراكز علمية هامة في العصر الإسلامي، حتى قيل أن تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والحضاري خلال القرون الأولى للهجرة كان تاريخ هذه المدن والأمسار، والملاحظ في بناء هذه المدن الإسلامية أن العرب حرصوا عند تخطيط هذه المدن أن تكون داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض

للغزوات البحرية، كما راعوا فيه أيضاً أن يتوفّر فيها ما يتناسب مع حياتهم البدوية من مراعي الإبل وما يصلح لها، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... وقد يكون الوضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي احتطواها في العراق وأفريقيا، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلّف ولا غير ذلك كالبصرة والكوفة والقيروان وأمثالها" ^(٧٠).

ولابد من الإشارة إلى مسألة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بإدارة البلاد المحررة والمفتوحة وهي إقرار عمر بن الخطاب ^{رض} الاحتفاظ بالنظم الإدارية السابقة على الإسلام في تلك البلاد حتى لا تضطرب الأمور وتسود الفوضى، فضلاً عن عدم توفر الكفاءات العربية الازمة للإدارة خاصة في الأمور الكتابية وشؤون الخراج وجبايتها، وقد استبعد المسلمون من هذه النظم كل ما لا يتفق مع تقاليد العرب ومبادئ الإسلام الحنيف.

التنظيمات المالية:

الديوان:

أدت الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام والعراق إلى ضرورة استقرار الجند، وإقامة معسكرات في البصرة والكوفة في العراق اللتان أمر ببنائهما لتكونا معسكرات دائمة للفاتحين وقادعين حربتين - كما أشرنا - لكي يتم من خلالهما توجيه الجيوش إلى بلاد فارس، هذا بالإضافة إلى كونهما مراكز لنشر الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد فارس، وكان المسلمون يحاربون حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رض بدون عطاء أو رزق معين، بل كانوا كلما غزوا بلداً أخذوا نصيبيهم من الفي والغنية، وعندما تعاقبت الفتوحات الإسلامية وازدادت الدولة في الاتساع أصبح هذا النظام قديماً، فكان من الواجب عندئذ تطبيق نظام جديد، ومن هنا أقر عمر بن الخطاب نظام الديوان.

ونذكر ابن خلدون في مقدمته أن: "من الوظائف المهمة للدولة وظيفة الدواوين وهي القيام على أعمال الجباية وتسجيل مخصصات الدولة في الداخل والخارج وعداد الجنود وتسجيل أسمائهم وتقدير مرتباتهم وصرف مكافآت لهم والعودة في ذلك إلى القوانين التي يتصفها رعيته، تلك الأعمال جميعها مدونة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك من الداخل والخارج يعتمد على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا الموظفين المهرة من أهل تلك الوظائف ويسمى ذلك الكتاب بالديوان" ^(٧١).

فالديوان وضع لحفظ كل ما يختص بحقوق البلاد من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وبهذا المفهوم لم يكن للديوان وجوداً في زمن الرسول ﷺ أو الخليفة الأولى أبي بكر الصديق ؓ ذلك أن الرسول ﷺ وكذلك الخليفة أبي بكر لم يفرض أي منها عطاء مقرراً للمسلمين، بل كانوا يأخذون نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة، وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي عليهم في المسجد.

وقد تعددت الآراء في أصل كلمة ديوان فمنها من يقول أنه عربي ومعناه الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بها جاء فيه، ومنها قول أنت عباس: "إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"، ويقال دونته أي أثبته وإليه يميل كلام سيبويه.

أما السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف عرف العرب الديوان؟ مما لا شك فيه أن الخليفة عمر بن الخطاب ؓ يعد واضع أسس الحكم الإسلامي من الناحية العملية، ويستدل على ذلك بقول المؤرخين: إن عمر أول من وضع الديوان أو دوّن الدواوين، وقد كان أغلب موظفي الدواوين من أهالي البلاد المفتوحة لأن معظم العرب خاصة في أول أمرهم، لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة إلا في حالات قليلة.

لهذا لم يشترط عمر بن الخطاب في الكتاب أن يكونوا عرباً أو مسلمين وقد أنشأ عمر بن الخطاب الديوان في سنة ٢٠ هـ بعد فتح بلاد الشام وال العراق

ليكون سجلاً يحوي قائمة بأسماء الجنود المقاتلين وأنسابهم وأعطياتهم، وكان الديوان مفتوحاً للعرب جميعاً متى التحقوا بالمقاتلين في المراكز التي خصصت لهم.

ولم يكن للجند عطاء معين زمن الرسول ﷺ بل كان يجري تقسيم الغنائم خمسة أقسام، واحد منها للرسول ﷺ وأربعة أخmas تقسيم بين رجال الجيش، وكذلك كان الحال زمن أبي بكر كما سبق الإشارة كذلك، فلما جاء عمر بن الخطاب لم يأخذ بمبدأ التسوية في العطاء بل وضع للجند ديواناً رتبهم فيه.

ويشير الطبراني إلى أن عمر بن الخطاب فرض لأهل الفيء للذين أفاء الله عليهم من سكان المدائن والقادسية وبلاد الشام الذين انتقلوا إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر، وقال: "الفيء لأهل هؤلاء الأمصار لمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولن يفرض لغيرهم".^(٧٢)

وتععددت الآراء في سبب وضع الديوان، فأرجعه ابن خلدون في مقدمته لسبب أنا مالاً جاء به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فسأله عمر بن الخطاب رض عن قيمته فأخبره أنها خمسة آلاف ألف درهم فاستكثروه وتبعوا في قسمه إلى إحصاء الأموال وخطب العطاء وال الحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: لقد رأيت ملوك الشام يدونون فوافقه عمر في ذلك ثم دعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجibir بن مطعم، وكانوا من شباب قريش، وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم.

وفي رواية أخرى أن عمر بن الخطاب رض استشار الصحابة فيما فعل بالأموال الكثيرة هذه فكان قول الإمام علي بن أبي طالب إليه أن تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال فلا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يكفي الناس، وإن لم يحصلوا حتى تعرف من أخذ من لم يأخذ، وذلك مخافة أن ينتشر الأمر وهذه الرواية تشير على أن نشأة الديوان تعود إلى أصول عربية.

وذكر بعض الإخباريين في رواية أخرى أن عمر بن الخطاب رض حين شاور الصحابة في تدوين الدواوين قال: "رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض فارس، وقد غنمنا الله أموالهم وأراضيهم وعلو جهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ..." فأيدوه الصحابة فيما قال.

فدعى مجموعة من رجالات قريش وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم فبدؤوا ببني هاشم ثم اتبعوهم أبا بكر وأهله وعثمان وأهله ثم عمر بن الخطاب وأهله ودونوا القبائل ووضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ما تم تدوينه إلى الخليفة عمر، فرفض ذلك، وأمر أن تكون البداية بقرابة رسول الله الأقرب ثم الأقرب فرتبوا الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم الرسول صل ثم بني هاشم ثم من يليهم من قبائل قريش بطن بعد بطن حتى يستوفى جميع قريش، ثم قام بتدوين الأنصار، فبدأ برهط سعد بن معاذ من الأوس ثم الأقرب فالأخير لسعد.

وقد قيل أنه بدأ بمن شهد بدر من المهاجرين والأنصار لكل رجل خمسة آلاف درهم في كل سنة ومعهم أحلافهم ومواليهم على السواء، وفرض لمن له

إسلام كإسلام أهل بدر، وكذلك من هاجر إلى الحبشة من شهد معركة بدر أربعة آلاف درهم لكل رجل، وفرض لمن شهد فتح مكة وقاتل قبل معركة القادسية ثلاثة آلاف، ولأهل القادسية والشام ألفين ألفين، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقرايته برسول الله ﷺ، وفضل على من شهد معركة بدر أزواج الرسول فجعل لكل منهم عشرة آلاف ما عدا السيدة عائشة ففرض لها اثنى عشر ألفاً، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ولم ينقص أحداً عن ثلثمائة ولم يغفل الديوان حق من أسلم من العجم في العطاء.

وبهذا نلاحظ أن القاعدة التي اتبعها عمر مقاييساً لتوزيع العطاء فكانت لها خلفيات متصلة بمبدأ أساسه النسب والقرابة برسول الله ﷺ ثم بمبدأ الأسبقية في الإسلام أو المشاركة في أحاديث التاريخية البارزة خاصة المعارك الأولى^(٧٣).

وأنشئت في زمن عمر بن الخطاب عدة دواوين أخرى غير ديوان العطاء منها ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات الموجودة قبل زمنه فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط التغور، ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من أن يقوم بها العرب لأن أولى بهم فرائض الدفاع والجهاد، فلو وجد منهم من يتقن تلك الأعمال وكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أكبر من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل السوري من مصلحة سورية، والعراقي من مصلحة العراق أجدر.

العملة:

لم يكن للعرب عملية خاصة بهم قبل الإسلام وذلك لعدم وجود نظام دولة في منطقة الحجاز بالمعنى المعروف للدولة، لذلك أبقى الخليفة عمر بن الخطاب رض على نظام العملات المتداولة في البلاد المحررة والمفتوحة وهي عمليات فارسية في العراق والشرق ورومية في الشام وشمال أفريقيا وحميرية في اليمن، وهي عمليات كان يتعامل بها العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، ومن المعروف أن الرسول صل أقر "العملة" على ما كانت عليه وأن المسلمين كانوا يتعاملون في عصر الرسول بهذه العملات لأنه لم يكن من اليسير على العرب في هذه المرحلة أن يسكوا عملات جديدة لأنفسهم في ظروف دولتهم الناشئة تلك، بينما يرجع ابن خلدون ذلك إلى "سذاجة العرب وبداؤتهم" ^(٧٤).

لقد تعامل العرب في الحجاز تجاريًا مع البيزنطيين والفرس، وكان من الطبيعي أن يستخدموا العملات هذين الشعوبين في معاملاتهم معهم، وهي الدرهم الساساني (الفضي)، والدينار البيزنطي (الذهبي)، واستمر التعامل بها في زمن الرسول صل وكذلك في خلافة أبي بكر الصديق رض.

وبعد تحرير بلاد الشام وال伊拉克 ومصر وبرقة في زمن عمر بن الخطاب رض وانسياح العرب الفاتحين في هذه البلاد وإدارتها لم يفكروا في تغيير السكّة ذات النقوش المسيحية (البيزنطية) أو تغيير السكّة ذات الطابع المجوسي (الساسانية) ما دامت هذه السكّة مألوفة لديهم وما دامت تؤدي الغرض منها بين

الغالبين والمغلوبين، وما دام الإبقاء على هذه العملات يساعد على استقرار البناء الاقتصادي في الدولة العربية الإسلامية، لذلك كان قرار عمر الإبقاء على هذه العملات الفارسية بنقوشها البهلوية والبيزنطية بنقوشها اليونانية، ومع ذلك فقد حرص عمر بن الخطاب عليه السلام على إضافة بعض النقوش والكتاب العربية ذات المعانى الإسلامية مثل "الحمد لله" و"محمد رسول الله"، كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمة "جائز" وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة "طيب" أو "واف" إشارة إلى الوزن الصحيح، والملاحظ أن أسماء المدن كانت ت نقش باليونانية والعربية معاً كدمشق وحمص وطبرية وبعلبك وإيليا وقنسرين ^(٧٥).

نظام الضرائب:

من جانب آخر أقر الخليفة عمر بن الخطاب عليه السلام النظم المالية الأساسية في العراق وفارس بينما أقر النظم البيزنطية في الشام ومصر، وكان ذلك سبباً في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخارج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق عنها في الشام ومصر، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف، اختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الأراضي المفتوحة، وكان من الصعب جداً في تلك الظروف والتطورات المت sarعة أن يقدم الخليفة عمر عليه السلام على نقل هذه الدواوين إلى اللغة العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً يعرضه على الدولة العربية كلها.

وأهم الضرائب في هذه المرحلة هي: الخراج والجزية، والخرجاج هو ما وضع على الأرض من حقوق تؤدي عنها ويختلف مقدار هذه الضريبة باختلاف ما صولح عليه المقلوبون من أرضهم عنوة أو صلحاً بغير قتال، مع مراعاة نوعية الأرض بالنسبة للزروع تزييد أو نقل من المحاصيل والغلات، ونوعية الزروع، ونوعية السقي سواء بالأمطار أو الدوالى أو السقى السيني المباشر من الأنهر^(٧٦).

أما الجزية فضربية على الرؤوس يلتزم بها أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس والصانبة، اسمها مشتق من الجزاء، ولا تجيء من النساء والصبيان والشيوخ أو من العبيد، وكانت قابلة للتعديل بحسب حالة الشخص، وقد فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم وعدم انخراطهم في الجيش الإسلامي.

بيت المال:

في خلافة عمر بن الخطاب أنشئ بيت المال، وكان الهدف منه حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، ثم تطور نظام بيت المال وتعددت موارده، وكانت هذه الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات التي تفرض على المسلمين وتعد رصيداً مالياً للإنفاق على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وفي الرقاب وفي سبيل الله.

وفي أعقاب النجاحات التي تحقق في حركة الفتوح في زمن عمر ^{٦٣} حدث تطور هام في نظام بيت المال ومصادره، فأصبحت موارده من الفائض من مال الخراج والجزية والعشور بعد استبعاد النفقات العامة ونفقات الجيش، كما ضمت إليه الأراضي التي جلا عنها أهلها وأملاك العائلة الساسانية الحاكمة في فارس بعد سقوط دولتهم، وسميت بالصوافي^(٧٧).

تنظيمات إدارية أخرى:

القضاء:

الشؤون القضائية في البلاد المفتوحة كان يشرف عليه بالنسبة للعرب رجل دين يسمى "القاضي" وإن كان عليه أن يشرف على الفيء والغنائم أيضاً، أما الشؤون الخاصة بالقضايا بين الرعية يشرف عليها رجال الدين من أهالي البلاد المفتوحة، ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في خلافة عمر، بحيث أنه كان من الجائز أن يشكوا أحد الرعايا عامل الخليفة للخليفة^(٧٨).

التاريخ الهجري:

ذلك يرجع الفضل في تنظيم مسألة التاريخ الهجري، فالعرب كانت تتبع تواريخ مختلفة على حسب الأحداث التاريخية المهمة مثل: يوم الفيل والسيل والعرم، لكن بمجيء الإسلام وقع اختيار المسلمين على سنة هجرة النبي إلى المدينة سنة ٦٢٢ م مبدأ لتقويمهم، لأن تاريخبعثة مختلف فيه، كما أن وفاته

كانت تشير الحزن والشجن، مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة لأنها حدث فرق بين الحق والباطل ومنعرج كبير في التاريخ الإسلامي لم يختلفوا في تاريخه. ومع ذلك فمن المؤكد أن التاريخ المجري لم يتخذ أساساً للتقويم إلا في خلافة عمر بن الخطاب رض حوالي سنة ٦٣٨ هـ / ١٧ م والذي دعاه إلى ذلك هو أن الخلافة الإسلامية كانت قد اتسعت واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتاريخ كتابهم إليهم، أما قبل ذلك في عصر الرسول وأبي بكر فكان يؤرخ ببني إقامة النبي في المدينة.

وقد اتّخذ العرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية وهي التي وردت في القرآن الكريم عدة مرات "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب"^(٧٩). وعلى الرغم من أن الهجرة كانت في ربيع الأول فإن المسلمين اختاروا شهر المحرم بداية لتاريخهم لأنه شهر حرام، وأنه أول الشهور في العدة ومنصرف الناس من الحج، فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتي: (المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، Shawal، ذو القعدة، ذو الحجة) ولأن الليل سابق النهار اتّخذ التاريخ المجري الليلي أساس التوقيت، لذلك ظهر عند العرب بعض التعبيرات الخاصة بهم منها: أول ليلة في الشهر أو العام، أو ليلة خلت، أو لثلاث خلون من الشهر... الخ.

هوامش الفصل الثاني

- ١- محمود الدرة، معارك العرب الكبرى، بيروت، ١٩٦٤، ص ٣٣٢.
- ٢- البلاذري، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.
- ٣- شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملاتين، بيروت، ١٩٨٢، ص ٧١.
- ٤- البلاذري، ص ٣٥٥، الطبرى، ج ٣، ص ٦٧.
- ٥- الطبرى، ج ٣، ص ٦٧.
- ٦- البلاذري، ص ٣٥٦.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٣٥٨، ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٦٢.
- ٨- شكري فيصل، ص ٧٨.
- ٩- معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤ - ٤٥.
- ١٠- ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٦٨.
- ١١- لذلك يطلق عليهم "البارثيون" أيضاً.
- ١٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥١ - ٤٥٢.
- ١٣- محمد خالد، أعلام الصحابة المجاهدون، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٢.
- ١٤- ابن أثيم الكوفي، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ج ٣، ص ١٩٥.
- ١٥- محمود الدرة، ص ٣٥٢ - ٣٥٤.
- ١٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٣.

- ١٧ - سيف الدين الكاتب، المثنى بن حارثة الشيباني، ط٨، دار اقرأ، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٥-٧٦.
- ١٨ - انظر: محمود الدرة، ص ٣٥٥-٣٥٧.
- ١٩ - أحمد عادل كمال، الفادسية، ط٩، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٩.
- ٢٠ - ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٦-٤٥٧.
- ٢١ - الذبيوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، د.ت. ص ١٢١-١٢٢.
- ٢٢ - ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٧.
- ٢٣ - محمود الدرة، ص ٣٧٠-٣٧١.
- ٢٤ - ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٧.
- * - تاريخ هذه المعركة مختلف عليه فالطبرى وابن الأثير يجعلونها في المحرم، سنة ١٤هـ، وإن كان كل منهما يشير إلى احتمال وقوعها في سنة ١٥هـ وربما في سنة ١٦هـ، ولكن أرجح الآراء تؤكد أن المعركة كانت سنة ١٥هـ/٦٣٦م.
- ٢٥ - الذهبي، تاريخ الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧، ج ٣، ص ١٤٣.
- ٢٦ - ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٧٣-٤٧٤.
- ٢٧ - الطبرى، ج ٣، ص ٥٦٣-٥٧٤، ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٧٥.
- ٢٨ - محمود الدرة، ص ٣٨٣-٣٨٢.

- * - ويقصد بها على ما نعتقد تركيز بعض الأخشاب في الماء ليستريح عليها السباح.
- .٢٩ - الدنiyorى، ص ٩٦
- .٣٠ - الدخان: ٢٥
- .٣١ - الدنiyorى: ٩٦ - ٩٨
- .٣٢ - المصدر نفسه، ص ٩٨ - ٩٩، محمود الدرة، ص ٣٨٩
- .٣٣ - الطبرى، ج ٤، ص ٣٥ - ٣٧
- .٣٤ - المصدر نفسه ص ٣٨
- .٣٥ - محمود الدرة، ٣٩٧، أبو زيد شلبى، خلفاء راشدون، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٢٦ - ١٢٧.
- .٣٦ - البلاذرى، ص ٣٦٤
- .٣٧ - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٩٩
- .٣٨ - المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠٠
- .٣٩ - الدنiyorى، ص ١٢٨ - ١٢٩
- .٤٠ - المصدر نفسه، ص ١٢٩
- .٤١ - الدنiyorى، ص ١٣٠ - ١٣٤، ابن الأثير، ج ٤، ص ٤ - ٧
- .٤٢ - الطبرى، ج ٤، ص ١٢، الدنiyorى ص ١٣٧، البلاذرى ٣٧٥
- .٤٣ - البلاذرى، ص ٣٧٧
- .٤٤ - الدنiyorى، ص ١٣٩ - ١٤٠
- .٤٥ - البلاذرى، ص ٢٦٠ وما بعدها.

- ٤٦ الطبرى، ج٤، ص٥٤.
- ٤٧ البلاذري، ص٢١٨.
- ٤٨ الطبرى، ج٤، ص٣٢.
- ٤٩ المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤، ابن الأثير، ج٢، ص٤١٢.
- ٥٠ البلاذري، ص٢٢١.
- ٥١ ابن الأثير، ج٢، ص٤٢٨، البلاذري، ص٢٢٢.
- ٥٢ البلاذريين ص٢١٤.
- ٥٣ المصدر نفسه، ص٢١٥.
- ٥٤ ابن الأثير، ج٢، ص٤٩٦.
- ٥٥ الطبرى، ج٤، ص١٥٩.
- ٥٦ البلاذري، ص٢٢٧.
- ٥٧ أنظر: ابن عبد الحكم القرشي، ص٨٠ وما بعدها، البلاذري ٢٤١ وما بعدها.
- ٥٨ ابن عبد الحكم، ص٨٥ وما بعدها.
- ٥٩ البلاذري، ص٢٥٩.
- ٦٠ ابن عبد الحكم، ص١٠٦.
- ٦١ المصدر نفسه، ص١١٤.
- ٦٢ المصدر نفسه، ص١٣٠ - ١٧١.
- ٦٣ ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب، تحقيق ليقى بروفسال، بيروت، ١٩٥٠، ط١ ج١.

- ٦٤ ابن عبد الحكم، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
- ٦٥ البكري، معجم ما استعجم، ص ١٢.
- ٦٦ البلاذري ٣٣٦ - ٣٤١، الطبرى، ج ٤، ص ١٤٨، المقدسى، ص ١١٧.
- * - وهي: المدينة، الشام، مصر، الجزيرة الفراتية، البحرين، الكوفة، والبصرة.
- ٦٧ الطبرى، ج ٣، ص ٢٩٠، البلاذري، ص ٣٤١، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٢٥.
- ٦٨ الطبرى، ج ٣، ص ٢٩٣، المسعودي، ج ٣، ص ٦١١.
- ٦٩ ابن عبد الحكم، ص ٨٩، ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٦٤.
- ٧٠ المقدمة، ص ٦٢٠.
- ٧١ المصدر نفسه، ص ١٩٢.
- ٧٢ انظر: أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٤٤، البلاذري، ص ١٩٢، الطبرى، ج ٤، ص ١٦٤.
- ٧٣ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٦٢.
- ٧٤ عبد الرحمن، فهى، النقد العربية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٨.
- ٧٥ أبو يوسف، الخراج، ص ٣٧، ٤٨.
- ٧٦ المصدر نفسه، ص ٥٧.
- ٧٧ ابن الأثير، ج ٢، ٣٣١.
- ٧٨ يونس: ٥.

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

المبحث الأول: نشأته، بيعته بالخلافة، سياساته

المبحث الثاني: فتوحاته وأهم أعماله

المبحث الثالث: الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

المبحث الأول

نشأته وبيعته بالخلافة

التعريف به:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي فهو قرشي أموي، يجتمع مع رسول الله ﷺ في "عبد مناف"، ولد بعد ميلاد الرسول ﷺ وقيل أنه ولد بعد عام الفيل بست سنين، وأمه أروى بنت كريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وجسده لأمه هي البيضاء أم حكم بنت عبد المطلب عممة رسول الله ﷺ وبذلك يكون عثمان قد التقى في نسبة من جهة أبيه ومن جهة أمه مع النبي ﷺ بل هو أقرب الخلفاء الراشدين رحماً من النبي بعد علي بن أبي طالب ﷺ.

ولد عثمان عليه السلام بالطائف، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده، فقد نشأ في نعمة وعيش خفيض، وكان أبوه تاجر بنى أمية، وقد مات في إحدى رحلاته وتراك لابنه عثمان ثروة طائلة، فاشتغل بالتجارة مثل أبيه واستثمر أمواله خير استثمار فدرَّت عليه أرباحاً كثيرة جعلته من كبار الأغنياء.

عاش عثمان رض في صباه وفي شبابه عيش أمثاله من الموسرين من قريش عامة ومن بني أمية خاصة، ولا غرو فقد كان تاجرًا مرموقاً قبل الإسلام أساءت أمانته وكرم سجاياه في رواج تجارته وكثرة ربحه، كما أساءت في الابتعاد به عن الانزلاق مع نزوات الشباب، فلم يؤثر عنه أنه كان صاحب نساء، وإن أجمعت الروايات على أنه كان رقيق القلب حلو المعشر، للعاطفة على نفسه سلطان أي سلطان، وكانت رقته وحلوته معشره تدعوه لتجنب الأذى والقسوة قدر الممكن والمستطاع.

كان عثمان من السابقين إلى الإسلام، فيروى أنه رابع أربعة أسلموا أول الناس، وقد تحمل الكثير من الأذى في سبيل إسلامه، فقد أوثقه عمه الحكم ابن أبي العاص بعد أن غضب عليه غضباً شديداً، وتوعده بأنه لا يفك وثاقه إلا إذا عاد إلى ملة آبائه وأجداده، ولكن عثمان أبي أن ينقاد إلى تهديد عمه ووعيده، فلما رأى عمه صلابتة في عقيدته وتمسكه بإسلامه تركه وشأنه^(١).

هناك عدة روايات ذكرها المؤرخون في سبب إسلامه منها ما ذكره ابن هشام في السيرة: "إن أبو بكر بعد إسلامه جعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ومن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان وبسبعين آخرون فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله صل حين استجابوا لدعائه فأسلموا وصلوا"^(٢).

ونذكر ابن سعد في الطبقات رواية أخرى مختلفة فقال: "خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلوا على رسول الله

فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليها القرآن وأنباهم بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله، فآمنا وصدقنا فقال عثمان: يا رسول الله قدمت حديثاً من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فحن كالنيلم فإذا منادياً ينادينا أيها النيلم هبوا فإنّ أَحْمَدَ قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ فَقَدَمْنَا فَسَمِعْنَا بِهِ^(٣).

بعد إسلام عثمان تزوج من رقية بنت رسول الله ﷺ فلما آذى مشركي قريش المسلمين أمرهم الرسول أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدعائهم ونصحهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة. وكان أول الذين ذهبوا إليها أحد عشر مسلماً رجالاً ونساءً وكان عثمان وزوجته رقية أسبق هؤلاء إلى الهجرة، ثم رجع عثمان إلى مكة قبل الهجرة إلى يثرب، ثم هاجر هجرته الثانية إلى يثرب (المدينة) وحضر مع رسول الله جميع غزواته ما عدا بدرأ حيث كان يقوم بتوريض السيدة رقية وذلك بإذن من رسول الله ﷺ، وعندما قسم الرسول في بدر جعل لعثمان سهماً فيه كسهم من شهدتها، ولذلك اعتبر عثمان من البدربيين.

توفيت زوجته السيدة رقية فحزن عثمان لموتها أشد الحزن، وعرف له رسول الله ﷺ حسن عشرته فزوجه من أختها أم كلثوم، وماتت أم كلثوم في حياة أبيها في السنة التاسعة للهجرة، فحزن عثمان لموتها فكان ما واساه بها رسول الله قوله: "لو كان لنا ثلاثة لزوجناك"، وأشهر الروايات على أنه سمي بذى التورين لأنّه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي عليه الصلاة والسلام.

كان عثمان تقيراً ورعاً طيب النفس تقى السريرة حليماً متواضعاً رفيراً بالناس يقول المسعودي^(٤): "كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماعة والبذل

في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله" وكانت الخصلة التي ميزه بها النبي ﷺ فيما روى المحدثون وأصحاب السير صدق الحياة، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أصدق أمتي حياء عثمان" فما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "إن الملائكة تستحي من عثمان" كما أنه بفضل مصاحبه للنبي ﷺ وسماعه وحفظه لأحاديثه ومشاهدته لأفعاله واستمداده المستمر من ينابيع حكمته وهدى سنته ومكارم أخلاقه ازداد تمرساً عملياً بالفضائل ومزاؤلة للعبادة والتقوى فكان المؤمن الودع الذي يصوم نهاره ويقوم ليله ويحج كل عام.

ولما كان عثمان رض جليل القدر بين المسلمين عظيم المنزلة عند رسول الله ص محبوباً في قريش فقد جعله الرسول ص سفيراً في صلح الحديبية بين المسلمين وبين قريش وعندما شاع خبر قتل قريش له بائع النبي أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة - على أن يبذل كل منهم نفسه في سبيل الله انتقاماً من قريش على ما اقترفوه من الإثم، ثم ظهر أنه لم يقتل ولم يصب بأذى.

وقد أوتى عثمان حظاً موفوراً من الثراء يقابلها حظ أوفر من البذل والعطاء في سبيل الله، فقد كان رض سخياً بما له فيما يصلح المسلمين من ذلك عندما أزمع رسول الله ص الخروج لغزو الروم بتبوك وجهز جيش العسرة شارك عثمان في ذلك بثلاثمائة بعير كاملة العدة وبألف ينار ورأى رسول الله ص ما صنع عثمان فقال: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وكررها مرتين، ومن ذلك أيضاً أنه كان ليهودي بالمدينة بئر يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله ص: "من

يشتر بثُر روماً فيجعلها للمسلمين يضرب بدلواه في دلائهم وله بها شرب في الجنة" فأتى عثمان اليهودي فساومه فيها فأبى أن يبيعه كلها فاشترى منه نصفها باثني عشر ألف درهم واتفق مع اليهودي على أن يكون له يوم ولعثمان يوم وجعل المسلمين يسقون في يوم عثمان ليومين، وذهب اليهودي إلى عثمان فقال له: "أفسدت علي بثري فاشترى النصف الآخر فاشتراكاً للمسلمين بثمانية آلاف درهم وجعل رشاهه فيها كرشاهه رجل من المسلمين" (٥).

اختيار عثمان خليفة:

عندما طعن عمر بن الخطاب رض لم يكن في بيته أن يولي خلفاً له فالظروف التي دعت أبي بكر أن يعين خلفاً له قد زالت، إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفاً له فتردد، وقال من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً استخلفته، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سالني ربي قلت سمعت نبيك يقول: "إنه أمين هذه الأمة، أو سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله" فقال له رجل أدرك عليه؟ عبد الله ابن عمر، فقال (أي عمر) قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، لا إرب لنا في أموركم، ما حمدتها فارغب فيها لأحد من أهل بيتي، بحسب آل عمران يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمم محمد، أما لقد أجهدت نفسي وحررت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزراً ولا أجرًا إني لسعيد، أن أترك فقد ترك من هو خير مني سيريد

رسول الله ﷺ وأن استخلف فقد استخلف من هو خير مني يريد أبا بكر رض - ولكن عمر خشى بعد أعمال الفكر أن يضطرب الأمر إذا تركه شائعاً بدون أن يبيت فيه برأي فقد اشتراك العرب جميعاً بمحاربة الفرس والروم، وأصبح لكل قبيلة أن تزعم لنفسها ما للمهاجرين والأنصار من حق الاشتراك في اختيار الخليفة، وقد يذهب بعضها إلى ادعاء الحق في ترشيح زعيمها لمقام الخلافة، وفي هذا الادعاء من الخطأ على الدولة الإسلامية الناشئة ما لم يفت عمر، لذلك لم يلبث أن جعل الخليفة من بعده شورى في ستة يختارون أحدهم لها، وهؤلاء الستة هم: "عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص" وبعد أن ذكر عمر أسماء هؤلاء قال إنه لم يجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فأليهم استخلف فهو الخليفة من بعدي ^(١).

لابد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الستة لم يكن بينهم واحد من الأنصار ولا من غيرهم من قبائل العرب بل هم جميعاً من المهاجرين ومن قريش بشكل خاص، ومع ذلك لم يثر اختيار عمر لهؤلاء أي اعتراض لا من الأنصار ولا من غيرهم من العرب الذين أقبلوا أزواجاً إلى المدينة وظلوا بها بعد مقتل عمر رض حتى بايعوا الخليفة الجديد، إن تفسير ذلك لا يعني سوى اطمئنان الأنصار وغيرهم من قبائل العرب إلى اختيار عمر لهؤلاء الستة وربما يرجع ذلك إلى ما حدث في سقيفة بني ساعدة إثر وفاة النبي ﷺ والذي من المؤكد - أنه ما زال عالقاً في ذهانهم فقد تقرر في هذا المؤتمر (مؤتمر السقيفة) كما مر سابقاً-

قاعدة دستورية هامة تمثلت في كلمة أبي بكر التي قالها عندما احتم النزاع بين المهاجرين والأنصار، أنها أحق بالخلافة، فكان مما قاله أبو بكر: "نحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو، أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجر بالثناء من أهل الأرض جمِيعاً، فاما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش فمنا النساء ومنكم الوزراء".

يبدو أن هذه الكلمة صارت دستور الخلافة والحكم بين المسلمين منذ قالها أبو بكر، لذلك لم يعرض أحد على استخلاف أبي بكر وعمر ولم يعرض أحد كذلك على اختيار عمر لهؤلاء، بل اطمئن له الأنصار واطمئن له العرب جميعاً.

ومن خلال استقراء ظروف الحقبة التاريخية التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية آنذاك نرجح أن عمر بن الخطاب رض عندما اتخذ قراره هذا كان يخشى أن استخلف واحداً بذاته أن يدفع الحرث غيره إلى منافسته فلا تجتمع كلمة المسلمين فيتشبّه بينهم خلاف تخشى عواقبه، كما يحتمل أن عمر لم ير واحد من الستة أفضل من سائره فلم يشا أن يتحمل أمام ربه وزر مشورة لا يطمئن إليها قلبـ كل الاطمئنان، يشير إلى ذلك قول عمر جواباً لمن قال له: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً ما أريد أن أتحملها حياً أو ميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ص "إنهم من أهل الجنة" وربما كان هناك احتمال ثالث وهو أن عمر قد خشي حين طعن أن يسرع إليه حتفه قبل أن يجمع كلمة المسلمين على واحد

من هؤلاء الستة فترك الأمر للشوري يتمون ما لم يجد هو قسمة من الوقت لاتمامه.

أيا كانت الدوافع التي منعت عمر من أن يستخلف واحداً بذاته وجعلته يسمي الشوري ليختاروا الخليفة من بينهم فقد أراد عمر أن لا يتحمل مسؤوليات الناس من بعد موته، كما أراد ألا يترك المسلمين في الوقت ذاته نهباً للفرقة والانقسام ولذلك كله نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين، فيعين السيدة المبشرتين بالجنة وهم خيرة المسلمين، ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين ويضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكن له رأي في الاختيار على أن لا يختار للخلافة وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهي المشورة خلالها.

استدعاى الخليفة عمر أهل الشورى الخمسة الموجودين (لأن طلحة كان غائباً في سفر) وقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقدتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وإنني لا أخاف عليكم إن استقمنتم ولكنني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى هجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها، فاجتمعوا وتحادثوا، فارتقت أصواتهم فأمر بتأجيل اجتماعهم لما بعد موته ثم يجتمعون للتشاور في اختيار واحد في مدى ثلاثة أيام، وقال: ليصل بالناس صهيب الرومي ولا يأتين اليوم الرابع إلا عليكم أمير منكم ويحضر عبد الله ابن عمر مشيراً، ولا شيء له، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الثلاثة فأحضره أمركم وإن مضت قبل قدومه فأمضوا أمركم، ثم بعد أن تحدث عن

بعض المرشحين وما فيه من صفات قال لأبي طلحة الأنصاري: إن الله قد أعز بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال المقداد ابن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال لأبي طلحة والمقداد: "إن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فاقتلوه، وإن رضى أربعة وأحداً وأبى اثنان فاقتلوهما وإن رضي ثلاثة رجالاً وثلاثة رجالاً فحكموا عبد الله ابن عمر فمن حكم له فمنهم الوالي، وإن لم يرضوا حكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلو الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس".

اجتمع أهل الشورى الخمسة لأن طلحة كان غائباً في بيت المسور ابن مخرمة ويقال في بيت المال ويقال أنه كان عند عائشة بعد إذنها، وكان مع المجتمعين عبد الله ابن عمر وقد جعلوا أبا طلحة حاجباً لهم ولما رأى تنافس هؤلاء في هذا الأمر تعجب وتخوف وقال: "أنا كنت لن تدفعوها أخوف مني لأن تتنافسو! لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرت ثم أجلس في بيتي فانتظر ما تصنعون، فكان شدة الخلاف كانت توحى إلى الحاجب بأن الاستقرار على رأي واحد وبأن الاختيار النهائي لن يتم في المدة المحددة.

نتيجة لهذه المواقف المتباعدة آثر عبد الرحمن ابن عوف أن يبعد نفسه عن الخلافة وأن يتتجنب الدخول في منافسات مع غيره، وأن يحدد دوره في هذه المهمة بالقيام بالاختيار فقد بعد ارتضاء الأطراف المعنية وموافقتها فقال لهم:

"لست بالذى أنا فسكم في هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن".

أراد عبد الرحمن بن عوف أن يتفرغ للتدقيق والتحري ولم ينس أن يؤكد للمجتمعين أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى أو أن يخص قريباً له بفائدة لم يستحقها، أعطاه عهداً أو ميثاقاً، قال له علي بن أبي طالب: "اعطني موثقاً لتوثيق الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة".

وطلب عبد الرحمن من المجتمعين أن يكونوا معه على من بدأ وغيره وأن يرضوا ما اختاره لهم، على ميثاق الله، لا يخص ذا رحم لرحمة، ولا يألو المسلمين.

بعد أن تم تخويل عبد الرحمن ابن عوف بهذا الأمر لم يكتف بالتفكير الجدي بنفسه فيه وإنما كان يسعى إلى من وافق المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يستطيع أراءهم ويشاورهم في الأمر، وقيل أنه كان يستشير النساء الراشدات خاصة أمهات المؤمنين، ومال الناس إلى عبد الرحمن يشاوروه ويناجونه تلك الليالي، وذكرت المصادر أن عينا عبد الرحمن لم تذق النوم ولم يغمض له جفن طوال الليالي المحددة، واجتمع عبد الرحمن بكل من الزبير وسعد وعلي ثم بعثمان كل على انفراد، ويقال أن عبد الرحمن سأله علياً: أرأيت لو لم أوليك هذا الأمر فمن تشير على أن اختار؟ فقال له عثمان: وعاد فسأل عثمان نفس السؤال فقال له عثمان: علياً.

انحصر الأمر إذاً بين علي وعثمان وضاقت دائرة الخلاف ولكن أطّله نقاش بعض المسلمين فبعضهم يؤيد عثمان وبعضهم يؤيد علياً، ويسوق كل فريق الحجج والأدلة على صحة اختياره، وخشى سعد بن أبي وقاص حدوث فتنة فدعى عبد الرحمن وقال له: "أسرع يا عبد الرحمن قبل أن يفتن الناس".

ازدحَمَ المسجد بالناس حتى اكتفى بأعدادهم وصعد عبد الرحمن إلى المنبر فوق وأطال الوقوف ونادٍ علياً فجاء إليه وقال له عبد الرحمن عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفيين من بعده قال علي أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتِي ثم نودي على عثمان حتى وقف عند المنبر ففعل معه مثل ما فعل مع علي بسط عبد الرحمن يده وأخذ يد عثمان وقال له: هل أنت مباعني على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال عثمان: نعم، قال عبد الرحمن اللهم اشهد اللهم اشهد ثم قام الناس فباعوا عثمان^(٧).

بويع عثمان بالخلافة في نهاية المدة المحددة وهو اليوم الأخير من ذي الحجة سنة ثلث وعشرين، واستقبل خلافته في الأول من محرم سنة أربع وعشرين وقيل بعد ذلك بيومين وقيل يوم السبت العاشر من محرم.

اتخذ عثمان^ﷺ أول حاجب له هو (حرمان) مولاه كما اتخذ كاتباً له هو مروان بن الحكم ولما بايع أهل الشورى عثمان خرج فأئمَّ منبر رسول الله ﷺ خطب في الناس خطبة هي في ظاهرها ومضمونها عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ: "إذكم

في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فقد أتيتم صبحتم أو سميتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى، ثم جدو ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، وتمتعوا بها طويلاً، ألم ترفضهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلاً، وللذين هو خير وقال عزوجل: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنِ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِتَابَ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّاتُوحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدَرًا» (الكهف: ٤٥) «الَّذِي أَنْزَلَ وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْجَاهَلَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَكِّدًا وَخَيْرٌ أَمْلَكَ» (الكهف: ٤٦) وأقبل الناس ببابايعونه^(٨).

هذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شؤون دولته، وإنما كانت خطبة نصائح ووعظ تحض على التمسك بالدين وهي خطبة تمثل ما يصدر عن شيء جليل محافظ على مبادئ الإسلام وما يؤمر به للتفوي.

كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخراج وإلى العامة:

لقد تجلت سياسية عثمان في الكتب التي أرسلها إلى عماله وولاته وعامة الناس بالأقاليم، فلكي يطمئن عثمان الناس إلى أن ما ألغوا من عدل في عهد عمر لن يبعث به عايبث، أرسل إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين

بالأمسار كتبًا يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر، العطف على أهل الذمة وجبائية الخراج بالعدل والإنصاف.

أولاً: كتاب عثمان إلى عماله:

كتب عثمان إلى عماله: "أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم ينقدم إليهم أن يكونوا جباء، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباء، ولبيوشكن أنفسكم أن يصيروا جباء ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياة والأمانة والوفاء، ألا وأن أعدل السيرة أن تنتظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوه ما لهم وتأخذوه بما عليهم ثم تثنوا بالذمة فتعطوهما الذي لهم وتأخذوهما بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء"^(٤).

هذا الكتاب يوضح سياسة عثمان في الرعية، ويدعو عماله أن يكونوا رعاة وليسوا جباء، وهي سياسة كلها سداد وحكمة، فهو يأمر هؤلاء العمال أن يرعوا الناس بالرفق وأن لا يرهقونهم جبائية واستغلالاً وأن يأخذوا من المسلم ومن الذمي ما عليه وأن يعطوا المسلم والذمي ماله عدلاً بغير بغي فلا يثير الناس بال المسلمين، تلك أعدل السير في نظر عثمان، إليها يطمئن الجميع فيسود الأمن ويستتب النظام، وهو إذ يوصي عماله بالتمسك بالحياة ترى الرواة الجمعيين على أن هذه الخلة كانت من أهم وأخص صفاته، وخشي عثمان أن ينقطع الحياة ويحل محله الفضول والجرأة التي ليس لها حدود والتي يتربّ عليها ضياع الحقوق، فيعم الباطل والفساد والفوضى، كما يحث عثمان ولاته

على أن يكونوا رعاة لا جبأ حتى لا تضييع الأمانة، ويحل محلها الغش والخداع، حتى لا ينقطع الوفاء ويقوم مقامه الغدر، وكل هذا يضييع مصلحة المسلمين ويسيء العلاقة بين الولاية والمحكومين وينشر جوًّا من عدم الثقة وعدم الطمأنينة.

إن هدف تلك التوجيهات تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين، ومعرفة كل لحقوقه فإذاً لا يظلم قيد أئملاً، ولو احتجاته فيؤديها على خير وجه لا ينبغي أن يظلم أحد الطرفين إرضاءً للطرف الآخر، وأخيراً فإن تلك التوجيهات التي تخص أهل الذمة (اليهود والنصارى) وغيرهم من الذين لم يدخلوا الإسلام تأمر الولاية بحسن معاملة هؤلاء وتحثهم على اتباع الحق وتؤخى العدل معهم -كما يفعلون مع المسلمين- وأن كل ذمي يؤدي ما عليه من واجبات وينال ما له من حقوق.

ثانياً: كتاب عثمان إلى عمال الخراج

كان لعمال الخراج من الاستقلالية عن الولاية ما خشي عثمان معه أن يظلم الناس فيبهضوهم بما لا يجب عليهم أداوه، أو أن يستغلوا مناصبهم لفائدة ذويهم وفائدته ذويهم لذلك كتب إلى عمال الخراج يقول: "أما بعد فإن الله خلقخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدهم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم"^(١٠).

والملحوظ في هذا الخطاب استخدام عامل الرهبة والتخييف من الله العلي القديم في حثهم على الإثبات بالحق والترامه في معاملةخلق فلا يقبل الله إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق، أعطوا كل ذي حق حقه وخذوا حكم منه، ثم أوصاهم بالأمانة وشدد في ذلك وكررها عليهم، أدوا الأمانات إلى أهلها وأشرفوا على توصيلها، كما نهى عثمان عمال خراج الأقاليم عن ظلم اليتيم أو الذمي (المعاهد) وحذرهم من أن الله لا يرضى عن ظلمهم.

ثالثاً: كتاب عثمان إلى أمراء الأجناد:

"أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، ولقد وضع لكم عمر ما لم يغب عننا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبدل فيغير الله ما يبدل بهكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما أزمني الله النظر فيه والقيام عليه".⁽¹¹⁾.

اتسم كتاب عثمان عليه السلام إلى أمراء الأجناد أو أمراء الحرب بشيء من الشدة والحزم اللذين يلائمان ما ينبغي أن يكتب إلى هؤلاء، فقد عد نفسه المسؤول الأول والأخير للنظر فيما أزمه الله النظر فيه والقيام عليه، فهو يأمر أمراء الأجناد ينفذون، ولكنه في ذلك التزم وألزمهم بما وضعه عمر من قبل، واشتراك فيه عثمان بالمشورة، وكان ذلك على الملا، ثم حذرهم وأنذرهم من إحداث أي تغيير أو تبدل وإذا بلغه عن أي منهم محاولة ذلك فإنه سوف يعزل ويحاسب.

رابعاً: كتاب عثمان إلى العامة:

لم يشا عثمان عليه السلام أن يفهم الناس من كتبه إلى الولاة وإلى عمال الخراج أنه أبغى العامة من الواجبات الملقاة عليهم، أو أنه حين زاد في عطائهم يدعوهم إلى التمرغ في متاع الدنيا ورفعه العيش لذلك خاطبهم في كتاب هذا نصه: "أما بعد، فإنكم إما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تفتقروا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلغ أولادكم من السبابيا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وقد قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: "الكفر في العجمة، فإذا استجم عليهم أمر تکلّفوا وابتدعوا"^(١٢).

سياسة عثمان عليه السلام في تولية الأمراء:

اعتمد عثمان بن عفان عليه السلام سياسة خاصة في تولية الأمراء على الأقاليم تختلف عن سياسة سابقيه -أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه-، فقد أسد عثمان إلى كثير من أهل بيته إدارة شؤون الأمصار الإسلامية لأنه -على ما يبدو- أنس منهم الإخلاص والمعونة له، ومن ثم أصبحت حكومته مصطفبة بالصبغة الأموية، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يختار ولاته من العرب الذين ثبتت كفايتهم وحسن إسلامهم ولم يكن للعصبية القبلية أثر في توليتهم وعزلهم، وقد أوصى عمر رضي الله عنه عثمان عليه السلام بأن يقر عماله عاماً على ولايتهم بعد موته، فلما مضى العام الأول من خلافة عثمان أخذ يباشر سلطنته في العزل والتولي.

من المعروف أن البصرة والكوفة والشام ومصر كانت من أهم الولايات العربية الإسلامية، فهي موطن قوة المسلمين ومصدر ثرائهم، لذلك عني بها الخليفة عناية خاصة.

- البصرة:

أقرَّ عليها أبو موسى الأشعري ست سنوات بعد وفاة الخليفة عمر، ثم عزله عثمان وأختار لهذه الولاية ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٤٢٩ هـ.

- الكوفة:

كان عليها المغيرة بن شعبة، فلما انقضى عام واحد على وفاة عمر عزل المغيرة من الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص الزهري، ثم أسنده هذه الولاية إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعد أن تم عزل سعد منها سنة ٤٢٥ هـ ولما أظهر أهل الكوفة تذمرهم من الوليد أرسل إليهم سعيد بن العاص بن أمية سنة ٤٣٠.

- بلاد الشام:

كانت الأردن ودمشق قد تولاها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر، فلما تولى عثمان الخلافة أقرَّ إليها ثم ضمَّ إلينه فلسطين وحمص وقسرين وجمع له قيادة الأجناد الأربع، وبذلك أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها لستينيَّن من خلافة عثمان، وليس من شك في أن عثمان بن عفان باطلقة يد معاوية في

هذه الولاية مهد لها سبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبي سفيان وتنثيتها في البيت الأموي.

- مصر -

كان عليها أيام عمر عمرو بن العاص غير أنه لم يكن ينقضى العام الأول من خلافة عثمان حتى تطلع أقرباؤه إلى هذه الولاية فعزل عمراً وولى بيه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخا لعثمان في الرضاعة^(١٣).

المبحث الثاني

الفتوحات في خلافته وأهم أعماله

الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان:

استمرت حركة الفتوح الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان وقد اتخذت الفتوحات في هذه المرحلة طابعاً جديداً تميز بحالة الدفاع وتأمين الحدود ودفع الخطر من هجوم الأعداء، فقد من بنا كيف أن الدولة العربية الإسلامية امتدت في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رض من أقصى فارس شرقاً إلى حدود برقة غرباً ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب، وقد أيقن سكان تلك البلاد الفتوحات بأن هؤلاء الفاتحين لا غالب لهم، ومع ذلك فقد كانت أسباب الانتفاض تحرك نفوس الناس من أهل هذه الأقاليم بين الحين والآخر إلى الثورة على المسلمين ونکث ما عاهدوهم عليه، لحداثة عهدهم بالإسلام، فضلاً عن عدم وجود قوات للMuslimين مرابطة في هذه البلاد، بل كان المسلمين يصالحون كل إقليم يفتحونه على جزية معينة يدفعها أهله لهم ثم يتزكون حكم الإقليم لأنفسه، وتتسحب قواتهم بعد ذلك عنه إلى المعسكرات العربية الدائمة، التي كانت مقامة في كل من البصرة والكوفة في العراق ودمشق وحمص في الشام، إلا في حصن بابليون.

لقد حاولت بعض الجهات الانفصال بعد أن وصلتهم أخبار مقتل عمر وبيعة عثمان، فتمردت ولايات كانت أذعن لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلحها ومنعت الجزية التي صالحت عليها، لم يكن لل الخليفة الجديد بد من رد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وسيادة الدولة العربية الإسلامية.

من جانب آخر لم تتوقف حركة الفتح والتوسيع في زمن عثمان، إنما شعبت وأحتوت أقطاراً جديدة في الشرق والغرب، فلم يقطع استخلاف عثمان بن عفان سلسلة الفتوح التي قام بها المسلمين في زمن عمر، فقد اهتم عثمان بتأمين الفتوح التي تمت في خلافة سلفه الخليفة عمر بن الخطاب وواصل المسلمين العمل على توطيد نفوذهم في بلاد فارس، التي انقض بعضها، فاجتازت الجيوش العربية في زمن عثمان أرض فارس ووصلت شرقاً إلى بلاد طبرستان، ووصلت فرقة أخرى بقيادة عبد الله بن عامر إلى خراسان وتكونت للمسلمين في زمن عثمان أول قوة بحرية لمواجهة التفوق البيزنطي في مجال البحر، فانضم إلى الدولة الإسلامية جزيرة قبرص كما انضم جزء من بلاد النوبة، وانضمت لها بلاد أرمينية.

فتوحات المشرق:

على الرغم من الجهود التي بذلت في زمن عمر بن الخطاب عليه السلام لثبتت دعائم الوجود العربي الإسلامي في بلاد فارس إلا أن النفوذ العربي لم يستقر هناك فقد ثار أهل فارس على أميرهم فخرج إليهم عبد الله بن عامر والي البصرة وسار بجشه إلى مقاطعة فارس وأخضعهم ثم بدأ بعدها سلسلة معارك أخرى

شرقاً وشمالاً كان النصر فيها حليفه، فأخضع نيسابور وسرخس ومر eo من بلاد خراسان ثم اشتباك في معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيرون) حطم فيها القوات الفارسية وانتصر نصراً موزراً، دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها في حوزة الإسلام، كذلك وجه عبد الله بن عامر الأحنف ابن قيس إلى طجارتان ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع من أهلها أوقع بهم الهزيمة واضطروا إلى طلب الصلح، وما زال الأحنف بن قيس يتبع انتصاراته في تلك الجهات حتى تمكن من فتح الجوزجان والطالقان والصغانيان ثم سار إلى بلخ فصالح أهلها وعاد أخيراً إلى مرو بعد أن تعذر عليه فتح خوارزم، وهكذا بسط العرب سلطانهم على معظم أقطار الدولة الفارسية المنهارة^(١٤).

ومن الفتوحات الهامة في خلافة عثمان فتح أرمينية وهي صقع عظيم واسع يمتد من جبال القوقاز والبحر الأسود شمالاً وبعض الجزيرة جنوباً، ويحرر الخزر (أو قزوين) وهضبة آذربيجان شرقاً، وأسيا الصغرى والجزيرة غرباً فيشمل الأراضي الجبلية التي كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها: دجلة والفرات في الجنوب والكر والرس في الشمال^(١٥).

كان يسكن هذه البلاد شعب آسيوي لا نعرف أصله ينسب إلى هذه البلاد ويعرف بالأرمن، تحول إلى المسيحية من وقت مبكر بما كان سبباً في أن بدأت تظهر له شخصيته التي لا يزال محتفظاً بها إلى الآن كذلك كان يعيش في أرمينية جماعات يهودية ومجوسية انتقلت إليه من البلاد المجاورة.

استطاع المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب أن ينتزعوا أرمينية من قبضة الروم غير أنهم لم يلبثوا أن اضطروا للجلاء عنها تحت ضغط جيوش

الأعداء التي أحاطت بهم، فأصدر الخليفة عثمان أوامره إلى واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان بأن يكرس جهوده لاستعادة هذا الإقليم إلى سيادة الدولة العربية الإسلامية، فسير معاوية بن أبي سفيان إليهم القائد العربي حبيب بن مسلمة الفهري على رأس جيش مكون من ستة آلاف جندي، فوصل إلى قلقيلا حيث صالح أهلها على الجزية ثم واصل زحفه وتمكن من مbagحة حشود الروم والانتصار عليهم قبل أن يمده الخليفة بالمد الذي طلبه، وبعد وصول ذلك المد استطاع الجيشان أن يواصلا زحفهما وأن يبسطا سيطرتهما على ذلك الإقليم^(١٦).

من جانب آخر استطاعت قوات عربية أخرى أرسلها والي الشام إلى الأناضول أن تشاغل الروم البيزنطيين حيث توغلت هذه القوات حتى وصلت عمورية ونجحت في مهمتها وهي إشغال الروم عن آية محاولة لاستعادة تلك المناطق وحتى لا يكون لديهم وقت للتفكير في تعزيز قواتهم خارج حدودهم، الأمر الذي يسهل على المسلمين الاستيلاء على بقية الشام، وقد نجح معاوية في تحقيق ذلك الهدف، وتمكن قواته من تطهير بلاد الشام من البيزنطيين وحققت القوات الإسلامية انتصارات على القوات البيزنطية أعقبها سقوط ثغري قنسرين وطرايس آخر معاقل الروم في تلك البقاع، وبذلك آمن المسلمون بفضل ذلك خطر عدو قريب متداخل في بلادهم وعلى أرضهم.

الفتوحات في مصر:

لم يستقر النفوذ العربي في مصر إلا في سنة ٥٢٥/٦٤٥ م ذلك أن الروم لم يتمسّكوا بمعاهدة الإسكندرية طويلاً، وبدأت الدولة البيزنطية تضيق من

أحداثها الداخلية في عصر الإمبراطور قسطنطين الثاني حميد هرقل الذي أرسل إلى الإسكندرية أسطولاً كبيراً لإجلاء العرب عن مصر، كان قائده رجل أرمني كبير اسمه مانويل وذلك في سنة ٦٤٥/٥٢٥م وأصبح وضع العرب في مصر محراجاً وكان والتي مصر آنذاك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد بعث أهل مصر إلى الخليفة عثمان يسألونه أن يرسل عمرو بن العاص ليتولى محاربة الروم لأن له خبرة ومعرفة بحروبهم فولى عثمان عمراً الإسكندرية وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر، ونجحت القوات الإسلامية في إجلاء الروم من مصر بعد أن هزمتهم في معركة فاصلة عند مدينة نقوبос وقتل قائد جيش الروم^(١٧).

بلاد النوبة:

اتجه عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى غزو النوبة سنة ٦٥١/٥٣١م أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان لتأمين حدود مصر الجنوبية، والنوبة هي البلاد الواسعة العريضة في الشطر الجنوبي من وادي النيل، التي تمتد من أسوان آخر صعيد مصر حتى أواسط أفريقيا، وقد وصلت حملة سعد إلى "دنقلة" واشتبكت فيها وطأة القتال بين الجانبين، وانتهت هذه الحملة بعد هدنة بين مصر وملكة النوبة المسيحية، كانت أهم بنودها عدم الاعتداء بين الطرفين، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة كذلك^(١٨).

فتح أفريقيا:

أذن الخليفة عثمان بن عفان رض لعبد الله بن سعد بن أبي سرح واليه على مصر بغزو أفريقيا، وأرسل عثمان ممن رغب الجهاد في سبيل الله من المسلمين بقيادة الحارث بن عبد الحكيم إلى مصر، وأمر عثمان المسلمين أن يطيعوا أمره فخرج بهم عبد الله بن سعد إلى مدينة قرطاجة وهي مقر السلطان جرجير حاكم أفريقيا في ذلك الوقت وقد شمل نفوذه المناطق الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة ونجح المسلمون في تحرير أفريقيا وصالحوا أهلها على دفع مال أو ذهب أرسلت إلى مقر الخلافة مع أخبار النجاحات التي حققها المسلمون^(١٩).

لقد أراد الخليفة عثمان أن يعزز قيادة الجيش الإسلامي الذي كان يتولى عمليات تحرير أفريقيا فأرسل عبد الله بن الزبير مع جماعة لمعرفة أخبار الجند -وموافاته بها، وعندما وصل ابن الزبير إلى أفريقيا تسلم قيادة الجيش بدلاً من عبد الله بن سعد لأن ابن الزبير كان -على ما يبدو- له رأياً آخر في مجريات القتال وأسلوب التعامل مع العدو^(٢٠).

وصلت أخبار الفتح والنصر إلى مقر الخلافة فأراد عثمان أن يبشر المسلمين بنفسه فصعد المنبر وقال: "... أليها الناس إن الله قد فتح عليكم أفريقيا ... وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله ...".^(٢١)

ويبدو أن أهل أفريقيا نقضوا عهدهم للMuslimين لذلك عزم المسلمين على القيام بالغزو ثانية لهذه البلاد سنة ٥٣٠/٥٦٥م واضطرب الخليفة عثمان إلى

تكليف معاوية بن حبّيج بالقيام بغزوهم للمرة الثالثة سنة ٥٣٤ / ٦٥٤ م عندما نقض أهل أفريقيا عهدهم ثانية^(٢٢).

تأسيس البحريّة الإسلاميّة:

بعد أن سيطر العرب - في خلافة عمر بن الخطاب - على سواحل الشام ومصر الطويلتين أخذوا يفكرون جدياً في القضاء على قوة بيزنطة البحريّة التي أصبحت مصدر تهديد لإمبراطوريتهم الناشئة فقد كان احتفاظ بيزنطة بالسيطرة البحريّة أن جعلهم تقاوم في مدن الشام الساحليّة مدة طويلاً، كما استطاعت أن تعود إلى مهاجمتها في سنة ٥٢٣ / ٦٤٤ م فاحتلت بعض مدنها كما هاجمت أيضاً الإسكندرية في سنة ٥٢٥ / ٦٤٥ م وقد طردهم عمرو بن العاص منها^(٢٣) وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البحريّة قوة بيزنطة البحريّة تتحداهم وأن السواحل التي احتلوها تقف حائلاً دون تقدمهم.

لم يكن العرب - أول أمرهم - يستطيعون فعل شيء ضد هذه القوة البحريّة التي كانت تصوّل وتجول أمام سواحلهم وتسيطر على معظم جزره بحيث سمي البحر الأبيض المتوسط باسم: "بحر الروم"^(٢٤) وذلك لأنّ العرب أمة لم يكن لها خبرة بركوب البحر وبناء السفن، ولكي يقضوا على خطر عدوهم البحري لجؤوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور منها: إصلاح الحصون الساحليّة القديمة التي تركها البيزنطيون في مصر والشام، وأخذ بيوت على الساحل لتحويلها إلى قلاع للمقاومة تسمى "أخذان" وإنشاء "مناظير" أي أماكن يراقب منها العدو، كانت تتخذ "المواقيد" لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجئ

كذلك رُتب الجندي بطول الساحل حيث كانوا يغيرون كل ستة أشهر، وفي الوقت ذاته عمل على تكوين صفات بحرية للعرب، أن شجعوا على سكنى السواحل وهو ما عرف "بالرباط" وذلك بمنحهم الإقطاعات حتى يكونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية^(٢٥).

ولكن في خلافة عثمان بدأ في تجهيز أسطول عربي ليكون ضماناً للقضاء على أي هجوم معد من البحر فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد ضد أملك البيزنطيين، وقد أوكل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبرة في صناعة المراكب البحرية في البلاد المحررة في كل من مصر والشام وبخاصة القبط الذين ساهموا بتصنيع كبير في بناء الأسطول الإسلامي في دور صناعتهم التي عرفت بجزيرة مصر أو الروضة، بحيث لم تأت سنة ٦٣٣/٥٤٦م حتى كان العرب أسطول يتكون من أكثر من ألف وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر المتوسط^(٢٦).

بدأ نشاط الأسطول العربي كبراً منذ أول أيامه، فقد كان يشن في السفن المقاتلة ونساؤهم -على عادة العرب في القتال- من ثغور مصر والشام صيفاً وشتاءً، للغارقة على سواحل العدو، وكانت معظم جهود أسطول الشام موجهة نحو جزيرة قبرص التي كانت تحت سيطرة الروم، ويتخذونها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر فغزاها معاوية بنفسه بقصد الإغارة في سنة ٦٤٨/٥٢٨م ولعله غزاها ثانية في سنة ٤٤٩/٥٢٩م ولكن في سنة ٦٣٣/٥٤٦م غزاها العرب من مصر والشام بقصد احتلالها وفعلاً تحقق ذلك فأبقوها فيها الحاميات وأسسوا المساجد^(٢٧).

إن هذا النشاط البحري المتزايد من قبل العرب ألقى الروم البيزنطيين الأمر الذي دفع الإمبراطور قسطنطين الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) إلى جمع عدد من المراكب لم يجمعها من قبل ويقال أنها كانت تزيد عن الألف، وقرر الهجوم بها على الأسطول العربي بقصد احتلال الإسكندرية أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسط فخرج إليه الأسطول العربي بكامل عدته بقيادة والي مصر عبد الله بن سعد فتقابل الأسطولان قرب سواحل آسيا الصغرى سنة ٥٣٤ / ٦٥٤ في معركة بحرية حاسمة عرفت باسم "معركة ذات الصواري" لكثره سواري المراكب، وقد كان القتال عنيفاً بين الطرفين وبعد ليلة مضوها في العبادة نظم القادة الجنود على ظهر المراكب في صفوف ثم قرب السفن بعضها ببعض بعد ربطها واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر فقتل من البيزنطيين ما لا يحصى ودمرت معظم مراكبهم، وفر الإمبراطور البيزنطي إلى جزيرة صقلية، وقد كان النصر في هذه المعركة حاسماً مهد الطريق لسيطرة العرب البحرية فأخذوا يغزون على جزر مثل صقلية وروادس^(٢٨).

ويمكنا القول بأن الخليفة عثمان بن عفان نجح في القضاء على حركة التمرد في الولايات التي كانت قد أذاعت من قبل لسلطان العرب، ورد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وأدت المحاولات العسكرية التي بذلك في خلافته إلى امتداد الفتوحات العربية وإلى اتخاذ المسلمين قواعد حربية لحماية الإمبراطورية العربية الإسلامية الناشئة وإلى إنشائهم قوة بحرية إلى جانب قواتهم البرية.

جمع القرآن:

لما لوحظ اختلاف المسلمين في قراءة القرآن أشار أحد المسلمين على عثمان أن يدرك أمر المسلمين قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلف اليهود والنصارى فطلب عثمان من حفصة بنت عمر بن الخطاب أن ترسل الصحف لكي تنسخ في مصاحف، وكلف عثمان كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوه في المصاحف وقال لهم عثمان: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا" حتى إذا ما أتموا هذا العمل رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل مكان بمصحف مما نسخ، وأمر عثمان بحرق ما سوى ذلك من المصاحف أو الصحف^(٢٩).

المبحث الثالث

الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

أسباب الفتنة:

حدث في آخر خلافة عثمان ما يسميه المؤرخون المسلمين بـ "الفتنة" ويقصدون بها انقسام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم، وهي الوحدة التي أوجدها أبو بكر بقمع الردة وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم، وقد ترتب على هذه الفتنة حروب بين المسلمين راح الخليفة نفسه ضحيتها، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول الأسباب المباشرة لوقوع هذه الفتنة، ولكن هناك ترجيح لجملة من العوامل والأسباب غير المباشرة لوقوعها.

لعل أهم تلك العوامل تغير ظروف المجتمع العربي فقد كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يتلزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقصيف والزهد خشية أن تجرفهم حياة الترف في المدن المفتوحة في تيارها، فقد ترتب على فتح الشام والعراق ومصر أن تفتحت أعين الفاتحين على بيئات حضارية جديدة لم يشهدوها من قبل، فهموا بالخروج عن بداولتهم والاستمتاع بما أنت به الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذي لا يتعارض مع الإسلام، ولكن عمر نهاهم عن ذلك وفرض عليهم الإقامة في

معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوي، حفاظاً على خشونتهم التي جعلت منهم محاربين أشداء.

على أن السياسة التي التزمها عمر لم تثبت أن انتهت بانتهاء عصره، فلما تولى عثمان الخلافة لم يتشدد كما كان عمر، وإنما اتبع مع المسلمين سياسة تقوم على التساهل فانطلق العرب في عصره إلى حياة الترف وحصروا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة، فانتقوا في مأكلهم ومشربهم وفي ملبسهم وشيدوا القصور السامقة المنمقة الجران الموزونة الأبعد بدلاً من الدور الساذجة التي كانوا يعيشون فيها في الباذية.

وهكذا أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها عثمان بعد شدة عمر وتضييقه على المسلمين إلى انطلاق كبار الصحابة والتابعين إلى الأمصار الإسلامية ومساركتهم في إنشاء ارستقراطية دينية فقد أثروا ثراء فاحشاً وابتداوا القصور وزعوا الأراضي والخطط، بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الأمصار بعد الفتح.

ويعلل بعض المؤرخين^(٢٠) إقبال عمال عثمان وكثير من أهل عصره على الترف بأن عثمان كان في غاية الجود والكرم والسمحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله، من المعروف أن عثمان بنى داره في المدينة في سنة ٤٢٧هـ بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتني أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة، وذكروا أنه نطاول في البناء حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة^(٢١) وقد هذا كثير من الصحابة حنوه ففي أيامه اقتني جماعة من الصحابة الضياع والدور في مقاماتهم

مروان بن الحكم الذي بني القصور بذى خشب (واد على مسيرة ليلة من المدينة)^(٣٢) والزبير بن العوام بني دارة بالبصرة تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، كما ابنتى دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية، وابنتى طلحة بن عبيد الله التميمي داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين، وشيد داراً بالمدينة بناها بالأجر والجص والساج، كذلك ابنتى سعد بن أبي وقاص داره بالقيق فرفع س מקها ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات.

ونكروا أن زيد بن ثابت حين توفي خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار. كذلك نكروا أن المقادد بن الأسود ابنتى داره في المدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطن، وأحصوا ما خلف يعلى بن منه بعد وفاته فوجدو قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثة وأربعين ألف دينار^(٣٣).

إن هذا التساهل مع كبار الصحابة في الإناء واقتداء القصور فضلاً عن الإسراف في إبرار القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة لم يكونوا من الصحابة ولم ينبووا عن الدين، أدى إلى ظهور الترف بوضوح في المجتمع الإسلامي وعودة الحجاز إلى الحواضر الحجازية القديمة، وانتشار نوع من الرفاهية التي لا تتناسب قط مع ما ساد الدولة العربية من تكشف في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

لقد كانت نتيجة هذا الثراء أن ظهر الالهو والترف في المجتمع الحجازي فعاد أهله إلى سماع قصائد الحب كما جلبوا القيأن الفارسيات والروميات بحيث اشتهرت مدينة النبي ومكة في زمن عثمان بوجود أمهر المغنين^(٣٤).

وقد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورفاهية وينظر إلى عمر على أنه حمل نفسه ما لا تطيق فقد كان عمر يعيش على العيش الخشن وخبز الشعير والقناعة باليسير^(٣٥).

بينما ابتعد سيدنا عثمان عن هذه السياسة التغشيفية فكان يلبس الخبز والطيلسان وفاخر الثياب ويدرك المؤرخون أنه شد أسنانه بالذهب^(٣٦) وكان يأكل اللحم والسمن وصغار الضأن مع ألين الطعام، صحيح أنه كان يأكله من مalle الخاص إذ كان أكثر قرش مالاً وأجدهم في التجارة ولكنه بحكم منصبه ك الخليفة المسلمين كان عليه أن يصطنع الزهد ليكون مثلاً للأمة الإسلامية، ولذلك أخذ عليه أبو ذر الغفارى إقباله على الدنيا وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون له في ملکة أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكرىء، ويأخذ بظاهر القرآن «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفَقُوهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(٣٧)، فكان يقوم بالشام ويقول: "يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكتنزو الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوي بها جيابهم وجنبوبهم وظهورهم" مما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء^(٣٨) فأمر عثمان معاوية بنفيه إلى "الربذة" - من قرى المدينة - وظل فيها حتى وفاته.

من الأمور التي أخذت على سيدنا عثمان رض أن الناس قد أنكروا قيامه بعزل العمال القدامى الذين كانوا يتولون الأ MCSار الإسلامية والذين قد ولهم عمر بن الخطاب رض وعين بدلهم أقرباء من الأمويين مع أن عبد الرحمن بن عوف قبل إعلان خلافته أخذ عليه المواثيق لا يحملبني أمية على رقاب الناس فقد أساء الكثير من هؤلاء وتجاوزوا الحدود، ووضعوا حداً للتقاليد السائدة في عصر عمر. فاستقدم عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما منبني أمية، والحكم هو طريد رسول الله صل كان قد غربه عن المدينة ونفاه عن جواره ^(٣٨).

فولى مروان ابن الحكم -ابن عمه- على المدينة وكتب له بخمس غائم إفريقية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح -أخوه من الرضاعة- على مصر مكان عاملها الكفاء عمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر -ابن خاله- على البصرة، وسعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص -وكلاهم أقربائه- على الكوفة، وكان معظم هؤلاء العمال غير جديرين بمناصبهم وكان عرب الأ MCSار يشكون منهم ويتمنون زوالهم.

لقد كان أبو مروان يسمى طريد النبي كما أشرنا وعبد الله بن سعد بن أبي السرح مطعون الخلق والدين، فقد هدر النبي صل دمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابته الوحي لولا شفاعة عثمان والوليد بن عقبة، كذب على النبي ونزلت هذه الآية بسببه ﴿يَا أَيُّهَا النِّسَاءُ إِنَّمَا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِّئْتَ أَقْتَلُوكُمْ﴾ ^(٣٩)، وهو من أخبار رسول الله صل أنه من أهل النار، وذكروا أنه شرب الخمر مع ندمائه ومحنته يوماً من أول الليل حتى الصباح، لما آذنه المؤذنون بالصلاحة خرج في غلاته فتقدما إلى

الفصل الثالث: خلافة عثمان بن عفان

المحراب في صلاة الصبح (في مسجد الكوفة) فصلى بهم أربع ركعات، ثم
قال: أتريدون أن أزيدكم، وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربـه

أن الولـيد أـحق بـالعذـر

نـادـى، وـقـدـ تـمـتـ صـلـاتـهـمـ

أـزـيـدـكـمـ؟ـ ثـمـلـاـ،ـ وـمـاـ يـدـرـيـ

لـيـزـيـدـهـمـ أـخـرـىـ،ـ وـلـوـ قـبـلـواـ

لـقـرـنـتـ بـيـنـ الشـفـعـ وـالـوـتـرـ

وأشاع الناس في الكوفة فعاله الذميمة وتجلت لهم مظاهر فسقه ومداومته على شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسلمين فوجدوه ثملاً وقد اضطجع على سريره لا يعقل فايقظوه من رقدته فلم يفق فانتزعا خاتمه من يده ورحل منهم اثنان إلى المدينة فأخبرا عثمان بخبره وأخرجا له خاتمه فزجرهما ودفع في صدريهما فخرجا إلى علي بن أبي طالب وأخبراه بقصة الوليد بن عقبة فخرج علي إلى عثمان وقال له: "دفعت الشهد وابتلت الحدود" فطلب منه عثمان المشورة فيما ينبغي عليه عمله فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة من يستقدمه فإذا وجهت إليه التهمة ووجهت بالشاهددين ولم يستطع الرد يقام عليه الحد فأمر عثمان باستقدام الوليد فاستقدم وأقام عليه الشاهدان الشهادة فلم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي فأخذه وجده به أربعين جلة^(٤٠)، وقيل جلده عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، ثم ولى عثمان بعده سعيد ابن العاص فاستبد بالأموال وعبد بها

وأساء السيرة وذكروا أنه كتب مرة إلى عثمان يقول: "إنما هذا الواد قطين لقريش، فرد عليه الأشتراط ابن الحارث النخعي: أتعجل ما أفاء الله علينا بظلال سيفنا ومراعينا بستانًا لك ولقومك" فقدم الأشتراط النخعي في سبعين رجلاً من أهل الكوفة إلى عثمان وأبلغوه سوء سيرة سعيد ابن العاص وطالبوه عثمان بعزله عنهم فكره عثمان أن يعزله ولكنه اضطر إلى ذلك اضطراراً فولى أهل الكوفة على أنفسهم أبو موسى الأشعري^(٤١).

ومع كل ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين عرب الأنصار الذين كان معظمهم جفاة من صميم البدية لا تفهم قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الإسلامية سيراً حسناً فضلاً عن حقدتهم على قريش لمكانتها وظهور الإسلام فيها وتمتعها بمعظم خيرات الفتوح.

فهو لاء الدين قامت الفتوح على أكتافهم كانوا يريدون أن يكون لهم رأي مسموع في اختيار الخليفة، بحيث أنهم أرسلوا أمراءهم إلى المدينة بعد موته عمر وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفتين الأولين دون معارضة لمكانتهم، ولجسامه الظروف في ذلك الوقت، وهي ظروف ارتداد العرب والفتح ولكن هذه الظروف الحرجية كانت قد انتهت واقتصرت الفتوح على تأمين حدود الخلافة، فلم تعجبهم طريقة اختيار خليفة الإسلام دون مشورتهم ومن وراء الكواليس. من ناحية أخرى لم ير أهل "المدينة" تحقيقاً للوعد الذي بذله لهم المهاجرون في سقيفة بني ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء فهم لم يستشاروا إطلاقاً في اختيار عثمان^(٤٢).

نتيجة لكل هذا وذاك فشت الأقاويل بين عرب الأنصار بفقد الخليفة وتصرفاته، وساعد على ذلك لينه وحلمه بعد شدة عمر، وأيضاً كبر سنها، فقد بلغ

الفصل الثالث: خلافة عثمان بن عثمان

الثانية والثمانين من عمره، مع العلم أنه لم يجرؤ أحد من قبل على نقد أبي بكر وعمر، حيث كان كل منهما يسوس الأموال والمناصب بالعدل والقسطاس.

في سنة ٦٥٥ هـ خرجت جماعات من الثوار على عثمان في مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة لطالبه بالإصلاح أما الشام فلم يظهر منها متعرض لوجود معاوية القوي فيها، وكان هذا التصرف يعني تدخلًا صريحةً من الأنصار في أمور السياسة العليا واجتراء على هيبة الخليفة، وبدلًا من أن يظهر الخليفة قوة وحزمًا أمام عرب الأنصار ضعف ولجا إلى مفاوضتهم ووعدهم بإصلاح الأخطاء واعترف بأنه زل وتاب مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأنصار^(٣).

ولكن بعد رحيلهم عن المدينة ادعى عثمان في إحدى خطبه أن عرب الأنصار اعترفوا له بأن ما بلغهم عنه باطلًا ولما كان أهل المدينة على علم بحقائق الأمور فقد استكثروا على الخليفة الكذب، وحينما خطبهم رموه بالحجارة حتى وقع مغشياً عليه، من ناحية أخرى وقع في يد عرب مصر الفسطاط كتاب مرسى من عثمان إلى عامله^(٤) يأمره بجلد المتمردين والمئلة بهم وطول الحبس، ولذلك أسرع عرب الأنصار بالعودة إلى المدينة ليجاهوه بالكتاب ولكن الخليفة أنكر مما أوعز صدورهم وجعلهم يحاصرون بيته بقصد تعطیشه ومنع القوت عنه حتى يخلع نفسه عن الخلافة.

مقتل عثمان:

لما تحقق سيدنا عثمان من خطورة الحالة بالمدينة ورأى نفسه عاجزاً عن إخماد حركة الثوار بعث بكتب إلى الأنصار يطلب فيها المساعدة والنجدة وليس

من شك في أنه كان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصرتهم، ثم انضموا إليهم أثناء حصارهم دار عثمان، فقد كتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام حين تعرض لسخط الناس ونقدهم قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام، ثم أرسل إلى عبد الله بن عامر بالبصرة نسخة من هذا الكتاب".

لم يتجاوز حصار الثوار في بادئ الأمر الإحاطة بدار عثمان فكان الخليفة حراً يخرج من داره ويصلّي بالناس ويُسْعى الرسل في أثناء ذلك بينه وبين الثوار وكان الثائرون من أهل الأ MCSAR يرمون من وراء المحاصرة إلى إر GAMe على خلع نفسه لكنه أبي النزول عن الخليفة، وقال: "... أما قولكم تخلع نفسك، فلا أنزع قميصاً ألبستيه الله عزوجل، وأكرمني به وخصني به على غيري ولكنني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمين".

على أن التوتر الذي ساد المدينة من جراء توافد الثوار وحصارهم دار عثمان ما لبث أن اشتد عندما علم الثائرون أن عمال الخليفة في الأ MCSAR قد أجابوا طلب الخليفة فأعدوا الجنود لإرسالهم إليه ليكونوا عوناً له بالمدينة يشددون الحصار على عثمان ليرغموه على التنازل عن الخليفة، ووصل ببعضهم الأمر إلى تهديده بالقتل.

لم يكن عثمان يظن أن من بين المسلمين من يقدم على قتل خليفتهم، ويتبَّع لنا ذلك من قوله لأصحابه: "ولم يقتلوني وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يحل دم امرئ مسلم في إحدى ثلات: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد

إحسانه أو قتل نفساً بغير ذنب" فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بيبني بدلاً من ذهاني الله، ولا قتلت نفساً، ففيما يقتلونني؟.

طال حصار الثوار لدار عثمان، وساعتم معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاوة في المسجد وحالوا دون وصول الماء إليه، وصار الزاد لا يصل إليه إلا خفية وقد قيل أن الحصار استمر أربعين يوماً، وكان عثمان من حين لآخر يحضر التأذين الفتنة وينذكرهم بآيات الله فلا يبعون بقوله، ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة، فأشعل الثوار النار في باب داره واقتحموه وكان جالساً في محرابه يقرأ القرآن، فضربوه بالسلاح وبعجاو بطنه بالحراب وسلخوا هامته بالعمد فسال دمه على المصحف في حجره، وقد حاولت زوجته نائلة بنت الفراصة -التي تزوجها من قبيلة كلب على حدود الشام- انقاء سيف الثوار بيدها فقطعوا إصبعين من أصابعها، فكشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رديعاً لهم، ولكن هذا لم يمنع من قتل زوجها الذي ألقى بجسده في الأوساخ وقد سمعت نائلة إلى دفن زوجها وأرسلت بقميصه المخضب بالدم وأصابعها التي قطعت إلى معاوية لتجريمه علىأخذ بثار الخليفة المقتول مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين^(٤٥).

واعترافاً بفضل عثمان وإنصافاً له يجب أن نجله وأن نسترحم عليه لأنه رضوان الله عليه كان مصدر خير المسلمين وداعية هداية وسلم، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السادة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٌ عنهم. وإنه من الإنصاف في حق عثمان ألا ننظر إلى إيجامه عن أخذ الثائرين ضده بالشدة والقسوة ومعاملتهم باللعن والصفح على أنه من أثر وهن من

شيخوخته أو ضعف أراده وغير ذلك على أنها سجيته التي طبقها تطبيقاً عملياً طوال حياته، فقد كان يرجو الهدوء والاستقرار لأمته، لكن مهارة الأعداء في الكيد له وكذلك عدم إخلاص بعض قرابته له في المشورة وفي السلوك وسعفهم لخدمة مصالحهم الخاصة على حساب مصالح الأمة حال بينه وبين ما كان يرجوه من أمن وأمان وأدى إلى تلك النهاية الأليمة والتي دفعت الأمة الإسلامية ثمنها باهظاً في المراحل اللاحقة.

هواش الفصل الثالث

- ١- الطبرى، ج٤، ص٤٢٠، ابن هشام، السيرة النبوية، ص٢٥٠.
- ٢- ابن هشام، ص٢٥٠ - ٢٥٣.
- ٣- ابن سعد، ج٣٠، ص٣٥٢.
- ٤- المسعودي، مروج الذهب، ص٤٢٦.
- ٥- الطبرى، ج٥، ص١٣٠ - ١٣٢.
- ٦- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٠ - ٢٤٢.
- ٧- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٣ - ٢٣٤.
- ٨- ابن الأثير، ج٣، ص٣٠ - ٣١.
- ٩- الطبرى، ج٤، ص٣٤٤ - ٣٤٥.
- ١٠- المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٥.
- ١١- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ١٢- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ١٣- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٩٢، ٢٤٤، ٢٥١ - ٢٥٢.
- ١٤- البلاذري، ص٤٥٣.
- ١٥- معجم البلدان، ج١، ص٢٠٣.
- ١٦- البلاذري، ص٢٨٩.
- ١٧- ابن عبد الحكم، ص١١٩.

- ١٨- المصدر نفسه، ص ١٢٨.
- ١٩- الطبرى، ج ٤، ص ٣١٧.
- ٢٠- البلاذرى، ص ٢٣١ - ٢٣٤.
- ٢١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.
- ٢٢- ابن عبد الحكم، ص ١٣٢.
- ٢٣- البلاذرى، ص ١١٦ - ١١٧.
- ٢٤- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٩.
- ٢٥- ابن عبد الحكم، ص ١٩٣.
- ٢٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٨.
- ٢٧- البلاذرى، ص ١٥٢.
- ٢٨- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٨ - ٥٩، ابن عبد الحكم ص ١٩١.
- ٢٩- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٦.
- ٣٠- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٣٢، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٢.
- ٣١- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ٣٣.
- ٣٢- ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٧٢.
- ٣٣- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

الفصل الثالث: خلافة عثمان بن عفان

- ٣٤- أمثال: ابن محرز وطويس وابن سريح، ابن خلدون، المقدمة، ص .٣٦٥
- ٣٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٧
- ٣٦- التوبة: ٣٤.
- ٣٧- الطبرى، ج ٥، ص ٦٦.
- ٣٨- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٤، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٨٣، اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٠.
- ٣٩- الحجرات: ٦.
- ٤٠- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٦، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٠٧.
- ٤١- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٣٨.
- ٤٢- المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١١.
- ٤٣- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٣-٨٥.
- ٤٤- لقد روى الطبرى قصة ذلك الكتاب، ومواجهة الثوار لعثمان بالأمر وقسمه على أنه ما كتب ولا أمر بكتابه هذا الكتاب، أنظر: ج ٥، ص ١٠٨.
- ٤٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٧٨.

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

المبحث الثاني: معركة الجمل

المبحث الثالث: معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة



المبحث الأول

شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولد علي من أبوين منبني هاشم قبلبعثة عشر سنوات، فأبوه أبو طالب ابن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول، وأمه فاطمة بنت أسد ابن هاشم، وقد سمته أمه في البداية "حيدرة" على اسم أبيها أسدن والحديرة هو الأسد، ثم غيره أبوه فسماه "عليا" وبهذا الاسم عرف واشتهر، ومن الثابت أن فاطمة أسلمت وهاجرت مع الرسول، وكانت من السابقات إلى الإسلام.

كان علي أصغر أخوته، ونظرًا لما أصاب أبا طالب من الجهد بسبب كثرة عياله عرض عليه ذوو قرباه كفالة بعضهم من قبيل التخفيف عنه، فاحتفظ بابنه عقيل الذي كان أثیراً لديه وسمح لأخيه حمزة بأن يأخذ جعفر، ولل Abbas يأخذ طالب وللنبي يأخذ علي، وهذا فدر لعلي أن يتربى في كنف النبي الذي أحاطه برعايته وأكرم مثواه رداً لجميل عمه نحو حين كفله في صغره عقب موت جده عبد المطلب.

ولما بعث النبي كان علياً صبياً فآمن بدعوته فكان أول من آمن من الصبيان. ولا عجب! فكل الذين ضمهم بيت النبي وقتذاك أظهروا حبهم الشديد له

٢٢١

وبادروا إلى الدخول في الإسلام وفي مقدمة هؤلاء زوجه الطاهرة السيدة خديجة ومولاه زيد بن حارثة الذي فضل أن يعيش في كنف النبي على العيش مع والده وقد أحنَّ على النبي مثلهما وتحمس للدعوة الإسلامية وهو بعد صبي، فحين دعا النبي قومه عند الصفا وناشدهم الدخول في الإسلام وموازرته على نشره لم يستجيب منهم أحد وقال عمه أبو لهب في سخرية لاذعة: "تبأ لك أهذا جمعتنا؟ فانبرى على من بين الحاضرين وقال للنبي: أنا وزيرك.. أنا عنون لك حرب على من يعاديك".

ولعلي تاريخ حافل في خدمة الإسلام منذ صباح وأبلى بلاء منقطع النظير فقد نام مكان الرسول ليلة أن هاجر إلى يثرب وهو يعلم أن الكفار وطدوا العزم على قتله، ثم لحق بالرسول بعد أن رد الودائع التي كانت لدى الرسول إلى أهلها، فضرب على بذلك أروع أمثلة البطولة والفاء، وحين آهني النبي في يثرب بين اتباعه من المهاجرين والأنصار خص علياً من بين هؤلاء بشرف أخوته عليه الصلة والسلام، ثم لم يلبث أن زوجه من ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة.

ومن الثابت أن علياً شهد المشاهد كلها باستثناء "تبوك" إذ عهد إليه النبي برعاية شؤون أهله حين خرج في هذه الغزوة، وكان علي في كل هذه المشاهد النجم اللامع والبطل المغوار، ففي يوم بدر كان ثالث ثلاثة قدمهم النبي لمبارزة الكفار، وعلى الرغم من صغر سنه يومذاك فلم يمهل خصمه إذ بادر بالإجهاز

عليه، وفي يوم الخندق اجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن عبد ود فارس جزيرة العرب الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه على السواء. وقد خرج عمرو يومذاك مقعنًا في الحديد ينادي في جيش المسلمين: هل من مبارز؟ فقال علي بأعلى صوته: أنا له يا رسول الله، فأشفق عليه وقال له: إنه عمرو، اجلس، ثم عاد عمرو ينادي في تحد ظاهر: ألا رجل بيبارز؟ وأعاد هذا القول المرة تلو المرة، وعلى يحاول النهوهض إليه والرسول يقول له اجلس، إنه عمرو، وهو يجيئه، وإن كان عمروا ... وأخيراً أذن له الرسول بالنهوهض إليه وقد استكشف عمرو منازلة فتى صغير وراح يقول: يا ابن أخي إن من أعمامك من هو أحسن، وإني أكره أن أريق دمك، فرد عليه علي بقوله: لكنني والله لا أكره أن أريق دمك، فاستشاط عمرو غضباً ووجه ضربة بسيفه البخار إلى علي فلتقاها بدرقه، ولم يلبث أن رد عليه بضربة أرداهه صريعاً، مما حدا بال المسلمين إلى أن يجأروا يومذاك بالتهليل والتکبير.

وفي غزوة خيبر وقع اختيار الرسول على علي بن أبي طالب رض وقال: لأعطيين الرایة غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فيفتح الله عليه، فلما أصبح الناس دعا عليه ووجهه إلى ما استعصى على المسلمين من حصون خيبر، فأتم الله فتحها على يديه.

ازدانت شجاعة علي بالتورع عن البغي والمروءة مع الخصم قويًا كان أو ضعيفاً، وسلامة الصدر من الضعن على العدو بعد الفراغ من القتال، والدليل على ذلك أنه على الرغم من قوته البالغة وشجاعته النادرة لم يبدأ أحد

بقتال، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام، ومن الثابت أنه كان ينصح ابنه الحسن بقوله: "لا تدعوا إلى مبارزة، فإذا دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باع والباغي مصروع"، وقد علم علي ذات يوم أن جنود الخوارج يغادرون عسكره وهم يتأنبون لحربه، ونصحه البعض بضرورة المبادرة إلى قتالهم قبل أن يشرعوا هم في قتاله، لكن علياً أبى أن يكون هو البادي في القتال وقال لنا صحبه: "لا أقاتلهم حتى يقاتلوني" وقد التزم علي بهذا المبدأ على الدوام، فلم يكن المبادئ بالقتال في وقعتي الجمل وصفين، ولا في غيرهما من الواقع، صغرت أو كبرت، ووضح فيها عداء العدو أو غمض.

كان علي منع جنده من الإجهاز على مدبر أو جريح، ومن أن يكشفوا سترًا أو يأخذوا مالًا، وقد صلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعداء على السواء، ولما ظفر بعد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص -وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه- عفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر عمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حيث كشف عن سوانحه انتقام لضربيته.

وحال جند معاوية بينه وبين الماء في وقت صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشا، فلما حمل عليهم وأجل لهم عنه سمح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وحين راجعه أتباعه حرص علي على زيارة السيدة عائشة بعد وقعة الجمل التي قادتها ضده رغم انتصاره على جيشهما، كما ودعها أكرم وداع حيث سار في ركبها أميالاً وسير معها من يخدمها ويحف بها على الرغم من أن

طلحة بن عبيد الله قد خلع بيته وجمع الجموع لحربه، إلا أنه رثاه حين قتل رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، ولم يدخل على عن هذه المبادئ السامية حتى آخر رمق في حياته فمن الثابت أنه نهى أهله وأصحابه عن أن يمثلوا بقائه عبد الرحمن بن ملجم أو أن يقتلوا أحداً غيره.

كذلك اشتهر علي بحرصه الشديد على أموال المسلمين، فذكر الطبرى أن خازن بيت المال في خلافة علي قال: "دخل علي يوماً وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال فقال: من أين لها هذه؟ الله على أن أقطع يدها، فلما رأيت جده في ذلك قلت: أنا يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها؟ فسكت" وطلب أخوه عقيل بن أبي طالب شيئاً ذات يوم من بيت المال بدون وجه حق فمنعه علي وقال له: "يا أخي ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك، ولكن أصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريده" غير أن عقيلاً لم يرضه هذا الجواب وفارق أهله إلى بلاد الشام حيث قصد معاوية بن أبي سفيان^(١).

من جانب آخر كان علي فوق بلائه في الحرب مدينة علم وورع وتقوى وفضائل يعرفها الجميع ومضرب الأمثال في العلم والفقه والفصاحة، يلقي القول فيأخذ بمجامع القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس، فيذكر السيوطى في تاريخ الخلفاء^(٢): إنه كان أشعر الخلفاء الراشدين، وقد احتوى الكتاب المنسوب إليه والمسمى (نهج البلاغة) كثيراً من الأشعار والخطب البالغة والحكم النادرة. هذا فضلاً عن أنه كان يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية

الحديث ومسائل الميراث والقضايا الفقهية المستعصية، وقد روي أن عمر كان يتعود من القضايا المعضلة ويقول: قضية ولا أبا حسن لها، وأبو الحسن كنية علي بن أبي طالب.

بيعة علي:

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أصبحت المدينة "عاصمة الدولة الإسلامية" في قبضة الثوار، وأصبح المسلمون بدون خليفة يقودهم ويجمع كلمتهم ويدبر أمورهم، وأوشكت الفوضى أن تطل برأسها وظل الحال على ذلك أربعة أيام بعد مقتل عثمان وفي اليوم الخامس أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد، لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام ولا بد أن يباعي هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما في أيديهم، وخاصة أقوامهم "ماوية بن أبي سفيان" وربما يرسل قواته إلى المدينة لإخضاعها لسلطته.

وعلى الرغم من اتفاق الثوار على ضرورة اختيار خليفة غير أنهم لم يتفقوا على شخص الخليفة، وقد اضطرب أمرهم وبقوا حيارى لا يدركون ماذا يصنعون وأدركوا أنهم إن رجعوا إلى أمصارهم بقتل عثمان دون تولية خليفة جديد اختلف الناس في أمرهم، كما أدركوا أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماماً، وأنه لابد من الاستعانة بالمهاجرين والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة وقالوا لهم: "يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم نتبع وقد أجلناكم

يومكم، فواهـ لـنـ لمـ تـرـغـواـ لـيـقـتـلـ غـدـاـ عـلـىـ وـطـلـحـةـ وـالـزـبـيرـ وـأـنـاسـ كـثـيـرـونـ،ـ فـذـهـبـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ إـلـىـ عـلـىـ يـعـرـضـونـ عـلـيـ الإـمـامـةـ وـيـلـحـونـ عـلـيـهـ فـيـ قـبـولـهـاـ وـحاـوـلـ أـنـ يـمـتـنـعـ فـخـوـفـهـ مـنـ فـتـتـةـ.

وهـنـاكـ روـاـيـةـ أـخـرـىـ تـقـوـلـ:ـ إـنـ عـلـيـاـ قـالـ لـهـمـ:ـ "ـدـعـونـيـ وـالتـمـسـوـاـ غـيـرـيـ،ـ فـإـنـاـ مـسـتـقـلـوـنـ أـمـرـاـ لـهـ وـجـوـهـ وـلـهـ أـلوـانـ"ـ لـاـ تـقـوـمـ بـهـ القـلـوبـ وـلـاـ تـثـبـتـ لـهـ العـقـولـ"ـ فـقـالـلـاـوـاـ لـهـ:ـ "ـنـنـشـدـكـ اللـهـ أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ؟ـ أـلـاـ تـرـىـ فـتـتـةـ؟ـ"ـ فـقـالـ:ـ "ـقـدـ أـجـبـتـكـمـ،ـ وـأـعـلـمـوـاـ أـنـيـ إـنـ أـجـبـتـكـمـ رـكـبـتـ بـكـمـ مـاـ أـعـلـمـ،ـ وـإـنـ تـرـكـتـمـوـنـيـ فـإـنـاـ أـنـاـ كـأـحـدـكـمـ إـلـاـ أـنـيـ مـنـ أـسـعـكـمـ وـأـطـوـعـكـمـ لـمـنـ وـلـيـتـمـوـهـ"ـ،ـ ثـمـ اـفـتـرـقـوـاـ عـلـىـ ذـلـكـ وـاتـعـدـوـاـ الغـدـ،ـ وـتـشـاـورـ النـاسـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ.

وـفـيـ السـيـوـمـ التـالـيـ المـوـافـقـ ٢٣ـ مـنـ ذـيـ الـحـجـةـ سـنـةـ ٣٥ـ هـجـرـيـ لـجـتمـعـ الـمـسـلـمـوـنـ بـالـمـسـجـدـ فـقـالـ لـهـمـ عـلـيـ:ـ "ـإـنـ كـنـتـمـ لـاـ تـزـالـوـنـ عـلـىـ مـاـ أـبـرـمـاـ مـسـ فـأـنـاـ مـعـكـمـ عـلـىـ ذـلـكـ إـلـاـ فـلـاـ سـبـيلـ لـيـ عـلـىـ أـحـدـ"ـ فـقـالـلـاـوـاـ لـهـ نـحـنـ عـلـىـ ذـلـكـ،ـ وـتـدـاعـيـ الـنـاسـ لـلـبـيـعـةـ وـبـاـيـعـهـ جـمـهـورـ مـنـ كـانـ حـاضـرـاـ بـالـمـدـيـنـةـ وـتـخـلـفـ عـنـهـ بـعـضـ مـنـ كـانـوـاـ بـالـمـدـيـنـةـ مـنـ الصـاحـبـةـ كـسـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ وـعـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ وـحـسـانـ بـنـ ثـابـتـ وـالـنـعـمـانـ بـنـ بـشـيرـ وـمـحـمـدـ بـنـ مـسـلـمـةـ وـأـبـوـ سـعـيدـ الـخـدـرـيـ وـأـسـمـاءـ بـنـ زـيدـ وـغـيـرـهـ مـمـنـ اـعـزـلـوـاـ فـتـتـةـ"ـ^(٣).

أـمـاـ طـلـحـةـ وـالـزـبـيرـ فـقـدـ اـخـلـفـتـ الـرـوـاـيـاتـ فـيـ مـوـقـفـ كـلـ مـنـهـمـاـ مـنـ بـيـعـةـ عـلـيـ ^{عليـهـ} فـبـعـضـهـاـ يـرـوـيـ أـنـهـاـ تـأـخـرـاـ عـنـ بـيـعـةـ حـتـىـ أـكـرـهـاـ عـلـيـهـاـ فـجـيـءـ بـهـمـاـ

فهراً فبأيامه تحت ظلال السيوف وببعضها يروي أنهم كانوا على رأس المبايعين
لعلي بالخلافة عن رضا واختيار^(٤).

لقد تمت البيعة لعلي بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر، ولكن الذي كان يشغل علياً هو الشام لعدم اشتراكه في البيعة من جهة ولأن واليه هو معاوية أقوى الولاة وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن علياً كان يرى أن بيته قد انعقدت ولزمنه من تأخر عنها بإجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي وموطن الصحابة وهم أهل الحل والعقد.

وعلى الرغم من أن البيعة قد تمت لعلي إلا أنه كانت توجد جبهة معارضة -إن صحت هذه التسمية- ضد هذه البيعة، وأسباب هذه المعارضه لا يمكن أن تفسر أو تندرج في إطار الحرص على مصلحة الإسلام أو مصالح الأمة بقدر ما كانت تعبر عن مصالح وأهواء شخصية، فالمعارضة لم تكن شعبية بقدر ما كانت معارضة "نخبة" أو مجموعة محددة من الصحابة ويمكن أن نفسر أسبابها بالآتي:

كان علي عليه السلام غرة بن هاشم وكانت أحقيته في الخلافة مبنية في المقام الأول -في نظر البعض على الأقل- على قرابته من الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه وكان معنى هذا أن إسناد الخلافة إليه سوف يجعلها وراثية في بنيه من بعده، وهذا مبدأ لا يقره الإسلام ولا تقبله العرب، ولا يرضيه الطامعون في الخلافة.

من جانب آخر - وهو الأهم - أن وصول علي إلى حكم الدولة الإسلامية معناه العودة إلى المبدئية والصلابة والحزم في تطبيق المبادئ الإسلامية هذا في الوقت الذي استراح فيه كثير من الناس إلى سهولة ولين وتسامح عثمان بعد تشدد عمر -رضي الله عنهم- فكيف لهم العودة إلى الدقة والصرامة والحساب، كما كان هناك الكثيرون الذين أثروا بدون حق وحصلوا على نفوذ كبير ومعنى إسناد الخلافة إلى علي ضياع ثرواتهم وفقدان سلطانهم، لهذه الاعتبارات وغيرها لم تكن بيعة علي بالإجماع الكامل من الذين كانت تحركهم مصالحهم الخاصة.

سياسة الإمام علي عليه السلام ومنهجه:

بعد أن تمت البيعة لعلي خطب الناس خطبة قال فيها: "إن الله عزوجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدهم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم، تخفوا تلحفوا، فإنما ينتظر الناس آخرتهم، اتقوا الله عباده في عباده وببلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عزوجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) ^(٥).

نهج على عليه السلام منهج عمر وسار بسيرته في الزهد وإقامة العدل والشدة على ذوي الأهواء فقد كان يرى أن أسلوب عمر في الحكم هو الأسلوب الأمثل لقيادة الدولة الإسلامية، فيروى عنه أنه قال: "إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئاً صنعه"، وقد عاش عليه السلام عيشة أقرب إلى الخشونة والشطوف أقرب منها إلى الرفة واللين، وكان يحمل عماله على الزهد والتقصيف والرفق بالرعيية، ويطلب منهم الاستعانة في أعمالهم بالأشخاص الذين يستطيعون تحمل المسؤولية بغض النظر عن الصدقة والقرابة، وكان شديد الحرث على مصالح الأمة شدة أبعد عنه كما كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية.

ومن أبرز ملامح سياسة علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أمر بتقسيم المال الفائض على الناس بالسوية دون تفضيل أحد على أحد، كما عاد إلى سياسة عمر في عدم السماح لكتاب الصحابة بالانسياح في الأ MCSارات والإبقاء عليهم بجواره في المدينة مخافة أن يفتتن بهم الناس، أو يفتتوا هم بالناس.

من جانب آخر قام الإمام بعزل الولاية الذين كانوا في خلافة سلفه عثمان ابن عفان، واستبدالهم بولاة جدد، لأنهم كانوا مثار شكوى وتذمر المسلمين، وأهم أسباب الفتنة ولأن عزلهم كان ضرورياً لإسكات السنة الذين يتهمونهم بالعسف وعدم الكفاءة^(١).

من ذلك يتبيّن لنا أن علياً عليه السلام قد سار في الناس سيرة عمر بن الخطاب عليه السلام ولكن مع رعية أشد وأعسر من رعية عمر، وأرغبه في الدنيا منها، وأخذ نفسه بأشد مما أخذ عمر نفسه، فهو بذلك ابتغى المثالية في وقت انعدمت فيه

المثالية هذا فضلاً عن اتحاد كلمة المسلمين وانقيادهم لعمر، بينما في عصره اختلفت الآراء، وتشتت الأهواء، وعلى ذلك فمنهج على جاء في وقت غير وقته.

المبحث الثاني

معركة الجمل

مقدمة الأحداث:

لم تصف الخلافة لعلي بن أبي طالب يوماً واحداً منذ تسلمهما بعد مقتل عثمان، فقد أخذت الأحداث تسير بسرعة مذلة نحو مسار مؤلم أسفراً عن دراما دموية خضبت وجه التاريخ الإسلامي المشرق بالدماء البريئة وأجبرت علي على خوض غمار معركتين كبيرتين كانتا أول حرب أهلية في الإسلام هما: وقعة الجمل ووقدة صفين.

إن المتتبع لتلك الأحداث ومقدماتها لا بد أن يقرر بأن هاتين المعركتين ترتبطان في أسبابهما بعنصرين أساسيين، الأول: شخصية الإمام علي بن أبي طالب رض وسياسته، والثاني: مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وإن مناقشة هذين العنصرين بموضوعية وحياد هي محاولة لوضع الأمور في نصابها التاريخي الصحيح.

أما عن سياسة علي - فمما لا شك فيه - أن سياسة الإنسان جزء منه ومرآة لأخلاقه، وعلى بن أبي طالب مجبول على المبدئية والصراحة، لا يعرف في الحق لومة لائم، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق، وقد بادر بعد

بيعته مباشرةً وتتنفيذًا لمنهجه الذي التزم به في خطبته السابقة بإصدار أمرين في منتهى الصراوة وهما: عزل ولاة عثمان وإرسال ولاة بدلًا عنهم، واسترداد القطائع والهبات الكبيرة التي أقطعها ووهبها عثمان من بيت المال لأقربائه بدون حق، ولم يستمع على لنصح أقاربه وأتباعه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا التصرف ريثما تستقر له الأمور لأنهم توقعوا أن تصرفه هذا سينتاج عنه حتماً تمرد بنى أمية -أقارب عثمان- وعصيائهم وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

ونذكر المؤرخون أن المغيرة بن شعبة -أحد دهاء العرب- أتى عليه عندما علم باتجاه علي نحو هذه السياسة فخلا المغيرة بعلي ونصح له بإقرار عمال عثمان على ما في أيديهم ليكونوا عوناً له وسندًا حتى إذا ما أنته بيعتمهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء، فقال علي للمغيرة: "لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنيا في أمري" فتركه المغيرة ثم عاد في اليوم التالي وقال: "إن الرأي أن تعزل عمال عثمان وتستعين بمن تثق به"، وقد جاء بعد ذلك ابن عباس إلى علي فقص عليه رأي المغيرة بالأمس ورأيه اليوم فقال ابن عباس: "لقد نصحت بالأمس وغضبت اليوم" فقال علي: "ولم نصحي؟" قال: "لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتم لا يبالون من ولی هذا الأمر، ومتى تعزلتم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شوري، وهو قتل صاحبنا (أی عثمان)، ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام والعراق، مع أنني لا آمن من طلحة والزبير أن يكرراً عليك، وأناأشير عليك أن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعلي أن أخلعه من منزله" فقال علي: "والله لا أعطيه إلا السيف"، وقال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب"، وبعد محاورة طويلة قال له ابن عباس: "أطعني... فإن العرب

قد تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليوم فإن بني أمية يلزمونك شعبه من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تقدر على ما يريدون "فأبي علي أيام شديدة وسار في طريقه واختار عماله اختياراً حسناً ولكن أكثر هؤلاء العمال عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددها لهم^(٧).

وبصدد موقف كل من طلحة والزبير فقد استدعاهما علي وطلب رأيهما فلم يعطياه رأياً واضحاً وطلبا السماح لهما بالخروج إلى مكة للعمره فأذن لهم^(٨).
أما معاوية بن أبي سفيان والي الشام فقد رفض الطاعة لعلي وانتقض عليه وإزاء ذلك بدأ الخليفة علي بن أبي طالب يتجهز لغزو الشام والقضاء على تلك الحركة الانفصالية التي قادها معاوية قبل تقادها، وبينما كان الخليفة يعد العدة لغزو الشام جاءه الخبر بأن أهل مكة قد أجمعوا أمرهم للخروج على الخليفة فوجه نظره إليهم^(٩).

أما العنصر الثاني الذي يتصل بأسباب المعارك التي خاضها علي بن أبي طالب مضطراً وهو مقتل عثمان بن عفان والمطالبة بثاره والقصاص من قاتليه فإنه لم تكن تتم بيعة علي ويرجع إلى بيته حتى جاءه طلحة والزبير في عدد من الصحابة وقالوا: يا علي، إننا اشتربطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم (الثوار) قد اشتركوا في قتل هذا الرجل (عثمان) وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم علي: يا أخوتاه لست أجهل ما تعلمون ولكنني ماذا أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكونكم هؤلاء قد ثارت معهم عبانكم وثبتت إليهم أعرابكم وهم حلا لكم يسومونكم ما شاءوا،

فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فوالله لا أرى إلا رأياً ترونـه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية يعني الثأر - فاـهدـوا عـنـي حتى يهـدـأ الناس، وـتـقـعـ القـلـوبـ مـوـاقـعـهـاـ وـتـؤـذـ الـحـقـوقـ، فـتـفـرـقـ الـقـومـ.

كان الخليفة علي واضحاً في موقفه بخصوص القصاص من قتلة عثمان، وهو الترث والانتظار حتى تستقر الأمور وتهـادـ النـفـوسـ، ويـمـكـنـ منـ سـيـطـرـتـهـ علىـ الـأـوضـاعـ فـيـ الدـوـلـةـ وـبـذـلـكـ تـقـوـىـ سـلـطـةـ الـخـلـفـةـ، ثـمـ بـعـدـ ذـلـكـ يـشـرـعـ بالـقصـاصـ منـ قـتـلـةـ عـثـمـانـ، وـلـكـ يـبـدـوـ لـنـاـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ أـنـ الـذـينـ أـثـارـوـاـ مـسـأـلـةـ الـقصـاصـ فـيـ وـقـتـ مـبـكـرـ أـرـدـواـ إـحـرـاجـ الـخـلـفـةـ الـجـدـيدـ وـمـحـاـصـرـتـهـ فـيـ مـرـكـزـ لـاـ يـحـسـدـ عـلـيـهـ، فـقـدـ أـصـبـحـ أـمـامـ الـمـطـالـبـ بـالـثـأـرـ مـنـ قـتـلـةـ عـثـمـانـ بـيـنـ أـمـرـيـنـ لـاـ ثـالـثـ لـهـماـ: إـمـاـ التـعـجـيلـ بـالـقـصـاصـ مـنـ قـتـلـةـ عـثـمـانـ وـإـقـامـةـ الـحدـ عـلـيـهـ وـبـذـلـكـ سـيـثـورـ أـنـصـارـ هـؤـلـاءـ الـجـنـاهـ وـتـكـونـ فـتـتـهـ أـخـرـىـ لـاـ قـبـلـ لـهـ بـهـاـ، لـأـنـهـ كـمـاـ قـالـ "يـمـلـكـونـنـاـ وـلـاـ نـمـلـكـهـمـ" وـإـمـاـ أـنـ يـنـتـظـرـ حـتـىـ تـسـتـقـرـ لـهـ الـأـمـورـ وـيـقـوـىـ مـرـكـزـهـ وـيـسـتـطـعـ الـأـخـذـ بـالـقـصـاصـ وـبـذـلـكـ سـوـفـ تـزـدـادـ نـيـرـانـ الـثـوـرـةـ اـشـتعـالـاـ مـنـ أـجـلـ الـمـطـالـبـ بـثـأـرـ عـثـمـانـ.

أـسـامـ هـذـاـ الـاختـيـارـ الصـعـبـ رـأـيـ الإـلـمـامـ عـلـيـ الـاـنتـظـارـ حـتـىـ تـسـتـقـرـ الـأـمـورـ وـيـسـتـقـيمـ لـهـ المـرـ، وـذـلـكـ لـمـ يـرـضـ الـمـطـالـبـيـنـ بـثـأـرـ عـثـمـانـ وـازـدـادـتـ ثـورـتـهـمـ اـشـتعـالـاـ، فـقـدـ رـحـلـ بـنـوـ عـثـمـانـ إـلـىـ الشـامـ حـيـثـ أـمـيرـهـاـ مـعـاوـيـةـ وـقـدـ أـصـبـحـ عـمـيدـ بـنـيـ أـمـيـةـ هـذـاـ فـضـلـاـ عـنـ قـدـرـتـهـ بـحـكـمـ مـرـكـزـهـ الـقـويـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ عـلـىـ الـمـطـالـبـ بـالـثـأـرـ كـمـاـ رـحـلـ غـيـرـهـ إـلـىـ الـأـمـصـارـ الـمـخـتـلـفـةـ يـصـوـرـونـ لـأـهـلـهـاـ تـلـكـ الـجـرـيـمةـ الـبـشـعـةـ الـتـيـ حلـتـ

بال الخليفة عثمان من قتل وتمثيل، فثارت النفوس وارتقت الأصوات في مصر والشام والكوفة والبصرة واليمن تطالب بسرعة القصاص من قتلة عثمان.

في مثل هذه الظروف الصعبة أقدم الخليفة علي بن أبي طالب على عزل ولاة عثمان الأمر الذي زاد الأحوال سوءاً وتآزماً ولم يترى في مسألة عزلهم عن تلك الأمصار حتى يضمن وقوفهم بجنبه ولو إلى حين، ولكن الإمام علي لا يعرف المداهنة والمداورة ولم يكن رجل سياسة بالمعنى المعروف بل كان مثالياً صريحاً في الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم، فكيف يتناقض مع نفسه ويستبقي هؤلاء الولاة الذين طالما طالب عثمان بعزلهم لظلمهم، إنما عزلهم على الرغم من معارضة الناصحين له - كما سبق وأشارنا - وكان ما كان من رفض أغلبهم الانصياع لأوامر الخليفة وتمردهم عليه ولا سيما معاوية الذي أقام بالشام بعد العدة، ويرتب ما تسفر عنه الحوادث معلقاً قميص عثمان على منبر المسجد الجامع بدمشق ومتهم الخليفة علي بالتسתר أو التراخي مع قتلة عثمان فولد ذلك في - النفوس هناك حركة انتقامية تهدف إلى معاقبة هؤلاء المجرمين، كما حمل البعض بين طيات هذا الموقف أغراضًا أخرى واتخذه ستاراً لتحقيق أهدافه وما رأبه الخاصة وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

أما الموقف في مكة فلم يكن خيراً منه في الشام فقد ساء عائشة - زوجة الرسول ﷺ - ما لقيه عثمان وانضم إليها بمكة سائر بنى أمية وبعض أهل الحجاز وعلى رأسهم طلحة والزبير، وكان الجميع يستتر تحت شعار "المطالبة بدم عثمان" فاتّلّج ذلك صدر معاوية وازداد جرأة وإقداماً وعمد إلى إلهاب الحماسة

في نفوس هؤلاء بما وجهه إليهم من رسائل، وراح ينتظر ما يسفر عنه الموقف بين أهل مكة وال الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام (١٠).

لقد ذهب بعض المستشرقين وبعض المؤرخين إلى القول بأن السياسة غير الموقفة التي اعتمدها الإمام علي بن أبي طالب هي التي جرته إلى تلك الحروب ولكننا لو نظرنا إلى مسار الأحداث بشيء من التمعن والدراسة الموضوعية لوجدنا أن هذا الرأي مبالغ فيه وينطوي على رؤية قاصرة للأمور، وتأكيداً لقولنا هذا نطرح الأسئلة الآتية، والجواب عليها يمثل خير رد على أصحاب ذلك الرأي:

- هل كان من الممكن أن يحتج على عزل الولاة الظالمين ويطلب من الخليفة عثمان عزلهم حتى إذا تولى الخليفة تركهم يمارسون ظلمهم؟.
- هل كان من الممكن أن يثور علي على القطائع والهبات التي أعطيت من بيت مال المسلمين بدون حق لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخليفة أفرها؟.
- هل كان التمرد الذي عاناه علي ناشئاً عن عزل الولاة واسترداد القطائع؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير وخاصة غمار حرب الجمل ضد؟.
- هل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سبباً في عزله لو لم يعزل؟.

- وأخيراً هل يمكن أن نطلب من علي بن أبي طالب **عليه السلام** أن يكون شخصاً آخر غير علي؟^(١١).

وفي سياق هذه التساؤلات قال بعض المؤرخين: إن ذلك الوقت لم يكن الوقت المناسب لعلي لكي يصبح خليفة، وكان من الأفضل لل المسلمين أن يتولى أمر الخلافة شخصية أخرى غير علي في ذلك الوقت، شخص يستطيع المداهنة والمداورة، على أننا يجب أن نتذكر جيداً أن محاولة تنصيب شخص آخر غير علي في منصب الخليفة كان أمراً محكوماً عليه بالفشل، وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لمنصب الخليفة وعلى موجود؟.

وتأسساً على كل ذلك يمكن القول أن تولية علي كانت طبيعية، وأن سلوكه في سياساته كان أمراً طبيعياً، وأن التمرد الذي واجهه كان طبيعياً أيضاً، وكان نتيجة لسير الأحداث لأنه كان صراعاً من أجل السلطة والمصالح الخاصة، وإن اتخذ تبريره في مقتل عثمان، أو المطالبة بثاره، أو عزل الولاية أو استرداد الأموال المسلوبة من بيت مال المسلمين.

موقعة الجمل^(*):

عزم علي **عليه السلام** على غزو الشام لإخماد فتنة معاوية قبل أن يستفحل خطورها، فلما بلغ ذلك طلحه والزبير استأذنوه في العمرة فأذن لهم، فلحقاً بمكة، ولقيا عائشة فسألتهما عما صنع الناس بعد مقتل عثمان فأجابها طلحة: "بایعوا علينا ثم أتونی فاكرونی حتى بایعْت" فقالت: "وما لعلی يتولی على رقابنا، لا أدخل المدينة ولعلی فيها سلطان"^(١٢) فرجعت.

فلا أتاهها خبر أهل الشام بأنهم ردوا بيعة علي وأتوا أن يباعوه فأخذت تدعو لطلب الثأر من قتله، أما علي فأخذ يجهز حملته المقدمة إلى بلاد الشام فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولي عبد الله بن عباس على ميمنته وعمرو بن أبي سلمه على ميسيرته وأبا ليلى بن عمر الجراح على مقدمته ثم استخلف قثم بن العباس على المدينة، ودعا أهلها إلى قتال أهل الشام، كما كتب إلى قيس بن سعد (عامله على مصر) وإلى عثمان بن حنيف (عامله على البصرة) وإلى أبي موسى الأشعري (عامله على الكوفة) يدعوهم إلى ندب الناس لمحاربة أهل الشام، وبينما كان في طريقه إلى الشام إذ وصله كتاب من أخيه عقيل يخبره بأن طلحه والزبير نكثاً بيعتهما وانضم إليهما عائشة وأنهم خرجوا في جموع كثيفة نحو البصرة فاضطر علي إلى تغيير وجهته إلى الكوفة وسار في تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار^(١٣).

كانت عائشة أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنها كانت أكثر خصومة وعداء له، وقد استجاب لها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة، وتبعه عدد كبير من بنى أمية على ذلك، وكانوا قد تسللوا من المدينة هاربين ولادوا بمكة، وتبعهم المغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص كما قدم إليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن منبه ومعه ستمائة ألف درهم، فأنسخ بالأبطح، ثم قدم إليها طلحه والزبير بحجة قضاء العمرة، وأعلنوا نكثهما لبيعتهما لعلي، واستقر رأي الجمع على السير إلى البصرة لكثره من بها من صنائع ابن عامر، وساروا إليها في ألف من أهل مكة والمدينة ولحقهم الناس، حتى أصبح عدة من معهم ثلاثة آلاف رجل، وما أن وصلت عائشة ومن

معها إلى نواحي البصرة حتى أقامت "بالحفيর" وكتب إلى رجال أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وغيره تدعوهم إلى الانضمام إليها في المطالبة بدم عثمان، ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف والي المدينة الناس إلى التأهب للقتال، ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى "المربد" وتم الاشتباك بين اتباع علي وعلى رأسهم عثمان بن حنيف وحكيم بن جبله العبدى وبين اتباع عائشة وطلحة والزبير في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦ هجري، وانتهت بهزيمة اتباع علي ومقتل حكيم بن جبله، أما عثمان بن حنيف فقد وقع أسيراً فأمر مروان بن الحكم بعثمان فنفت لحيته وشعر رأسه وحاجبيه، وضرب أربعين سوطاً ثم أطلق سراحه فقابل علياً في ذي قار^(١٤).

وما كاد علي يصل إلى "الربذة" حتى علم بما أصاب عثمان بن حنيف واتباعه من أهل البصرة على أيدي العثمانية فأقام بالربذة بعض الوقت وسیر خلال ذلك رسولين من قبله (محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر) إلى الكوفة لدعوة أهلها إلى نصرته ثم تابع علي سيره إلى البصرة ماراً بفید والثعلبية حيث بلغه هناك مصروع حكيم بن جبلة وواصل سيره بعد ذلك حتى بلغ "ذى قار" وهناك أقبلت عليه وفود من بكر بن وائل وطيء وأسد وعرضوا عليه بذلك النصرة والعون فشكرهم على عرضهم وأبلغهم بأن لديه من يكفيه من المهاجرين، وفي ذي قار أدركه رسولاً إلى أبي موسى الأشعري بالковفة يخبر أنه بفشل مهمتها فسير إلى الكوفة ولده الحسن في صحبة عمار بن ياسر فعادا هذه المرة ومعهما من أهل الكوفة نحو تسعة آلاف وقيل ١٢ ألفاً قدموا عليه بذى قار^(١٥).

بلغ جيش الإمام علي بعد وصوله ذي قار نحو عشرين ألفاً، معظمهم من المهاجرين والأنصار وأهل الكوفة والبصرة، زحف بهم حتى دنا من البصرة فنزل "الخريبة" وهناك كتب الكتائب وعقد من الألوية والرایات سبعاً لقبائل العرب، وجعل لكل أصحاب رأية قائداً، ثم عقد لسائر قريش والأنصار والجهاز رأية، وولى عليهم عبد الله بن عباس، ثم قسم هذه الألوية إلى ميمنة جعل على مقدمتها الأشتار النخعي، وميسرة على رأسها عمار بن ياسر وقتل يتقى ابنة محمد بن الحنفية.

ولما بلغ ذلك طلحة والزبير قاما بتبنيّة حشودهما وعدتهما -على ما رواه البعض- ثلاثون ألفاً، وقسموها إلى كتائب، ثم عقدوا الألوية واستعدا للقتال وعز على علي أن يقاتل المسلمين بعضهم بعضاً، فأقام ثلاثة أيام ورسوله يتربّد على أهل البصرة يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة، ولكنهم لم يستجيبوا لندائه، فزحف بقواته لخوض المعركة في ١٠ من جمادى الآخرة فلما دنت صفوفه من صنوف خصومه، وعائشة في هوجها في المقدمة قد كسي بصفائح الحديد والذروع يحمله جمل مجفف بتجافيف الحديد دعا القوم إلى الصلح وناشدتهم حقن الدماء، ولكنهم أصرروا على الحرب فطلب عليّ من طلحة والزبير أن يدنوا منه ليتحدث إليهما، فدنوا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكر طليحة والزبير بأنهم أخوة في الإسلام يحرمان دمه ويحرم دمهم ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإحسان فأجابه طلحة بأن مرجع ذلك أنه ألب على عثمان وأنه إذا كان قد بايع علياً فلأنه مكرهاً والسيف على عنقه، ثم ذكر علي الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله ﷺ عندما قال ﷺ موجهاً حديثه للزبير بعد

أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً: "إما أنك تقاتله وأنت ظالم له"^(١٦) فلما ذكره بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً ثم انصرف إلى أصحابه وهو ينوي اعتزال المعركة، ولكن ابنه عبد الله أتاه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات علي بن أبي طالب  فاحفظه هذا الاتهام وكفر عن يمينه لعلي بأن اعتق غلامه مكتولاً ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها ولم يستطع أن يواصل القتال وقيل أن الزبير أقبل على ولده عبد الله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة ودعا ولده إلى الانصراف معه فألبى عبد الله أن يرجع حتى يحكم الله بين الفريقين فتركه الزبير ومضى نحو البصرة وعقد النية على العودة إلى الحجاز، وقدر له أن يلقى مصرعه فقد أجمع المؤرخون على أن الزبير قتل خارجاً بوادي السباع، على يد عمرو بن جرموز أحد اتباع الأحنف بن قيس الذي طعنه ثم قتله^(١٧). أما طلحه فقد أصابه سهم فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف، ونزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات وقيل طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة^(١٨).

دارت المعركة في شهر جمادي الآخرة سنة ٣٦هـ وكانت المعركة عنيفة في بدايتها ولكنها انتهت سريعاً في يوم واحد بهزيمة الحلفاء الثلاثة ونهى علي أصحابه عن قتل جريح أو أسير أو فار كما نهاهم عن انتهاي أي مال، وكان بين الأسرى مروان بن الحكم وعمر بن عثمان وموسى بن طلحة وعمرو بن سعيد ابن العاص فلما عرض عليهم علي أن يبايعوه أجابوه إلى ذلك فأخلوا سبيلهم^(١٩).

وأيا ما كان الأمر فقد كانت المعركة عنيفة فر منها الزبير لا جبنا ولا خوفاً ولكن لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه وعند عودته من بماء لبني تميم فرأه الأحنف بن قيس فقال: جمع الزبير هذين المعسكرين ثم ولى وتركهما، فثار عمرو بن جرموز لذلك وكان في مجلس الأحنف فلحق بالزبير خفية حتى جلس تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغدا فقتله عمرو وهو نائم، أما طلحة فيروي أن مروان بن الحكم عندما رأه في مطلع المعركة قال: لا أنتظر بعد اليوم بشاري من عثمان ورماه بهم فأرداه قتيلاً. أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة علي الأشداء حتى سقط، ولكنه لم يجهز عليه وبقي في خندق فلم يشترك في المعركة بعد ذلك، واعتبر ذلك منه فراراً، وقد ظل ابن الزبير يُعيراً بفاراره وقراره أليه من هذه المعركة فقد روي أنه هاجم عبد الله بن العباس مرة في المسجد الحرام فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عنه نفسه: وأما قولك يا ابن الزبير أني قاتلت أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخلالك، أما أنت وأبوك فقد قاتلتما علياً، فإن كان علي مؤمناً فقد ظلمتم بقتالكم المؤمنين وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بقراركم من الزحف^(٢٠).

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عائشة من الناحية الشكلية وقد سقط آلاف القتلى من الجانبين، ولما رأى علي ذلك أرسل من عقر الجمل فسقط هودج السيدة عائشة فأمر علي بحمله إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال حتى لا تصاب أم المؤمنين بأذى وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل وبسقوط الهودج انتهت المعركة بنجاح علي.

ثم جاء محمد بن أبي بكر إلى أخته عائشة فأدخلها داراً من دور البصرة فاقامت أياماً وعندما أرادت الارتحال جهزها علي بكل ما يلزمها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة ليكونوا برفقتها وسير معها أخاهما محمد بن أبي بكر وعاتبها عتاباً خفيفاً ولما حانت ساعة الرحيل ودعها علي بنفسه وسار بجانب الهدوج حتى خارج المدينة وكان ذلك في غررة جمادى سنة ٣٦ هـ فسارت عائشة إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثم توجهت إلى المدينة ولم تتدخل بعد هذه المعركة في الشؤون السياسية حتى وفاتها سنة ٥٨ هـ.

كان عدد قتلى معركة الجمل -على ما يقدره بعض المؤرخين- نحو عشرة آلاف، وقدره آخرون بأكثر من ذلك، وقتل في هذه المعركة الكثير من أعلام المسلمين وقد حزن علي عليه الله لذلك أشد الحزن فكان يتعرف على القتلى من أصحابه ومن خصومه ويترحم عليهم جميعاً، كما صلى على القتلى جميعاً من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس من دفن موتاهم، وأقام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاثة أيام، وحين دخلها جاء المسجد فصلى فيه وجلس للناس فبايعوه ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة الناس جميعاً على السواء فلم يحاول معاقبة زعماء الحزب الذين انضموا إلى عائشة وجيشه، وقد أغضب فعله هذا بعض أنصاره ولكنه لم يكترث لهذا ومضى في طريقه ولا عجب فهو ربّيّ النبوة.

بعد أن نتلقى على عليه السلام بيعة أهل البصرة انتقل إلى الكوفة واتخذها عاصمة لدولته وبذلك فقدت المدينة مركزها السياسي باعتبارها عاصمة للمسلمين وأصبح النزاع بعد ذلك محصوراً بين علي خليفة المسلمين وبين معاوية بن أبي سفيان زعيم الأمويين.

لقد كانت معركة الجمل أول حرب أهلية بين المسلمين وكانت بداية لمعارك قادمة اصطلي بنارها عشرات الآلاف من المسلمين الأبراء، وقد اختلف المسلمون بظواههم بعض الشيء في تحديد المسؤول عن هذه المعركة بل نجد بعض طوائف المسلمين يؤثر السكوت عن الخوض في هذا الموضوع نظراً لمنزلة زعماء الفريقين المتحاربين فهم جميعاً من الصحابة، كما أن بينهم السيدة عائشة زوجة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه.

ولتحديد المسؤولية يجب أن نستبعد أولاً الكفر فليس لإنسان أن يكفر من قال [لا إله إلا الله محمد رسول الله] معتقداً لها، وزعماء هذه المعركة من الفريقين من خيرة من قالها مؤمناً بها، وقد سئل علي عليه السلام عن أصحاب الجمل: "أمشركون هم؟" قال: "من الشرك فروا". قيل: "فمنافقون هم؟" قال: "إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً"، قيل: "فما هم؟" قال: "إخواننا بغوا علينا" فالذي تتحدث عنه هو المسؤولية والإثم لهذه الدماء البريئة التي استغلت لأهداف خاصة، وهنا سؤال هام يطرح نفسه وهو: هل كانت هذه الحرب حرب مبادئ؟ وهل ثارت السيدة عائشة وطلحة والزبير لدم عثمان حقيقة؟

إن في الإجابة على هذا السؤال مدخل لتحديد المسؤولية إذ لو كانت حرب مبادئ لهان الأمر، ولكن اجتهاداً أخطأ فيه المجتهد، ولكن هذه الحرب لم تكن حرب مبادئ، ولم تكن من أجل دم عثمان، وليس اجتهاداً أخطأ فيه صاحبه، وقد سئل مروان بن الحكم سوكان في جيش عائشة - إلى أين تسيرون؟ فأجاب: لقتل قتلة عثمان، فقال السائل: فاقتلونا قادة جيشك فهم قتلة عثمان، وقد فر الزبير من المعركة كما سبق وأشارنا - لأنه لم يكن يعتقد أنه على صواب، ولم يكن يدافع عن عقيدة، كما قتل مروان طلحة، ولم ينج من قادة جيش عائشة سوى السيدة عائشة نفسها لأنها امرأة ولأنها زوجة رسولنا ﷺ - وقد ظلت - كما يقول المؤرخون طوال عمرها حزينة تمنى لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عاماً، كما يروي ابن عبد ربه أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها تدفني مع رسول الله؟ قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثاً فادفنوني مع أخيتي بالبقاء، وذلك لأنها كانت تشعر بأنها تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية لأنها خرجت في الجيش فتحمس الكثير للخروج معها، كما أن آلاف القتلى قتلوا دفاعاً أو هجوماً حول جملها.

هذا ويقرر بعض الباحثين أن المسؤولية في هذه المعركة تكاد تحصر في عائشة وابن أختها عبد الله بن الزبير، أما بقية الأطراف فإن مسؤوليتها قليلة ومن الأدلة التي يسوقها هؤلاء الباحثون: أن السيدة عائشة خرجت للمعركة على الرغم من وجود عوامل كانت كفيلة بمنعها من الخروج بكاءً آلاف المسلمين يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشؤومة حتى سمي ذلك اليوم يوم النحيب، وأيضاً الخطاب الذي تلقته عائشة من أم سلمة تعظها وتذكرها بأن خروجها

للحرب هناك للحجاب الذي ضربه الرسول عليها، وأهم من ذلك الآية الكريمة:
﴿وَقَرِئَ فِي يَوْمَئِنَ﴾ التي لم يغب عن عائشة مغزاها.

ومع كل ذلك فقد خرجت السيدة عائشة مدفوعة بما في نفسها من على
بسّبب موقفه منها في حادثة الإفك، كما أن هناك عامل أكبر دفعها للخروج وهو
ابن أختها عبد الله بن الزبير الذي تربى في بيتها وبناته حتى كانت تسمى أم عبد
الله، وكان عبد الله يطمع في الخلافة ولكن وجود علي كان يحول بينه وبين
تحقيق أمنيته، فدفع خالته عائشة لخوض هذه المعركة ضد علي لعل عليا يسقط
فيها فيخلي له الجو، وكثيراً ما ترددت عائشة ولكن عبد الله كان يحاول دائماً أن
يزيل ترددتها، وعلى ذلك فيمكن القول: إن السيدة عائشة دُفعت لهذا العمل وأن
الذى دفعها هو عبد الله، وقد روى أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة
صياحهم فقالت: المنازعة في الحرب خور؛ والصياح فيها فشل، وما برأبي
خرجت مع هؤلاء. كما يستدل على ذلك من خلال الحوار الذي جرى بين ابن
الزبير ومعاوية بيان خلافة معاوية الذي قال لابن الزبير: "... وخدعتم أم
المؤمنين ولم تراعوا رسول الله ﷺ إذ أبهرتم زوجته للحتوف ومقارعة السيف".

وكذلك فإن عائشة أثناء سيرها في الطريق إلى البصرة نجحتها كلاب
فسألت أين نحن؟ فقيل لها: عند ماء الحوائب، فقالت: ما أراني إلا راجعة لأنى
سمعت الرسول يقول لنسائه: كأنى بإحداكم تتبعها كلاب الحوائب، ولكن عبد الله
ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها أن ذلك ليس ماء الحوائب واستشهد لها
بعض الأعراب الذين أكثرتهم لذلك.

من جانب آخر فإن عبد الله هو الذي دفع أباه الزبير أيضاً ليشرك في هذه الموقعة، فieroى أن علياً قال للزبير: كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وقد أشرنا سابقاً إلى أن الزبير عزم على الرجوع عن الحرب وأعلن عزمه فجاءه ابنه عبد الله وحمسه بقوله: لعاك خشيت رأيات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت^(٢١).

المبحث الثالث

معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة

مقدمة:

كان الإمام علي بن أبي طالب رض وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الفاصلة يجب أن تكون ضد معاوية أتباعه من الأمويين وأهل الشام، فمعاوية هو الذي رفع شعار العصيان والتمرد بحجة المطالبة بدم عثمان لأنه ابن عمه وهو زعيم بني أمية وله جاه عريض بين جنده وأتباعه بالشام، ولم يكن طلحة والزبير -بعد بيعتهما لعلي- محسوبين من الأعداء الأداء، وكذلك لم يظن ظان أن ما بين علي وعائشة سيدفع بـ "أم المؤمنين" أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ضد علي، وبناء على كل ذلك كان استعداد علي من أول الأمر موجهاً لمقاومة معاوية وإخماد فتنته، ولكن الأحداث تطورت باتجاه آخر ومن ثم رأى علي أن يطمئن إلى ظهره أولًا قبل أن يتوجه لأهل الشام فخاص معركة الجمل، وكان من نتائج هذه المعركة سقوط الآلاف من القتلى، وهذا بالطبع أضعف جيش علي، كما سقط الآلاف أيضًا من أهل مكة والمدينة والبصرة ومن تبعوا عائشة وأصحابها، هذا بالإضافة إلى أن جيوش الإمام علي كانت حديثة الصلة به فسيطرته عليها ليست كاملة، كما أنه ليس معه مال يغدق منه على الأبطال والشجعان وعلى فرض

وجود المال معه فليس علىَ بالذى يعطى من مال الله في غير وجهه، من جانب آخر كان ~~له~~ صريحاً صلباً في رأيه لا يحيد عنه طالما اقتضى بحصته وارتضاه ضميره، ولذلك كان كثيراً ما يحاسب عماله على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيراً الأمر الذي أغضبهم فانفض بعضهم من حوله.

وفي المعسكر الآخر كان يقف معاوية متذمراً من دمشق عاصمة لإمارته التي تولاه منذ خلافة عمر بن الخطاب، وقد أضاف عليها بلداناً أخرى ضمها إليها عثمان، وأمتدت السنوات بمعاوية في الشام وهو سياسي ضليع يعرف الوسيلة إلى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء، لاسيما وأن بلاد الشام غنية فتية لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكماً أزهى ولا أطول من حكم معاوية.

وقد جمع معاوية حوله بطانة من دهاء العرب على رأسهم عمرو بن العاص أحاط بهم نفسه وأشركهم في أمره لا يفتأت عليهم برأي ولا يبرم دونهم أمراً، فأثمر ذلك إخلاصاً له وتفانيًّا في خدمته، كما تجمع حول معاوية بنو أمية أو أكثرهم، وكثير من غيرهم من بطون العرب وقبائلها لاسيما القبائل اليمنية في الشام لما كان بينهم وبينه من صلة المصاهرة، فقد كانت زوجته ميسون من قبيلة كلب، كما كانت إحدى زوجات الخليفة الشهيد عثمان كلبية أيضاً، فوقف هؤلاء إلى جوار معاوية يشدون أزره ويعملون وفق إرادته، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه، ففي الوقت الذي بلى فيه على بأخته جند يدعوه

فيتائقون، ويستفرون فلا يخرجون محاولين الإطلاع على ما ينبغي إخفاوه من الأمور.

كان جيش معاوية طوع أمره لا يسألونه عما يفعل، وقد مضى على معاوية ثمانية عشر عاماً وهو أمير الشام، توطدت فيها قدمه وزاد نفوذه لا سيما إبان حكم عثمان، فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع النهائي لكل الأمور ومن ثم وجد في نفسه الجرأة على أن يتحدى الخلافة الإسلامية الشرعية، تحت غطاء المطالبة بدم عثمان.

موقعة صفين:

في الوقت الذي كان علي يواجه المشاكل التي ترتب على مقتل عثمان كان معاوية بن أبي سفيان يجمع صفوفه في بلاد الشام ويؤلب أهلها على علي، ويتهمه على منبر جامع دمشق بأنه تستر على قتلة عثمان وأن دمه في عنقه، ومبالغه منه في استئثاره أهل الشام على علي واجتذابهم حوله، نصب قميص عثمان وقد خضب بدمه على منبر دمشق وعلى أرданه أصابع نائلة مدلاة، وكان يذكر لهم في خطبه ما صنعه قتلة عثمان به فيكي الناس، فينتهز هذه الفرصة ليدعوهم إلى المطالبة بدمه، كما أن زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية كان سندأ قبلياً قوياً له.

وقد نجح معاوية في خطته نجاحاً لم يكن في الحسبان، إذ أجمع أهل الشام على الالتفاف حوله وأقسم رجال منهم أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من

الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان^(٢٢)، كما أجمعوا على مبايعة معاوية أميراً عليهم، فبعث الرسل إلى كور الشام يطلب منهم أن يبايعوا له بالإمارة، فبايعوا له بها باستثناء شرحبيل بن السبط الكندي والمي حمص الذي بايعه بالخلافة هو وأهل حمص وكتب إليه يقول: "أما بعد فإنك أخطأت خطأً عظيماً حين كتبت إليَّ أن أبايع لك بالإمارة وأنك تزيد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة، وقد بايَعْتَ ومن قبلِي لك بالخلافة"، ثم إن معاوية دعا الناس وأطلعهم على هذا الكتاب ودعاهم إلى بيته بالخلافة فأجابوه^(٢٣).

وكان علي قد استعمل الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وأمد وميافارقين وهيت، كما استعمل على مصر قيس بن سعد، ثم عزله واستعمل الأشتر النخعي، فتوفي بالطريق بعث محمد بن أبي بكر ثم بعث علي بعد فراغه من الجمل إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان عاماً لعثمان على هذان، وإلى الأشعث بن قيس وكان عاماً لعثمان على آذربيجان يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فقدموا إليه فسیر جرير رسولاً إلى معاوية فالفاه وعنه وجوه أهل الشام، فلما أطلع على مضمون كتاب علي استشار أشراف أهل بيته فأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص وكان مقيماً في ضيعة له بفلسطين معتزلاً الفتنة، فأرسل إليه معاوية يستقدمه وكان عمرو يفضل معاوية على علي، فأقبل مع ابنيه وأبدى قبوله لمساعدة معاوية في صراعه المقبل ضد علي، على أن يجعل له مصر طعمة^(٢٤)، فلما بايَعْتَ أهل الشام لمعاوية بالخلافة

على النحو الذي أشرنا إليه أرسل جريراً إلى علي يخبره أن معاوية وأهل الشام لا يحبونه إلى البيعة.

ثم عزم معاوية على السير إلى صفين فعباً أهل الشام وجعل على مقدمته أبا الأعور السلمي وعلى ساقته يشير بن أرطأة وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ابن الخطاب، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، ثم سار في ٨٣ ألفاً من أهل الشام حتى نزل بصفين في النصف من المحرم^(٢٥).

أما علي فقد تجهز للسير نحو الشام عن طريق الجزيرة، فدعا الناس إلى التجمع في المعسكر بالنخلية، واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ثم خرج إلى النخلية، فأقام معسكراً وبعث زياد بن النضر الحارثي في طليعة من ثمانية آلاف مقاتل، وبعث معه شريح بن هاني في أربعة آلاف ثم رحل في ثمانين ألف رجل حتى وافى المدائن فسير من هناك معقل بن قيس في ٣ آلاف من الرجال لموافاته عن الرقة^(٢٦).

ثم وصلت قوات علي السير حتى انتهت إلى موضع يدعى سور الروم، وكان معاوية قد زحف بجيوش الشام حتى وصل صفين، وهي قرية من بناء الروم وعسكرت قواه هناك، وأمر معاوية أبا الأعور السلمي بأن يقف في عشرة آلاف من أهل الشام على طريق الشريعة ليمنع من أراد ورود الماء من جيش العراق، ولكن قوات علي تمكنت من مهاجمة أبي الأعور السلمي ونجحت في التغلب على الماء، ولكن علي أمر بala يمنع أهل الشام من وروده، فكانوا

يسرون جميعاً ويختلط بعضهم ببعض، بل كان عسكر بعضهم يدخل في عسكر بعض، حتى ظن الناس أن الصلح وشيكاً^(٢٧) وقضى الفريقان شهر محرم من سنة ٣٧ دون حرب طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة فلما انسلاخ شهر المحرم استعد الفريقان للقتال، وتم الاشتباك في أول صفر، ودامت الحرب عشرة أيام تخللتها في بعض الأحيان مبارزات فردية، وفي أحيان أخرى اشتباكات ضارية تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة وقتل من الجانبين أعداد هائلة.

وفي اليوم العاشر من بداية المعركة رجحت كفة علي، وأوشكت قواته على سحق قوات معاوية وعمرو، فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهزيمة عمد إلى اصطناع الخديعة، فأمر برفع المصاحف على الرماح والمناداة بتحكيم كتاب الله بين معاوية وعلي، والظاهر أن عمراً ومعاوية دبراً ذلك مقدماً، فأمر أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة، لعلهما بأن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم إلى ذلك.

وكان عمرو يرمي من وراء رفع المصاحف على الرماح إحداث انقسام في صفوف جيش علي، وقد عبر عمرو عن ذلك في قوله لمعاوية: "ترفع المصاحف، ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم" وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال فيها إلى أجل^(٢٨). وفي رواية أخرى قال: "إني قد أعددت بحيلتي

أمراً آخرته إلى هذا اليوم، فإن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه تفرقوا، قال معاوية: وما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك^(١٩) وهذه الرواية تؤكد أن عمرو كان قد نبر هذه الحيلة قبل أن تقدم قوات معاوية إلى صفين، فقد وضع علياً بذلك موضعأً حرجاً، فإن قبل بتحكيم الله فإن جماعة من جنده يفترقون عنه، وإن واصل الحرب والقتال والمصاحف مرفوعة يكره أصحابه، وفي أي من هاتين الحالتين يتتحول الموقف إلى صالح الأمويين.

لم تنطل تلك المحاولة الخادعة على الإمام علي، فأقبل على أصحابه يحذرهم من المكيدة ويؤكد لهم معاوية وعمرو وأبي سرح وغيرهم من المتحالفين مع معاوية ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فهو يعرفهم كل المعرفة، وأنهم لم يرفعوا هذه المصاحف إلا خديعة ووهنا ومكيدة^(٢٠).

ولكن نقرأ من رجاله هددهو إما أن يجيب إلى كتاب الله إذ دعي إليه أو يفعلوا به كما فعلوا بابن عفان، وعز على علي أن يخرب رجاله بين الأمراء فتركهم أحرازاً في اختيار أحد أمراء: إما طاعته وتتمثل في موافقة القتال، وإما عصيائه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم، ثم وقع اختياره على أبي موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم، وحاول على عباثاً أن يثنهم عن هذا الاختيار ورشح لهم ابن عباس فإن لم يرضوا به فالأشتر النخعي فأبوا إلا أبي موسى.

وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن شروط الحكم وموعد اجتماع الحكمين في ١٧ صفر سنة ٤٣٧هـ بحضور عمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام

وأبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، واتفق الطرفان على أن يكتب اسم علي بدون لقب أمير المؤمنين وفي ذلك اعتراف ضمني من المشرفين على التحكيم -على الأقل- بنزول علي -عندهم- ك الخليفة المسلمين إلى مرتبة معاوية المطالب بالخلافة، ونصلت الصحيفة على أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وأن ينزل لا عند حكم الله وألا يتبعوا الهوى ولا يدهنا في شيء من ذلك، فإن فعلاً فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء، وجعل الطرفان أجل القضاء إلى شهر رمضان على أن يجتمع الحكماء في مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وشهد من المسلمين شهود من الطرفين.

ونتيجة لاختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وانقسام الصنوف بين مؤيد للتحكيم ومعارض له، إلى حد التضارب بالمقارع ونصال السيوف، أمر علي أنصاره بالرحيل إلى الكوفة بينما ذهب معاوية وجماعته إلى دمشق، وخرج المعارضون للتحكيم على علي وعادوا من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها هو وأصحابه فقد "عادوا وهم أعداء متباغضون وقد فشا فيهم التحكيم يقطعون الطريق بالشائم والتضارب بالسياط" ^(٣١)، فدخل علي الكوفة ولم يدخل الخوارج معه، فقد انحاز منهم عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم، فلحقوا بقرية حرر راء من قرية الكوفة وجعلوا عليهم شبيب بن رباعي التميمي وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواد اليشكري، وعرفوا بـ "الحرر راء" نسبة إلى هذه القرية وهم أول من أنكر تحكيم الرجال وكان شعارهم "لا حكم إلا الله".

لقد أجبر الإمام علي على قبول التحكيم كارها له تماماً، كما أكره أيضاً على اختيار نائبه في التحكيم وهو أبو موسى الأشعري، وبهذا التحكيم انتهت موقعة صفين التي راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين وكانت نتيجتها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة ضد الإمام علي.

التحكيم:

إن قبول الإمام علي لفكرة التحكيم -كارهاً كما أشرنا- الحق ضرراً بمركزه ك الخليفة للMuslimين، وهو بالتأكيد مدرك لهذا، كما ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج أو المحكمة، والتي تعد في حد ذاتها ثورة على استئثار قريش بالسلطة، فهم يذهبون إلى القول بأن "الأمر شوري بعد الفتح، والبيعة لله عزوجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(٣٢)، وهم بذلك ينكرن الخضوع للسلطان المركزي ويظهرون سخطهم على قريش لأنفرادها بالخلافة.

لقد وجد الإمام علي عليه السلام نفسه وقد أقحم في قضية يرفضها، ولكنه من جانب آخر لم يجد مناصاً من متابعتها، فوجه مع أبي موسى الأشعري شريح بن هاني في أربعة آلاف من خاصته وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمي في عدد مماثل إلى دومة الجندي وسار إلى دومة الجندي بأذرح أيضاً فئة اعزلت الحرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة ليشهدوا صدور قرار التحكيم، وسبق إصدار الحكم

مداولة بين الحكمين اتفقا خلالها على خلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى بين المسلمين^(٣٣) وافترقا على ذلك.

ثم عقد الحكمان في صباح اليوم التالي مجلساً لإصدار الحكم في المسجد الجامع حضره عدد كبير من المسلمين فقدم عمرو أبو موسى عليه في الكلام تظاهراً باحترامه لكبر سنه حتى يبدأ بإعلان خلع علي ومعاوية، فصعد أبو موسى وقال: "أيها الناس إنما قد نظرنا فيما يجمع الله به أمة هذه الأمة ويصلح أمرها، فلم نر شيئاً هو أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين: علي ومعاوية، وتضليلها شورى ليختار الناس لأنفسهم من رؤوه لها أهلاً، وإنني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتم" ثم نزل، فصعد عمرو وخطب المسلمين قائلاً: "إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، ألا وأنني قد خلعت صاحبه كما خلعه، وأثبتت صاحبتي معاوية فإبني ولني أمير المؤمنين عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه"^(٣٤).

وفي روایة يذكرها المسعودي^(٣٥) أن أبو موسى أعلن خلعه لعلي ومعاوية كخاعنه لعمامته التي كانت على رأسه، فأهوى إلى عمamته فخلعها، وأنه استخلف عبد الله بن عمر ثم صعد عمرو وأعلن قبوله لخلع علي ولكن يستخلف معاوية، فشتمه أبو موسى وحاول تكذيبه، ولكن عمراً قال: "بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع علياً ولم أخلع معاوية" وماج القوم ... وأنسل موسى فركب راحلته وهرب حتى لحق بمكة، في حين انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة.

نتائج التحكيم:

كانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية لا لإعلان خلع علي وتنبيه معاوية ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش علي، فقد انقسم اتباعه إلى شيعة ظلوا على الولاء له، وإلى خوارج رفضوا التحكيم وأعلنوا العصيان، وبذروا بثورون على علي ويعترضونه لأنه قبل التحكيم والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون من أرغموا علياً على قبول التحكيم، وكانوا يعتزفون بذلك ويقولون: أخطأنا فلماذا تتبعنا في خطأنا وأنت الخليفة، يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأياً! وانشقوا عليه وخرجوا إلى النهروان.

وكان معاوية قد أرسل بعد صدور قرار التحكيم جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، وكان يلي مصر في هذه الآونة محمد بن أبي بكر، وكان محمد شاباً لا تجربة لديه جاهلاً بأمور السياسة وإدارة البلاد فأساء إلى العثمانية في مصر بدلاً من أن يصطنعهم فثار عليه معاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلد وطالباً بدم عثمان، وأجابهما إلى ذلك جمهور كبير من أهل مصر، فاستغل معاوية هذه الفرصة وأمر عمرو بن العاص بقيادة حملة مؤلفة من ستة آلاف رجل، فسار عمرو إلى مصر وانضم إلى العثمانية، واشتباك مع قوات ابن أبي بكر في المنسنة بالقرب من الفسطاط فانهزم محمد بن أبي بكر وآوى إلى خربة بنواحي الفسطاط فقبض عليه ابن حديج وهو يكاد يموت عطشاً فقتله ووضعه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار، وهكذا أصبحت مصر تابعة لسلطة معاوية، وأصبح عمرو بن العاص والياً عليها^(٣٦).

من جانب آخر ترتب على صدور التحكيم أن تضعضع مركز علي بن أبي طالب بانقسام أهل العراق على أنفسهم في الوقت الذي قوي فيه مركز معاوية بعد ضم مصر إليه ومبaitه بالخلافة، بل إن معاوية لم يكتف بذلك الانتصار بل هاجم البصرة من مناطق نفوذه علي في العراق، في سنة ٣٨ هجري وزع جيشه في العام التالي في العراق، فوجه النعمان ابن بشير في ألف رجل إلى عين التمر، كما وجه سفيان ابن عوف في ستة آلاف رجل إلى هيت والأنبار والمداين وعبد الله ابن مسعة في ألف وسبعيناً إلى تيماء، بل ذكروا أن معاوية خرج بنفسه في نفس سنة ٣٩ هجرية حتى شارف دجلة ثم عاد، كذلك سير معاوية بعثاً إلى الجزيرة فأغار على نواحي الرقة كما بعث السرايا إلى دارا والسمواة ودومة جندل.

وفي العام التالي بعث معاوية بشر بن أبي طالب أرطأة للإغارة على الحجاز واليمن ودخل بسر ولم يقاتل أحد وهدم بها دوراً ثم سار إلى مكة وأكره الناس على البيعة لمعاوية ثم زحف إلى اليمن وقتل جماعات من الأبناء من شيعة علي في اليمن، وهكذا استقر الأمر لمعاوية في الشام ومصر والجاز واليمن وشمال الجزيرة، أما علي فقد شغل بمحاربة الخوارج، فاشتبك مع الحرورية اتباع عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان في سنة ٣٨ هجرية وهزمهم وقتل زعماءهم في ساعة، وكان من قتل زيد بن حبيب الطائي وعبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير، وعبد الله السلمي، ثم حارب علي خوارج الأنبار وما سندان وجراجرايا بالقرب من المداين^(٣٧).

اتفق ثلاثة رجال من الخوارج بعد وقعة النهروان بأشهر على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص في ليلة واحدة، وهم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والنزال بن عامر، وعبد الله بن مالك الصيداوي، على أن يتولى بن ملجم قتل علي، والنزال معاوية وابن مالك عمرو، فترصد عبد الرحمن بن ملجم عليه وهو مقبل ي يؤدي صلاة الفجر فقام عليه بن ملجم وضربه بسيف قد سم حده على رأسه، فحمل علي إلى منزله، وقبض الناس على ابن ملجم، ولم يسمى علي عنه يومه ذاك حتى مات في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية، أما محاولة اغتيال كل من معاوية وعمرو بن العاص فلم يكتب لها النجاح^(٣٨).

وهكذا قضى - كرم الله وجهه - شهيداً بعد أن امتدت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وكانت سنة يوم وفاته ثلاثة وستين عاماً. وبوفاة الإمام علي بن أبي طالب انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

والحمد لله والصلوة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

هوما من الفصل الرابع

- ١ الطبرى، ج٥، ص١٥١ وما بعدها.
 - ٢ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.
 - ٣ ابن الأثير، ج٣، ص١٩٣ وما بعدها.
 - ٤ الطبرى، ج٥، ص١٥٣، ابن الأثير، ج٣، ص١٨٩.
 - ٥ الطبرى، ج٥، ص١٥٧.
 - ٦ المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٤٠-٤١.
 - ٧ ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧، ابن قتيبة، ص٥٠، المسعودي، ج٢، ص٣٥٤.
 - ٨ ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.
 - ٩ أبو حنيفة الدننوري، الأخبار الطوال، ص١٤٣، ابن الأثير، ج٣، ص٢٠٣.
 - ١٠ ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.
 - ١١ انظر: محمد الدقن، عصر الخلفاء الراشدين، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٧٧-١٧٨.
- * - أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذي كانت ترکبه السيدة عائشة زوجة الرسول بنت أبي بكر الصديق.
- ١٢ ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.

- ١٣- ابن قتيبة الدنوي، ص ٥٦.
- ١٤- الأخبار الطوال، ص ١١٤، ابن قتيبة، ص ٧٢، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٢٥.
- ١٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٣١.
- ١٦- ابن قتيبة، ص ٧٤، أبو حنيفة الدنوي، ص ١٤٧، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٠.
- ١٧- ابن قتيبة، ص ٧٦، أبو حنيفة الدنوي، ص ١٤٨.
- ١٨- ابن قتيبة، ص ٧٩، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٤.
- ١٩- الدنوي، ص ١٥١، ابن قتيبة، ص ٨٠.
- ٢٠- ابن قتيبة، ص ٧٦، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.
- ٢١- انظر: محمد الدقن، مرجع سابق: ١٨٢ - ١٨٧.
- ٢٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٧٧.
- ٢٣- ابن قتيبة، ص ٨٢.
- ٢٤- الدنوي، الأخبار الطوال، ص ١٥٨.
- ٢٥- المسعودي، ج ٢، ص ٣٧٥.
- ٢٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٨٠.
- ٢٧- المسعودي، ص ٣٧٧، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٨٥.
- ٢٨- ابن الأثير، ج ٣، ص ٣١٦.

- ٢٩ . الدنیوری، ص ١٨٨
- ٣٠ . ابن الأثیر، ج ٣، ص ٣١٦
- ٣١ . المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٢
- ٣٢ . المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٦
- ٣٣ . الدنیوری، ص ٢٠٠، المسعودی، ج ٢، ص ٣٩٧
- ٣٤ . المصدر نفسه، ص ٢٠١
- ٣٥ . المسعودی، ص ٣٩٩
- ٣٦ . الیعقوبی، ج ٢، ص ٢٢١
- ٣٧ . ابن الأثیر، ج ٣، ص ٣٧٢ - ٣٨٣
- ٣٨ . ابن قتيبة، ص ١٥٢، الدنیوری، ص ٢١٥، ابن الأثیر، ج ٣
ص ٢٩٤

المصادر والمراجع

- ١ القرآن الكريم.
- ٢ الكتاب المقدس.
- ٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار أصدار بيروت، ١٩٦٧.
- ٤ الأزرقي، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤.
- ٥ الأصبهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، بيروت، ١٩٥٦.
- ٦ الأصفهاني، حمزة، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، برلين، ١٣٤٠ هـ.
- ٧ الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧.
- ٨ أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.
- ٩ البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧.
- ١٠ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، ١٩٦٥.
- ١١ الدنیوری، أبو حنیفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦١.
- ١٢ سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية حتى سقوط الدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٦.
- ١٣ ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.

- ١٤ السمهوري، أبو الحسن بن عبد الله، كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- ١٥ السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة، ١٣٢٧.
- ١٦ ابن شربة، عبد الجرهمي، أخبار اليمن، ملحق بكتاب التيجان، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ.
- ١٧ الطبرى، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- ١٨ عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣.
- ١٩ العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٥٩.
- ٢٠ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.
- ٢١ فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، بيروت، ١٩٦٤.
- ٢٢ ابن قتيبة، الدنويوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- ٢٣ ابن الكلبي، الأصنام، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٢٤ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨.

- ٢٥ كستر، الحيرة ومكة، ترجمة يحيى الجبوري، بغداد، ١٩٧٦.
- ٢٦ المقدسي، المطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، باريس، ١٩٠٣.
- ٢٧ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.
- ٢٨ نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوربي وقسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣.
- ٢٩ هاردنج، لانكستر، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان، ١٩٦٥.
- ٣٠ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، كتاب سيرة النبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ١٩٤٦ - ١٩٥٥.
- ٣١ الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، نشرة محمد عبد الله بلهيد النجدي، القاهرة، ١٩٥٣.
- ٣٢ الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازي رسول الله، تحقيق مارسدن جونس، أكسفورد، ١٩٦٦.
- ٣٣ هشام جعبيط، في السيرة النبوية، ج ١، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٣٤ ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.

- ٣٥- يحيى الشامي، الشرك الجاهل وألهة العرب المعبدة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ٣٦- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

الفهرس

٣	المقدمة
٧	الفصل الأول: خلافة أبي بكر الصديق
٩	المبحث الأول: ظهور منصب الخليفة وتولية أبي بكر الصديق
٩	نظام الخلافة:
١٠	ظهور منصب الخليفة ^(١) :
١٤	اختيار خليفة لرسول الله ﷺ:
١٧	المبحث الثاني: حركات الردة
١٩	من أشهر الحركات الارتداد بعد وفاة الرسول :
٢٢	أسباب الردة ودواتها:
٢٥	قمع حركة الردة:
٣٥	المبحث الثالث: انطلاق حركة الفتوح الإسلامية
٣٥	دواتها وأسبابها:
٤٣	تحرير العراق:
٤٧	مقدمات تحرير العراق:
٥٠	الاشتباكات الأولى قبل الحيرة:
٥١	تحرير الحيرة:
٥٣	تحرير الأنبار:

٥٥	تحرير بلاد الشام:
٦١	معركة أجنادين:
٧١	الفصل الثاني: خلافة عمر بن الخطاب.....
٧٣	المبحث الأول: فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية
٧٤	معارك جبهة العراق:.....
٧٦	أهم المعارك قبل القادسية:.....
١١١	القتال في ثلاثة جبهات لتحرير الأراضي العراقية:.....
١١٢	الجبهة الشمالية:.....
١١٦	الجبهة الجنوبية:.....
١١٧	الجبهة الوسطى:.....
١٢١	وقعة نهاوند [فتح الفتوح]:.....
١٢٨	المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر وبرقة
١٢٨	استكمال تحرير بلاد الشام:.....
١٤٦	المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة.....
١٤٦	بناء المدن الجديدة:.....
١٤٧	تأسيس البصرة:.....
١٤٩	تمصير البصرة:.....
١٥٣	تأسيس الكوفة:.....
١٥٦	تأسيس الفسطاط:.....
١٦٠	التنظيمات المالية:.....

١٦٨	تنظيمات إدارية أخرى:
١٥٧	الفصل الثالث: خلافة عثمان بن عفان
١٧٧	المبحث الأول: نشأته وبيعته بالخلافة
١٧٧	التعريف به
١٨١	اختيار عثمان خليفة
١٨٨	كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخارج وإلى العامة
١٩٢	سياسة عثمان . في تولية الأمراء
١٩٥	المبحث الثاني: الفتوحات في خلافته وأهم أعماله
١٩٥	الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان
١٩٦	فتحات المشرق
١٩٨	الفتوحات في مصر
١٩٩	بلاد النوبة
٢٠٠	فتح أفريقيا
٢٠١	تأسيس البحريدة الإسلامية
٢٠٤	جمع القرآن
٢٠٥	المبحث الثالث: الفتنة ومقتل سيدنا عثمان
٢٠٥	أسباب الفتنة
٢١٢	مقتل عثمان
٢١٩	الفصل الرابع: خلافة علي بن أبي طالب
٢٢١	المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم
٢٧١	

المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم ٢٢١
شخصية علي بن أبي طالب ٢٢١
بيعة علي ٢٢٦
سياسة الإمام علي عليه السلام ومنهجه ٢٢٩
المبحث الثاني: معركة الجمل ٢٣٢
مقدمات الأحداث ٢٣٣
المبحث الثالث: معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة ٢٤٩
المصادر والمراجع ٢٦٥
الفهرس ٢٦٩

تَعَالَى مُحَمَّدُ اللهُ

